THREE MEN
IN A BOAT
فريق
متميزون
E-BOOK
ثلاثة رجال
في قارب
رواية
جيروم ك. جيروم
ترجمة : أسماء عرفة
دار دوّن

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

**قام بالتحويل لهذا الكتاب:**

# كلمه مهمة:

**هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.**
**وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.**

**مع تحيات:**

**فريق -متميزون-**

**انضم الى الجروب**

**انضم الى القناة**

# ثلاثة رجال في قارب

# رواية مترجمة..

نُشِرَت للمرة الأولى عام 1889م

## الكاتب: چيروم ك. چيروم.

## ترجمة: أسماء عرفة

# الفصل الأول

## استراحة قصيرة

كنا نجلس جميعًا في غرفتي، أنا ومعي "جورج" و "هاريس" والكلب "مونتمورينسي".

كنا نجلس نحن الثلاثة.. ندخن ونتحدث عن سوء حالتنا الذي نشعر به، وما أعنيه هو الإحساس بالتعب والإرهاق من الناحية الصحية بالطبع، إذ كنا جميعًا نشعر بتوعك قد انتابنا القلق حياله، قال هاريس إنه تأتيه نوبات دوار من حين لآخر لدرجة أنه صار يتذكر بصعوبة ما كان يفعله في كل مرة، ثم أردف جورج تأكيدًا على كلامه بأنه تأتيه هو الآخر النوبات نفسها، التي يكاد يدرك بعدها طبيعة ما يجري من حوله. أما عن نفسي، فقد كانت الآلام التي أشعر بها قد خرجت عن السيطرة، وكنت شبه متأكدًا أن المسألة برمتها ربما تتعلق بقصور في وظائف الكبد أو ما شابه؛ حيث إنني كنت أعكف على قراءة النشرة الطبية المرفقة بعلب الدواء، والتي كانت تذكر الأعراض التي يشعر بها مريض الكبد تفصيليًا، وكنت أمر بها جميعًا!

وإنه لأمر غريب بالمناسبة فلم أعكف يومًا على قراءة نشرة طبية إلا وخرجت بنتيجة أنني أعاني من المرض المشار إليه، حيث يبدو التشخيص الخاص بكل حالة متوافقًا تمامًا مع كل ما أشعر به. أتذكر محاولتي ذات يوم أن أتعرف على علاج لوعكة صحية طفيفة كنت قد مررت بها إثر حمى استمرت معي لأيام - وربما كنت أتوهم - لكنني أمسكت بكتاب عن الصحة العامة وقرأت قدر ما استطعت منه، ومن ثم تفحصت بعض الأمراض الأخرى وأعراضها بشكل عام لدرجة أنني أغفلت ما كنت أعاني منه في الأساس، وما إن انتهيت منه حتى تيقنت أنني أحمل تلك الأمراض جميعها دون أدنى شك.

مكثت في مكاني هنيهة متجمدًا من الرعب، ثم التفت للصفحات مرة أخرى في قنوط حتى بلغت ما جاء بالكتاب عن حمى التيفوئيد، وشرعت أقرأ الأعراض التي أثبتت لي أنني مصاب بتلك الحمى، ويبدو أنني كنت مصابًا بها من عدة أشهر مضت دون أن أعلم بذلك، الأمر الذي جعلني أتساءل عن احتمالية إصابتي بأمراض أخرى.

بدأت ألقي اهتمامًا أكبر على حالتي، وعقدت العزم على قراءة كل جزء إلى نهايته، وبترتيب أبجدي بلغت ما ورد عن مرض "الملاريا"، التي علمت أنني ربما عانيت منها، بل وربما أنني قد بلغت مرحلة الخطر بها دون أن أعي ذلك أيضًا، وبقدر ما قرأت بقدر ما شعرت أنني ربما سأحيا لسنوات قليلة قادمة، وبعدما انتهيت من قراءة حوالي 26 مقالة تهاديت إلى أن المرض الوحيد الذي لم أصاب به هو "مرض ركبة الخادمة"([1]) ..!

أحزنني الأمرِ في البداية على الرغم من أنه يبدو تافهًا بعض الشيء، ولكني تساءلت.. لِمَ لَمْ يصبني مرض الركبة هذا على وجه التحديد؟ إذ إنه وبعد فترة من استيعاب ما كنت أقرأ اتضح لي أنني أصبت بكل مرض متعارف عليه في علم صناعة العقارير، كما أن كل مرض معدٍ يصيب الأطفال قد أصابني في طفولتي.

جلست أفكر مليًا كم أنني أعد حالة مثيرة للاهتمام من الناحية الطبية، دراسة مهمة يمكنهم دراستها في صف دراسي! فلن يكون الطلاب في حاجة للتدرب بالمستشفيات، إذ إنني سأكون بمثابة مشفاهم الخاص، وكل ما سيتعين عليهم فعله الالتفاف حولي والتدرب على حالتي وسيكفيهم الأمر للحصول على شهادتهم، ومن ثم شرعت أتعجب من الوقت الذي تمكنت من العيش فيه، بدأت أتفحص نفسي، أمسكت رسغي كي أستشعر نبضاتي التي لم أستطع الإحساس بها في بادئ الأمر حتى سحبت ساعتي وعددتها، وإذا بها تسجل مائة وأربع وسبعين نبضة في الدقيقة الواحدة، حاولت أن أتحسس قلبي لكنني لم أنجح في تتبع نبضاته وكأنه توقف عن الخفقان، كنت أعرف أنه هناك طوال الوقت وأنه يخفق بالطبع، لكنني لم أكتفِ بهذا، فقد تفحصت جسدي بأكمله، من خصري وصولا إلى مقدمة رأسي، لكنني لم أشعر أو أسمع أي شيء، حتى أنني حاولت النظر في لساني، فأخرجته قدر ما استطعت وأغلقت عينًا واحدة وحاولت فحصه بالأخرى، ولم تتسنى لي سوى رؤية مقدمته، فلم أخرج بنتيجة واحدة من هذا إلا يقيني بأني مصاب "بالحمى القرمزية"([2]).

سرت إلى تلك الغرفة المخصصة للقراءة رجلا صحيحًا سعيدًا، لكني خرجت منها مريضًا عاجزًا. توجهت إلى صديق قديم لي له باع في المجال الطبي، إذ قلت في قرارة نفسي ما الذي قد يحتاجه رجل مثله؟ بالطبع يحتاج إلى ممارسة مهنته والتدرب بلا شك! وفي حالتي تلك يمكنه أن يتدرب عليَّ أكثر مقارنةً بمائة وسبعين مريضًا عاديًا من مرضاه، لذلك ذهبت إليه مباشرة، وحينها جاء سؤاله كالتالي: حسنًا، ما الذي أصابك؟".

قلت له: "لن أهدر وقتك يا عزيزي بإخبارك بما أشعر به، فالحياة قصيرة، وربما تتوفاك المنية قبل أن أنتهي من كلامي، لذا فسأختصر الأمر وأخبرك بما لا أشعر، لا العكس، أنا لست مصابًا بداء في "الركبة"، ولا أستطيع إخبارك عن السبب، ولكن الواقع يقول إنني لست مصابًا بذلك الداء على الرغم من أنني أصبت بكل الأمراض التي يعرفها الطب، وشرعت أقص عليه كيف آلت بي الأمور إلى هذا الاستنتاج..

وبناء عليه فقد تفحصني جيدًا ونظر إليَّ من أعلى إلى أسفل، وأمسك بمعصمي ثم باغتني بضربة على الصدر لم أكن أتوقعها!! ومن ثم جلس يدون وصفة علاجية وقام بطيّها ومنحني إياها فوضعتها في جيبي على الفور ومضيت في طريقي، لم أفتحها مطلقًا بل حملتها إلى أقرب صيدلي وأعطيتها إليه حتى انتهى من قراءتها وأعادها إليَّ.. فسألته: "هل أنت طبيب صيدلي؟"، أجابني: "نعم، أنا طبيب صيدلي، لو كنت صاحب متجر أو أملك استراحة ما في فندق لتمكنت من مساعدتك، لكن كوني مجرد صيدلي هو ما يعيقني عن ذلك".

وهنا قرأت الروشتة كي أفهم ما يعنيه لأجدها تقول التالي: "شريحة لحم واحتساء شراب كل 6 ساعات- السير لمسافة عشرة أميال كل صباح- النوم في تمام الساعة الحادية عشر كل يوم، ولا تملأ رأسك بأشياء لا تفهمها".

اتبعت تلك التوجيهات بالفعل، وكانت النتيجة جيدة بالنسبة إليّ حينذاك... أما الآن وفي حاضري وحالتي الحالية بالعودة إلى أعراض مرض الكبد التي أشعر بها، فلم أعد أملك الرغبة أو القدرة على العمل، وما أعانيه لا يجد لساني طريقة ملائمة لوصفه، وحتى إن فعلت فأعلم تمامًا أن جميع من حولي سيكتفون بقول أشياء مثل: "لما تتألم هكذا؟ انهض وافعل شيئًا في حياتك، ألا تستطيع ذلك؟"، ولن يوقنوا حقيقة أنني مريض، ولن يمنحوني أقراص الدواء حتى، سيلجأون لوضع دعامات لرأسي حال شعرت بالصداع، والغريب في الأمر أن تلك الدعامات أحيانًا ما تكون مجدية، فقد كنت أشفى فور استخدامها، ولم أعهد علاجًا للصداع له نفس التأثير على جسدي أكثر منها، دون أن أهدر وقتًا في بلع علبة كاملة من الأقراص كما أفعل الآن.

كما تعلمون.. فإن تلك الوسائل البسيطة والقديمة في العلاج تؤتي بثمارها في بعض الأحيان، كما كانت تبدو أكثر فعالية مما نجلبه من الصيدلية.

جلسنا في غرفتي كما ذكرت لمدة نصف ساعة، نصف حالتنا الصحية لبعضنا البعض، شرحت لجورج وهاريس ما شعرت به عند استيقاظي هذا الصباح، وأخبرنا هاريس كيف كان شعوره عندما آوى للفراش أمس. أما جورج فوقف أمام المدفأة وبدأ يعرض علينا في مشهد تمثيلي كيف كان يشعر طوال الليل، كان يتوهم أنه مريض في حين أنه لم يعانِ من أي شيء جدي يمكننا الحديث عنه.

وفي تلك اللحظة، طرقت "السيدة بوبيتس" مالكة النزل الباب كي تسألنا إن كنا مستعدين من أجل تناول العشاء، فابتسمنا ابتسامة يشوبها الحزن بينما نتبادل النظرات، وقلنا إنه من الأفضل أن نتناول الطعام رغم كل شيء، إذ أردف هاريس قائلا إن الطعام في المعدة قد يساعد في كبح جماح المرض أيًا كان نوعه، وبناء عليه أحضرت "السيدة بوبيتس" الصينية وجلسنا جميعًا حول الطاولة نتناول ما تيسر لنا من اللحم وشرائح البصل وبعض من الكعك.

وما إن شرعت في تناول الطعام حتى تأكدت من كوني مريضًا دون شك، إذ فقدت شهيتي بعد حوالي نصف ساعة من جلوسنا حوله، وهو أمر بعيد تمام البعد عن عادتي، حتى إنني لم أرغب في تناول أي قطعة من قطع الجبن، فانتهينا من العشاء كواجب كان علينا القيام به ليس إلا، وقمنا بملأ كؤوسنا، أشعل كل منا غليونه، واستأنفنا نقاشنا حول حالتنا الصحية. كنا نجهل تفسير ما نشعر به لكننا أجمعنا على حقيقة أننا نعاني من الإرهاق في العمل، وهنا قال هاريس: "إن ما نحتاج إليه هو الراحة"، وأضاف جورج: "راحة وتغيير شامل، فالضغط الذي نعيشه هو ما جلب علينا تلك الكآبة، لذا فتغيير المناظر والتوقف عن التفكير المتواصل سيعيد إلينا التوازن الذي نحتاجه".

وقد كان لجورج ابن عم، كان طالبًا في كلية الطب وتعتبره العائلة بمثابة مرجع لها في أمور كتلك، وعندما اقتبس من نصائحه أبديت موافقتي على ما قاله واقترحت أن

نبحث عن ركن بعيد هادئ بعيدًا عن زحام عالمنا المعتاد بصخبه وضوضائه، مكان نقضي فيه أسبوعًا في مناخ مشمس وحدنا تمامًا، مكان سري وكأنه مخفي بفعل تعويذة من تعاويذ إحدى الجنيات.

فقال هاريس إن مكانًا بهذا الوصف لن يكون مريحًا لأنه يعلم جيدًا هذا النوع من الأماكن، حيث يأوى الجميع إلى الفراش في تمام الساعة الثامنة مساءً، فلا يتسنى لك القيام بأي شيء، كما يتعين عليك السير لعشرة أميال إن أردت إشعال غليونك. واستكمل حديثه معترضًا: "لا داعي لمكان مخصص للاسترخاء أو ما شابه، إن أردتم الراحة والتغيير حقًا فلا شيء سيضاهي القيام برحلة بحرية"!

قوبلت فكرته بالرفض الشديد من قبلنا بحجة أن الرحلة البحرية قد تكون خيارًا جيدًا إن كنت ستقضي فيها شهرين أو أكثر لا أسبوعًا واحدًا بلا فائدة حقيقية، لأن ما سيحدث أنك ستنطلق يوم الاثنين عازمًا على إمتاع روحك، وتقف على رصيف الميناء ملوحًا بكلتا يديك لمن يبادلونك الوداع، ثم تشعل غليونك وتسير مختالا كما لو أنك "القبطان كوك"([3]) و"السير فرانسيس دريك" ([4]) و"كريستوفر كولومبوس"([5]) مجتمعين في جسد واحد.

وفي صباح الثلاثاء ستتمنى لو أنك لم تأتِ من الأساس، أما في الأربعاء والخميس والجمعة، فستتمنى الموت، وبحلول يوم السبت ستتمكن أخيرًا من تناول القليل من حساء اللحم والجلوس على سطح السفينة بابتسامة تجيب أصحاب القلوب الرحيمة وهم يتساءلون عن حالتك، وفي اليوم الذي يليه ستبدأ في المشي وتناول الطعام، حتى صباح يوم الاثنين في نهاية الأسبوع الذي جئت لأجله وبينما تحمل حقيبتك في يد ومظلتك في اليد الأخرى وتقف على الحافة العليا من السفينة استعدادًا للنزول إلى الشاطئ، حينها فقط ستبدأ في الاستمتاع بتلك الرحلة!

أذكر يومًا خرج فيه شقيق زوجتي لقضاء رحلة بحرية قصيرة في سفينة تحمل عددًا لا بأس به من المسافرين لاستعادة عافيته، وجلب تذكرتي ذهاب وعودة من لندن إلى ليفربول، وعندما وصل إلى ليفربول كان الشيء الوحيد الذي جال بخاطره التخلص من تذكرة العودة في تلك السفينة بعد تجربته في الذهاب، لدرجة أنه قام بعرضها للبيع في المدينة بسعر مخفّض على حد علمي، وباعها بالفعل لشاب يبلغ من العمر 18 عامًا نصحه طبيبه بقضاء عطلة على البحر وممارسة التمارين الرياضية هناك، إذ أخبره صهري أنه سيحظى بوقت ممتع على السفينة وسلمه التذكرة وعاد هو بواسطة القطار.

كما ذهب زميل آخر كنت أعرفه لرحلة بحرية لمدة أسبوع، وقبل أن ينطلق بها، جاءه موظف في السفينة يسأله عما إذا كان يود دفع مقابل كل وجبة على حدة، أو الدفع مقدمًا لكل الوجبات التي سيتناولها خلال الرحلة، وهو ما حاول الموظف إقناعه به كونه الخيار الأوفر إذ ستكلفه جنيهين وخمسة شلنات في الأسبوع كله. وستحتوي وجبة الإفطار على السمك، وتتبعها المشويات، وسيقدم الغداء في تمام الساعة الواحدة مكونًا من أربعة أطباق للاختيار من بينها. أما العشاء فيبدأ في السادسة مساء ويتكون من حساء وسمك ودجاج في الأطباق الرئيسة، كما يمكنه

تناول السلطة والحلوى والجبن ولحم خفيف في حوالي الساعة العاشرة، وحينها وافق صديقي على قبول عرض الجنيهين وخمسة شلنات فقد كان أكولًا بطبعه.

وعندما جاء موعد الغداء لدى اقترابه من مدينة "شيرنيس" لم يشعر بالجوع الشديد كما كان يتوقع، واكتفى بتناول القليل من اللحم وبعض الفراولة والكريمة، وبعدما فكر مليًا في الأمر وجد أنه لم يتناول شيئًا سوى ذلك اللحم المسلوق لأسابيع، وفي أحيان أخرى كان كل ما يدخل معدته الفراولة والكريمة حتى ظن أنه قد يحيا عليهما لسنوات، مما جعله يشعر بالحنق...!

وفي السادسة مساءً جاءوا كي يعلموه أن العشاء جاهز، وعلى الرغم من أنه لم يكن راغبًا في تناول الطعام، فإنه تذكر الجنيهات التي دفعها من أجله فنهض وهو يستند على الحبال متثاقلا ملبيًا للدعوة، وهناك تسللت لأنفه رائحة اللحم المدخن والبصل، التي تخالطها رائحة السمك المقلي والخضراوات، واستقبله النادل بابتسامة متملقة يسأل: "ما الذي يمكنني إحضاره لك يا سيدي؟"، فأجابه بنبرة واهنة: "أخرجني من هنا!"، فسرعان ما حملوه وتركوه مستندًا على جانب السفينة خارج غرفة الطعام، وخلال الأيام الأربعة التالية عاش حياة بسيطة لا مبالية، يتناول البسكويت ويحتسي المياه الغازية لا أكثر...

حتى جاء يوم السبت وشعر برغبة في تناول الخبز المحمص إلى جانب القليل من الشاي، ومن ثم تطورت الأمور معه واستطاع تناول حساء لحم الدجاج يوم الاثنين، لكن موعد مغادرته للسفينة كان مقررًا في اليوم التالي مباشرة فغادر وهو يحدق بها على رصيف الميناء وهي تبتعد ويقول نادمًا: "ها هي ترحل، ها هي ترحل وعلى متنها طعام بقيمة جنيهين وخمسة شلنات لم أتناول منه شيئًا"، كان يعتقد أنهم ربما لو منحوه يومًا إضافيًا لاستطاع تعويض ما فاته.

ولأسباب كتلك أنا أعارض فكرة القيام برحلة بحرية جماعية على متن تلك السفن الكبيرة، وأضفت أنني أخشى على جورج أيضًا من الإصابة بدوار البحر، لكنه أفادنا بأنه لا يخشى شيئًا وأنه سيكون على ما يرام، وأن هاريس هو من يتوجب علينا أن نقلق بشأنه، فقال هاريس إن من ناحيته فطالما كان يدهشه هؤلاء الذين يصابون بالإعياء من البحر، وإنهم ربما يفعلون ذلك عن قصد، وإن ذلك الدوار لم يصبه قط. ومن ثم شرع يقص علينا كيف أبحر ذات مرة وشهد إصابة جميع الركاب بالإعياء نتيجة لهياج البحر آنذاك بينما كان هو الشخص الوحيد إلى جانب القبطان اللذان لم يصبهما أي شيء، حتى أصيب القبطان بدوره في نهاية المطاف وظل هاريس سليمًا معافى.

حقًا إنه أمر غريب أنه لا أحد على الإطلاق يشعر بدوار البحر هذا وهو على الشاطئ، بينما تصادف الكثير منهم في البحر وأرجع السبب للبحارة الذين يحشرون الناس فوق بعضهم فيصاب الآلاف والآلاف بالإعياء والمرض إثر ذلك. لو أن معظمهم كزميل لي قد قابلته في مركب ذات يوم إذ كان يخشى البحر وساعدته أكثر من مرة على إفراغ ما في جوفه بسبب الدوار إلى أن رأيته بعدها بثلاثة أسابيع في غرفة القهوة وشرع يحكي لنا في إصرار وحماس كيف صار يحب البحر بعد عدة

محاولات قائلًا: "حسنًا، أنا أعترف أنه قد انتابني شعور سيئ في البحر ذات مرة، كنا قبالة "كيب هورن"، وتحطم الزورق في صباح اليوم التالي، أتذكر أنني أصبت بصداع بعد ظهر ذلك اليوم، لكنني توصلت لطريقة فعالة للوقاية من ذلك الإعياء إذ يتوجب عليك الوقوف في منتصف السفينة عند تحركها، وعندما تميل بك للأمام عليك الميل معها وكذلك إن مالت للخلف تميل برأسك معها، يمكنك فعل ذلك لمدة ساعة أو ساعتين وستصبح على ما يرام".

ظل يتحدث حتى أوقفه جورج قائلا: "دعونا نقوم برحلة خاصة في النهر"، معللًا بأنه يتوجب علينا أن نحظى بهواء نقي ونمارس التمارين الرياضية في هدوء، فتغيير المناظر سيريح عقولنا وسيجبرنا ما سنبذله من جهد على تناول الطعام بشراهة والنوم بصورة جيدة، وهنا علق هاريس على حديثه بأن جورج لا يحتاج محفزًا إضافيًا كي يجعله ناعسًا أكثر مما هو عليه بالفعل، وإلا خرج الأمر عن السيطرة، فاليوم لا يزيد عن أربع وعشرين ساعة سواء في الشتاء أو الصيف وإن حاول جورج أن ينام بمعدل أكبر سيصبح في عداد الموتى، وربما يوفر تكاليف طعامه ومسكنه، واختتم هاريس كلامه بأن مسألة الرحلة النهرية تناسبه على أية حال وأن تكاليفها أقل بكثير وتناسبني أنا أيضًا. وأثنى كلانا على فكرة جورج بنبرة مندهشة من إثارته إياها، ووحده الكلب مونتمورينسي من لم يبد حماسه لذلك الاقتراح وبدا وكأنه يقول: "إن كل شيء يبدو مناسبًا بالنسبة لكم يا رفاق، أنتم تحبون النهر أما أنا فلا، ولن يتسنى لي القيام بأي نشاط هناك، فالمناظر لا تثير اهتمامي، كما أنني لا أدخن، حتى إنني إن رأيت فأرًا فلن تتركوا لي فرصة مطاردته، وإن توجهت للنوم ستبدأون في المزاح والتسكع من حولي وقد تلقون بي في النهر دون قصد، لذا فإن أردتم رأيي فالأمر برمته هراء بالنسبة لي".

لكننا كنا ثلاثة مقابل واحد، لذا وافقنا على الشروع في تنفيذ المقترح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل الثاني
# مناقشة الخطة

أرجأنا جلسة الاتفاق لمناقشة البرنامج، حتى جئنا بالخرائط لفحصها، واستقررنا على الانطلاق صباح السبت القادم بداية من "كينجستون"(6)، إذ سأتوجه إليها بصحبة هاريس ومن ثم سنأخذ القارب إلى "تشيرتسي"(7) كي ينضم إلينا جورج، وذلك لأنه لن يستطيع مغادرة المدينة حتى ظهر ذلك اليوم.

يذهب جورج للنوم أو العمل- بالطبع تفهمون قصدي- في البنك من الساعة العاشرة حتى الرابعة من ظهر كل يوم، فيما عدا يوم السبت الذي يوقظونه من نومه في الثانية ويسمحون له بالخروج من العمل، سوف يقابلنا هناك، وكنا نتساءل هل نخيم بمفردنا في العراء أم نقضي ليالينا نيامًا في فندق ما؟ كنت أفضل أنا وجورج فكرة العسكرة والتخييم بالخارج حيث نصبح أحرارًا نفعل ما يحلو لنا، كما سنشهد آشعة الشمس الذهبية وهي تتوارى بهدوء في السحب الحزينة وتوقف الطيور عن الغناء كأطفال يشعرون بالاستياء بينما يتسلل الليل من الغابات في صمت وخفوت كحركة الأشباح بظلالهم الرمادية وأقدام غير مرئية حتى تبلغ عشب النهر الظاهر لنا، فيرتدى الليل تاجه على العرش ويغطي بأجنحته السوداء عالم مظلم لا تضيئه سوى النجوم الشاحبة في السماء.

وحينها سنأخذ قاربنا الصغير ونجوب في الأنحاء، ننصب الخيمة، نعد العشاء وبعد تناوله نجلس لنتبادل أطراف الحديث على أنغام الموسيقى، يشعل كل منا غليونه ونراقب هدوء النهر أو حركته حول القارب، التي تبدو كمن يقص عليه الحكايات ويخبره بالأسرار القديمة والغريبة، كمن يغني أغنية خالدة منذ آلاف السنين، ونستمع إليه بينما يملؤنا الحب على الرغم من عجزنا عن فهم ما يقال.

هكذا ستكون جلستنا على النهر، بينما ينحني القمر الذي يحمل إليه الحب ذاته ويقبله قبلة أخوية معانقًا إياه بذراعيه الفضيتين فيما نراقبه نحن وهو يفيض؛ تارة يغني وتارة يهمس في آذاننا، حتى تختفي أصواتنا في هدوء وتنطفئ الغلايين وتعتلي كل شاب منا حفنة من الأفكار بعضها حزين وبعضها جميل مفرح، تفقدنا الرغبة في الكلام إلى أن نستسلم للضحك وننفض الرماد عن تلك الغلايين.

بينما يتمنى كل منا لصديقه ليلة سعيدة، ومن ثم نغفو في نوم هادئ تحت ضوء النجوم الخافت الذي يتلألأ في السماء، ونحلم بالزمن يعود للوراء فيعود معه العالم شابًا من جديد، وكأنه أنثى صغيرة ترعانا كأطفالها قبل ميلاد البشرية منذ آلاف السنين.

ثم قاطع هاريس حبل أفكارنا عن الرحلة قائلا: "وماذا لو أمطرت السماء علينا؟"

- يا إلهي، هكذا هو هاريس لا يمكنك إرضاءه أو إثارة مشاعره وكأنه لا يملك أي قدرة على الخيال أو الشاعرية، حتى إنه لا يبكي أبدًا وإن رأيته يفعل فيمكنني

المراهنة على أنه قد تناول بصل نيئ أو استنشقت أنفه بعضًا من التوابل الحارة لا أكثر، وإن تسنى لك الوقوف معه ذات يوم على الشاطئ وبادرته بالحديث قائلا: "هاريس هل تسمع ما أسمعه؟ وكأن حوريات البحر تغني بنبرة يتخللها الحزن في رثاء أمواتهن الذين تحملهم الشعاب!! ..

سيمسك بذراعيك في ثقة ويجيبك: "أنا أعلم ما تحتاج إليه أيها العجوز، أنت بحاجة لما يبهجك، كل ما عليك فعله مرافقتي فأنا أعرف مكانًا في زاوية قريبة من هنا حيث يمكنك احتساء المشروب الأفضل في عمرك بأكمله".

وكأنه يعرف دائمًا مكانًا قريبًا لهذا الغرض، على أية حال لا يمكننا نكران أن سؤاله فيما يتعلق بالتخييم كان تلميحًا في محله، فالتخييم في طقس ممطر كهذا لا يعد خيارًا مضمونًا بالطبع، يمكنني تصور الوضع في المساء، ونحن مبتلون، والماء يملأ القارب لمسافة بوصتين أو أكثر، وكل الأشياء من حولنا رطبة، إلى أن نعثر على مكان مناسب بعيدًا عن كل هذه الأماكن التي داهمها الوحل، نستقر به ويقوم اثنان منا بنصب الخيمة، لكنها تبدو مبتلة وثقيلة وتواصل التخبط حتى تلتف حول رؤوسنا فتصيبنا بالحنق الشديد إذ يهطل المطر بغزارة دون توقف، إلى أن يصبح من المستحيل تثبيت خيمة في مناخ كهذا..

وبدلاً من أن يتقدم أصدقاؤك بيد العون يواصلون لعب دور الحمقى، وكلما نجحت في تثبيت أحد طرفي الخيمة نزعها من ناحيته وأفسد كل شيء.

فتصرخ فيه محتجًا: "ماذا تفعل؟!"

فيجيبك: "بل ماذا تفعل أنت؟! ألا تتمكن من تثبيتها؟"

وتعاود الصراخ: "لا تجذبها من ناحيتك! إنك تفسد كل شيء أيها الأحمق!"

فيأتي رده: "لا، أنا لا أجذبها، أرخ الطرف من ناحيتك أنت!"

تصيح مرة أخرى: "أخبرتك أنك تفعلها بشكل خاطئ!"

ومن ثم تسحب الخيمة بقوة تفقدها التوازن فتنتزع كل جوانبها من ناحيته ويتسلل لك غضبه وهو يتمتم: "يا لهذا الأبله!"

ثم يذهب كل منكما للآخر كي يشرح له وجهة نظره وتدوران في حلقة مفرغة من تبادل الاتهامات والقسم على أنكما تفعلان الشيء الصحيح إلى أن تسقط الخيمة بأكملها في الوحل، فيصرخ كلانا بسخط في الوقت نفسه "ها هي سقطت، ألم أقل لك!".

وهنا ينهض ثالثنا من القارب المبتل بعدما كان يلعن حظه في الدقائق العشر الأخيرة كي يكتشف سبب الخلاف وسبب تأخرنا في نصب الخيمة، ثم ننجح أخيرًا بطريقة أو بأخرى في إقامتها وتبوء كل محاولاتنا بالفشل في إيجاد خشب يمكننا إشعال النار فيه، فنضطر إلى إشعال الموقد والالتفاف من حوله حتى يغدو ماء المطر جزء لا يتجزأ من وجبة العشاء، فالخبز غارق في الماء حاله كحال شريحة اللحم، كما خالطته المربى والزبدة والملح ومعهم القهوة وشكلوا جميعًا نوعًا من الحساء ..

وبعد العشاء تجد أن تبغ غليونك قد أصبح رطبًا، ولن تتمكن من التدخين، وسيكون من حسن حظك أن تمتلك زجاجة من مشروب قد ينعشك بعد كل هذا، ثم تتجه إلى النوم وتحلم بفيل يجثم بجسده كاملا فوق صدرك، أو أن بركانًا قد انفجر لتوه فألقى بك في قاع البحر بينما لا يزال الفيل نائمًا ومتكئًا عليك، وها أنت تستيقظ ويملؤك شعور بأن شيئًا فظيعًا قد حدث، تعتقد أن نهاية العالم قد حانت، ثم تدرك استحالة الأمر بعد تدقيق النظر من حولك وأن ما حدث تفاصيل مختلفة.

حتى تدرك أن شخصًا آخر يبدو كأنه في ورطة، إذ يمكنك سماع صرخاته قادمة من تحت فراشك، وتبدأ في التحرك لأجل مساعدته، تضرب بذراعيك وقدميك يمينًا ويسارًا، وتصرخ بصوت عالٍ حتى يتغير كل شيء وينتهي بك الحال ورأسك في الهواء الطلق بينما تشعر أنك على بعد قدمين من خطر محدق، تقترب وتستعد لصراع حياة أو موت معه، تقترب.. وإذا به صديقك!

وبينما يتحقق منك يأتي سؤاله: "أوه، هذا أنت؟ أليس كذلك؟"

فتجيبه وأنت تفرك عينيك: "نعم، ماذا حدث؟"

فيأتي رده: "لقد سقطت الخيمة فوقنا على ما يبدو"

ثم ترفعان أصواتكما وتناديان على صديقكما الثالث، بينما تشعران وكأن صخور الأرض الصغيرة تهتز من تحتكما، والصوت الذي تسلل لأذنيك قبل قليل ها هو يصرخ: "ابتعد من فوق رأسي، ألا يمكنك!"، إذ يجاهد صديقكما نفسه كي يخرج من تحتك، جسده منهك ويشعر بالحنق إزاء ما حدث، فيما يظن في نهاية المطاف أن الأمر بأكمله مزحة مقصودة منكما.

وفي الصباح تصبحون جميعًا عاجزين عن التفوه بأية كلمة بسبب إصابتكم بنزلات البرد الحادة في الليلة السابقة، تشعرون بالغضب فيما بينكم ويهمس كل منكما للآخر متألمًا أثناء تناول الفطور ...

ولأسباب كهذه، فقد استقر ثلاثتنا على أن ننام في الخيمة إن كان المناخ جميلا وأن نقضي ليلتنا في فندق كرجال من طبقة راقية إن أمطرت أو في حال أردنا التغيير، أشاد الكلب مونتمورينسي بهذا الحل الذي اتفقنا عليه جميعًا إذ إنه يفضل الأجواء الصاخبة لا الشاعرية الهادئة، على الرغم من أنك لو نظرت في وجه مونتمورينسي ستشعر وكأنه ملاك في جسد كلب صغير ولسبب ما لم يخلق بشريًا مثلنا، فيسكن ملامحه تعبير الراغب في إصلاح ما يدور حوله دائمًا، حتى إنه يثير مشاعر الحب في عيون كل من يراه من السيدات والسادة النبلاء فتدمع بعض الشيء، أذكر عندما جاء للعيش معي أول مرة، لم أكن أصدق قط أنني قادر على إعالته لفترة طويلة، اعتدت الجلوس والنظر إليه بينما كان يجلس على السجادة ويبادلني النظرات، وكانت دائمًا ما تعتريني أفكار مثل أن هذا الكلب لن يعيش طويلا سيحدث له شيء يرسله إلى السماء مجددًا.

ظللت أعتقد في براءته هكذا إلى أن اضطررت ذات مرة لدفع ثمن دزينة من الدجاج قد قام بقتلها، إضافة إلى محاولات إيقافه وجره وركله وجذبه من رقبته لئلا

ينخرط في عراك مع بقية كلاب الشوارع، حتى إن امرأة غاضبة قد زارتني يومًا بقطتها الميتة تسب وتلعن وتصفني بالقاتل، كما تم استدعائي إزاء دعوة قضائية رفعها جار لي متهمًا إياي أنني لا أستطيع السيطرة على ذلك الكلب الشرس الذي تسبب في احتجاز الرجل في خزانته لأكثر من ساعتين في ليلة باردة، وعلمت أن البستاني الذي لا أعرفه حق المعرفة قد استطاع جني بعض المال باستغلال كلبي في قتل الفئران، ومع الوقت بدأت أعتقد أن لأمور كهذه قد عاش هذا الكلب لفترة أطول وكأن ملاحقة الكلاب الذين يسببون الإزعاج لغيرهم هي فكرة مونترينسي عن الحياة!

وهكذا، كما ذكرت مسبقًا، كنا قد أجمعنا على ترتيبات النوم في الفندق بشكل يرضينا نحن الأربعة، ولم يتبق لنا سوى أن نناقش ما سنأخذه معنا في تلك الرحلة، وهنا بدأنا في الجدال قليلا إلى أن قاطعنا هاريس بأننا قد تحدثنا بقدر كافٍ لليلة واحدة واقترح أن نخرج ونستبدل تلك الأجواء الحانقة، إذ إنه قد وجد مكانًا قريبًا منا يمكننا احتساء بعض الشراب والاسترخاء فيه، وهنا أردف جورج أنه يشعر بالعطش وأن تلك فكرة ملائمة بالنسبة له، وبالفعل تم تأجيل النقاش بإجماع تام إلى الليلة التالية؛ واعتمرنا قبعاتنا وخرجنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل الثالث

# طريقة هاريس في إتمام الأمور

اجتمعنا مرة أخرى في المساء التالي لمناقشة وترتيب خطتنا..

قال هاريس: "علينا أن نحدد الآن ما يستلزم حمله معنا خلال تلك الرحلة، إن أمكنك يا "جي" أحضر لي ورقة كي أكتب بها ما نتفق عليه وليتفقد جورج ما لدينا من مواد البقالة، وليجلب لي أي منكما قلمًا كي أعد قائمة بكل الأشياء...".

هكذا هو هاريس دائمًا، يقول إنه على استعداد لتحمل عبء كل شيء بنفسه ثم يضعه فوق ظهور الآخرين، إنه يذكرني دائمًا بعمّي "بودجر"، إذ إنه لن تتسنى لك أن تشهد هذا الكم من الفوضى والضجيج في حياتك بأكملها إلا إن أوكلت للعم بودجر عملا ما كي ينجزه.

ذات مرة جاءتنا صورة في إطارها من صانع الإطارات، وكانت تحتاج إلى أن يعلقها أحدهم في غرفة الطعام، وعندما بادرت العمة "بودجر" بسؤال عمي عما يتوجب علينا القيام به لنعلقها على الحائط أجابها بثقة: "أوه، اتركي الأمر لي، لا أريد منك أو من أي أحد أن يقلق بشأنه، سأعمل عليه بنفسي".

ثم خلع معطفه وبدأ، إذ أرسل الفتاة أولا لإحضار بعض المسامير ومن ثم أرسل أحد الصبية خلفها لإخبارها بالحجم الذي يريده، ثم شرع في العمل تدريجيًا في المنزل بأكمله، وكان يصيح من وقت لآخر: "اذهب الآن وأحضر لي المطرقة! وأنت يا توم أحضر لي المسطرة، كما أنني سأحتاج السلم الصغير أو ربما من الأفضل أن يحضر لي أحدكم كرسي مطبخ، وأنت يا جيم اركض مباشرة إلى السيد "جوجلز" وأخبره تحياتي متمنيًا له الشفاء العاجل واقترض منه سلمه الخشبي، وأنت يا "ماريا" لا تذهبي من هنا فسأحتاج لمن يمسك لي المصباح، وعندما تعود الفتاة الأولى بالمسامير يرسلها مرة أخرى في طلب السلك الذي يلزمه لتعليق اللوحة، ويصيح مناديًا على توم: "توم! أين أنت! تعال لترفع معي اللوحة".

ومن ثم رفع الصورة وأسقطها، فخرجت من الإطار وبينما يحاول هو الإمساك بالزجاج حفاظا عليه جرح نفسه وظل يهرول بطول الغرفة بحثًا عن منديله الذي لم يتمكن من العثور عليه بالطبع كونه في جيب المعطف الذي خلعه لتوه، ولم يكن يعلم أين وضع ذلك المعطف فما كان على المنزل بأكمله سوى أن يترك ما بيده بحثًا عن معطفه، في حين أنه كان يعيقهم بسؤاله المتكرر: "ألا يعلم أحدكم أين تركت معطفي؟ أنا لم أر أناس مثلكم قط، ستة أفراد ولا يمكنهم العثور على معطفي الذي خلعته منذ دقائق".

ثم نهض ليكتشف أنه كان جالسًا عليه فصاح: "حسنًا، يمكنكم التوقف عن البحث الآن، فقد وجدته بنفسي، ربما لو أنني طلبت من القطة أن تبحث عن أشيائي لوجدتها أسرع منكم"، وبعدما قضى نصف ساعة في تضميد إصبعه وأحضر زجاجًا جديدًا

للإطار إلى جانب الأدوات؛ السلم والكرسي والشمعة، بدأ العمل مرة أخرى بينما وقفت أمامه العائلة بأكملها تشكل نصف دائرة مستعدة للمساعدة في أي وقت، إذ كان على شخصين أن يحملا الكرسي وعلى الثالث أن يمسك بعمي مثبتًا إياه، أما الرابع فيناوله المسمار والخامس كي يمرر له المطرقة، ومن ثم أمسك عمي بالمسمار وأسقطه.

ويهم في حنق: "ها نحن! والآن فقدنا المسمار!"

وما كان على الجميع سوى أن يركعوا على ركبتهم بحثًا عنه، بينما ظل عمي واقفًا على الكرسي مواصلا التذمر حول بقائه هناك الليل بطوله في انتظار المسمار، وما إن تمكنوا من العثور عليه حتى أضاع المطرقة وبدأ يتساءل: "أين المطرقة؟ ماذا فعلتم بالمطرقة؟ ستة منكم ولا تعرفون أين تركت المطرقة!".

ومن ثم عثرنا على المطرقة، لكنه كان قد أضاع العلامة التي حددها على الحائط مكانًا لتثبيت المسمار، فكان على كل واحد منا أن يصعد على الكرسي بجانبه ويدقق النظر في محاولة العثور عليها، وكان كل منا يلاحظها في مكان مختلف عن الآخر فينعتنا جميعًا بالحمقى ويأمرنا بالنزول، ثم أخذ المسطرة كي يعيد القياس مرة أخرى، ووجد أن مكان المسمار يجب أن يبعد نصف المسافة بواحد وثلاثين بوصة وثلاثة أثمان من زاوية الجدار نفسه، وحاول قياس المسافة في رأسه كما فعلنا نحن بدورنا وبتنا جميعًا نصل إلى نتائج مختلفة ونسخر ضاحكين من بعضنا البعض.

وفي ظل ذلك المناخ المربك نسينا الرقم الأصلي فكان عليه أن يعيد قياسه مرة أخرى، إذ استخدم الخيط هذه المرة وبينما كان يميل من على الكرسي بزاوية 45 درجة إلى بقعة على بعد ثلاث بوصات انزلق الخيط من يده وانزلق خلفه على البيانو محدثًا صوت موسيقى صاخبة! وهنا ظل يضرب رأسه ويسب ويلعن في آن واحد إلى أن صاحت العمة "ماريا" قائلة بأنها لن تسمح للأطفال بالوقوف لسماع تلك الكلمات، وفي النهاية نجح عمي في أن يحدد البقعة مرة أخرى ووضع المسمار عليها بيده اليسرى وأمسك بالمطرقة في يده اليمنى وفي الضربة الأولى أصاب إبهامه فأسقط المطرقة وهو يصرخ من الألم، حتى سقطت بدورها على أصابع قدم أحد الحاضرين من حوله، وهنا قاطعته العمة ماريا بأنه في المرة القادمة التي سيعقد العزم على إتمام شيء فعليه أن يخبرها في الوقت المناسب حتى تتمكن من اتخاذ الترتيبات اللازمة للذهاب وقضاء أسبوع مع والدتها إلى أن يتم تنفيذه. فرد عليها العم "بودجر": "أوه! يا للنساء، تثيرن ضجة على كل شيء".. وبعد ذلك بدأ يحاول مرة أخرى وفي الضربة الثانية نفد المسمار من دهان الجدار، واندفعت المطرقة بقوة كانت كافية لسحق أنفه.

ثم اضطررنا إلى العثور على المسطرة لأجل عمل ثقب جديد؛ وبحلول منتصف الليل تمكن أخيرًا من تعليق اللوحة التي بدت معوجة قليلا وغير مثبتة بينما كان الجدار يبدو بشعًا من حولها، فكان الجميع ينظرون إليها في يأس باستثناء العم "بودجر" الذي كان مختالا بما أنجزه وظل يمسح الفوضى التي تسبب بها قائلا: "لا أعلم لم يحضر بعض الناس رجالا متخصصين لأجل القيام بأمور كتلك؟".

أعتقد أن هاريس سيكون مثل هذا الرجل عندما يكبر، وأخبرته بذلك يومًا ما؛ لذا قلت له هذه المرة إنني لن أسمح له أن يتحمل عبء العمل بأكمله، قلت له إنني أريده فقط أن يحضر الورقة والقلم الرصاص لجورج كي يكتب ويتفقد هو أمر البقالة فيما سأقوم أنا بمتابعة العمل، وشرعنا في كتابة القائمة مرة أخرى بعدما تخلصنا من الورقة الأولى إذ اكتشفنا أن نهر التايمز لا يمكنه أن يحمل قاربًا كبيرًا على متنه كل هذه الحاجيات، لذلك مزقنا القائمة وظللنا ننظر إلى بعضنا البعض.

حتى قال جورج: "إننا نسير في مسار خاطئ تمامًا، يجب ألا نفكر في الأشياء التي يمكننا أخذها، بل في الحاجيات التي لا يمكننا الذهاب بدونها!".

عليَّ الاعتراف بأن جورج يتفوه بأمور معقولة أحيانًا لدرجة قد تثير دهشتك، لقد كانت ملاحظته حكيمة للغاية. وليس قياسًا على الرحلة الراهنة بل بالإشارة إلى رحلتنا في نهر الحياة عمومًا، فكم من الناس في رحلاتهم يحملون معهم الكثير من الأمتعة حتى يصبح القارب معرضًا لخطر الغرق نتيجة لتلك الأشياء الحمقاء التي يرون أنها ضرورية، لكنها في الحقيقة عديمة الفائدة تمامًا، وهو ما يتبعونه في الحياة العادية بحجم الملابس الراقية والمنازل الكبيرة مع الخدم ومجموعة الأصدقاء الذين لا يولونهم أي اهتمام، إضافة إلى وسائل الترفيه باهظة الثمن التي لا تحقق المتعة لأحد، فقط لأجل التظاهر والتباهي والرهبة مما سيعتقده جاري إن رآني عاديًا دون كل هذه الممتلكات، التي تثقل كاهلك مع الوقت.

وإن تخيلنا الحال على القارب بوجود ملذات كهذه، فلو تعرض للغرق سيصبح أمر التجديف مرهقًا وخطيرًا، ولن تتمكن أبدًا من التخلي عن القلق حيال كل شيء!

دع قارب حياتك خفيفًا يحمل ما أنت بحاجة إليه ليس إلا؛ منزل عائلي به أمتعة بسيطة مع صديق أو صديقين يستحقان تلك التسمية، وشخص تحبه ويحبك، وقطة أو كلب، مع غليون أو اثنين وما يكفيك من الطعام والشراب والكساء، ويمكنك أن تعير اهتمامًا أكبر للشراب إذ إن العطش أكثرهم إرهاقًا، وبهذا سيصبح القارب سهلا في سحبه وتحريكه، ولن تغدو مهمة صعبة، كما سيكون لديك الوقت للتفكير والعمل تحت أشعة الشمس أثناء الاستماع إلى الموسيقى.

تركنا القائمة لجورج الذي بدأ يقرر: "لن نأخذ خيمة فلا حاجة لنا إليها سيكون القارب مغطى بقماش أبسط وأكثر راحة منها". بدت الفكرة جيدة فوافقناه عليها حتى إنني تخيلت القارب وهو مثبت بأطواق حديدية والقماش بطولها كمنزل صغير ومريح، على الرغم من أنه سيبدو خانقًا؛ لكن لكل شيء عيوبه كما نعلم.. كرجل توفت حماته واضطر لدفع الكثير من نفقات الجنازة.

قال جورج إننا في هذه الحالة يجب أن نأخذ أغطية ومصباحًا وبعض الصابون وفرشاة ومشطًا واحدًا لنا جميعًا، وفرشاة أسنان لكل منا، ومعجون للأسنان، وبعض أدوات الحلاقة، واثنين من المناشف الكبيرة لما بعد الاستحمام. بدونا كمن يقومون بترتيبات لأجل السباحة صباح كل يوم، لطالما كنت أتخيل الأمر عندما سافرت للندن، أن أستيقظ مبكرًا كل صباح وأتجه للغطس قبل الإفطار بعد حزم أغراضي ومن بينها منشفة الحمام وسروال تحتي مناسب لي.

وعندما أصل إلى البحر أفقد الرغبة في السباحة في ذلك الصباح الباكر كما كنت أشعر سابقًا، بل على العكس تمامًا أشعر أنني أريد النوم في فراشي لآخر لحظة ممكنة، ومن ثم النزول لتناول وجبة الإفطار. لكنني فعلتها مرة أو مرتين وخرجت مرتديًا ملابس السباحة ومعي منشفتي، لكنني أخفقت في نهاية المطاف وتعثرت بأحد الأحجار التي تغطيها الرمال الكثيفة ولم أستطع رؤيتها، بدا الأمر وكأنهم نقلوا البحر ووضعوه على بعد ميلين، وعندما لمست شتات نفسي وقفزت في الماء ظللت أرتجف من برودته وكان الأمر مهينًا للغاية.

حتى جاءتني موجة ضخمة وضربتني فكنت مجبرًا على التحول من وضعية الجلوس؛ إذ إن السباحة كانت شديدة الصعوبة، تعثرت بصخرة أخرى بعدما حملتني الموجة إلى منتصف البحر، وأصبحت بعيدًا عن الشاطئ وكنت أتساءل عما إذا كنت سأرى المنزل والأصدقاء مرة أخرى، ومن ثم تراجعت الموجة بعدما ألقت بي مثل نجم بحر على الرمال، فقررت العودة وارتديت ملابسي زاحفًا إلى المنزل حيث كان يجب عليَّ أن أدعي أنني أحببت البحر بالطبع!

قال جورج إنه لأمر ممتع جدًا أن نستيقظ في القارب كل صباح كي نسبح في النهر، وقال هاريس إنه لا شيء يضاهي السباحة قبل الإفطا، التي ستمنحك شهية لليوم بطوله، وهنا أردف جورج بأن ذلك سيجعل هاريس يأكل أكثر مما يأكله في الطبيعي؛ لذا فإنه لن يسمح بنزوله للماء كل صباح كما يقولون، كما أنه سيكون هناك ما يكفي من العمل الشاق لشعوره الدائم بالجوع، ومع ذلك، فقد أضاف أنه لأمر جيد أن يبدو هاريس نظيفًا لامعًا كل يوم وسحب احتجاجه على مسألة ذهاب هاريس للسباحة.

وأخيرًا اتفقنا جميعًا على أن نأخذ ثلاث مناشف حتى لا نبقى في انتظار بعضنا البعض. أما بالنسبة للملابس فقال جورج أن بدلتين ستكونان كافيتين، حيث يمكننا غسلهما في النهر عندما تتسخان، وهنا سألناه إذا كان قد حاول غسل ملابسه في النهر من قبل!

فأجاب: "لا ، ليس تحديدًا، لكنه كان يعرف بعض الزملاء الذين قاموا بذلك وكان الأمر سهلاً بما يكفي".. لم نستطع أنا وهاريس استيعاب ما يقوله بما فيه الكفاية فكيف لثلاثة شباب محترمين وبدون خبرة في الغسيل أن يتمكنوا من تنظيف قمصانهم وسراويلهم في نهر التايمز وباستخدام الصابون! أقنعناه بالفعل بإحضار الكثير من الملابس التحتية مع الكثير من الجوارب إضافة إلى الكثير من المناديل لمسح الأشياء ولحملها، وزوج من الأحذية الجلدية وكذلك أحذية مخصصة للقوارب في حال شعرنا بالضيق وأردنا خلع الأخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل الرابع
# جورج وهاريس يحزمان الأمتعة

تطرقنا إلى مناقشة ما يخص تحضيرات الطعام ..

وحينها قال جورج وهو رجل من المعروف عنه أنه عملي جدًا: "لنبدأ مع وجبة الإفطار، وكي نفعل ذلك سنحتاج إلى مقلاة"، فاستوقفه هاريس بأنه سيواجه صعوبة في الهضم بسبب الطعام المقلي لكننا حثناه على الصمت حتى استكمل جورج: "ونحتاج أيضًا إلى وعاء شاي وغلاية، وموقد عادي، فلن نأخذ معنا كيروسين".

قالها جورج بنظرة جادة وافقناه عليها أنا وهاريس إذ كان لنا حادثة سابقة مع مسألة الكيروسين ولن نسمح بتكرارها مرة أخرى؛ إذ قضينا عطلة كانت أشبه بمنجم أو مستودع آنذاك لمدة أسبوع كامل، فقد أغرق الكيروسين كل شيء داخل القارب ووقع بعضًا منه في النهر مما أفسد الأجواء تمامًا، فكانت تهب رياح بترولية غربية وفي أحيان أخرى رياح بترولية شرقية، وأحيانًا تهب رياح بترولية شماليّة وجنوبية، كل شيء جاء محملا برائحة الوقود الذي أحضرناه لأجل الموقد الذي لا يعمل إلا بالكيروسين.

لذلك فيمكننا حاليًا أن نستخدم غاز الميثيل أو الكحول وهذا سيكون أكثر نفعًا من كميات كبيرة من زيت الكيروسين، واقترح جورج للإفطار بعض البيض واللحم البارد سهل الطهي والشاي والخبز، والزبدة والمربى، لكن دون الجبن، فالجبن مثله مثل الزيت خارج مخططنا بالكامل إذ كانت تلطخ رائحته كل شيء بدورها ويصبح الطعام في السلة بنكهة الجبن فلا تتسنى لك معرفة ما إذا كنت تتناول فطيرة التفاح أو السجق أو الفراولة والكريمة لأن كل شيء يبدو كالجبن ورائحته. أتذكر صديقًا لي قد اشترى ذات مرة قطعتين من الجبن من ليفربول، وكانت رائعة وطازجة إذ تصلك رائحتها القوية على بعد ثلاثة أميال منها، وكنت أنا في ليفربول في ذلك الوقت، وسألني صديقي إن لم يكن لدي مانع أن أعيد الجبن معي إلى لندن إذ إنه لن يتمكن من العودة لمدة يوم أو يومين وأن الجبن لن يبقى صالحًا كل هذه الفترة.

فقلت له: "بكل سرور يا صديقي العزيز"

وحملت الجبن معي في عربة من عربات الأجرة التي تجرها الأحصنة، وضعت الأجبان وتحركنا في هدوء إلى أن انعطفنا في أحد الشوارع وهناك حملت الرياح رائحة الجبن إلى أنف الحصان فانطلق بسرعة ثلاثة أميال في الساعة وظلت سرعته تزداد بمعدل أربعة أميال تقريبًا مثيرًا الذعر في كل من حوله إلى أن نجح صاحبه في إيقافه عند باب المحطة بصعوبة بعدما قام أحد الرجال بوضع منديل على أنف الحصان وأشعل أمامه القليل من الورق.

أخذت تذكرتي، وسارعت إلى رصيف المحطة بينما أحمل ذلك الجبن الذي كان يبعد الناس من حولي، كان القطار مزدحمًا واضطررت للدخول في عربة بها سبعة أشخاص آخرين، وهنا اعترضني رجل حانق حاد الطباع، لكنني دخلت رغم ذلك ووضعت الجبن تحت المقعد، وجلست بابتسامة لطيفة وأنا أقول يا له من يوم حار، وما إن مرت لحظات قليلة حتى بدأ الرجل العجوز يتمتم: "إنها قريبة جدًا من هنا"، ويرد عليه الجالس بجانبه: "نعم وكريهة للغاية"، ثم بدأ الاثنان في التنفس بعمق وأثناء ذلك أصابتهما الرائحة في صدورهم، فنهضوا دون كلمة أخرى وغادروا المكان.. ثم نهضت خلفهم سيدة وهي تتمتم بدورها إنه لمن المشين أن تتزوج امرأة محترمة بهذه الطريقة وحملت حقيبتها وذهبت، فيما ظل الركاب الأربعة الآخرين لفترة من الوقت، والذين كان من بينهم رجل يبدو أنيقًا من ملابسه ومظهره العام، حتى فوجئت بنهوض الركاب الثلاثة الآخرين وتسابقهم على الخروج من الباب نفسه في الوقت نفسه حتى إنهم تسببوا في إيذاء أنفسهم.

ابتسمت للرجل الجالس أمامي قائلا: يبدو أننا سنحظى بالعربة كلها لأنفسنا، فضحك بلطف وقال إن بعض الناس يثيرون مثل هذه الضجة حول أمور بسيطة، لكنه بدا حزينًا متضايقًا عقب انطلاق القطار؛ لذا عندما وصلنا إلى "كرو" طلبت منه مرافقتي لاحتساء الشراب فقبل دعوتي، ودلفنا إلى البوفيه الذي ظللنا نصيح فيه بالنداء ونلوح لأحدهم لمدة ربع ساعة حتى جاءت سيدة شابة وسألتنا إذا كنا نريد أي شيء.

وحينها سألته أيها تفضل؟ فأجاب: "البراندي، من فضلك"، وحمل مشروبه وانطلق بعدها في هدوء ودلف إلى عربة أخرى، وهو ما رأيته فعلة دنيئة منه، لذا فمنذ بلوغي مدينة "كرو" كنت أمكث في العربة بمفردي على الرغم من أن القطار كان مكتظًا، وكلما بلغنا محطات مختلفة ونظر الناس نحو عربتي الفارغة كانوا يندفعون إليها ويصيحون: "هنا يا ماريا، تعالي، مساحة كبيرة" "حسنًا توم، سنأتي إليك"، ويركضون وهم يحملون أكياسًا ثقيلة ويتقاتلون أمام الباب للوصول قبل غيرهم، وما إن يفتح الباب ويدلفون حتى يتراجعون ويتخبطون في بعضهم البعض إثر الرائحة النفاذة، ومن ثم يتجهون نحو عربات أخرى بأسرع ما يمكنهم.

وصلنا "يوستون" وهناك حملت الجبن إلى منزل صديقي، عندما دلفت زوجته إلى الغرفة تسللت إليها رائحته النفاذة وتوجهت لي بالسؤال: "ما هذا؟!"

قلت لها: "إنها أجبان، ابتاعها توم في ليفربول، وطلب مني أن أحضرها معي"

وأضفت أنني آمل أنها تتفهم قبولي طلبه فأراحتني أنها متأكدة من هذا، لكنها ستتحدث مع توم عن ذلك لدى عودته، لكنه قد بقي في ليفربول لفترة أطول مما توقع، وبعد ثلاثة أيام وبما إنه لم يعد إلى المنزل تلقيت اتصالا من زوجته تقول: "ماذا قال لك توم عن تلك الأجبان؟"، أجبتها أنه أشار إليه بإبقائهم في مكان رطب دون أن يلمسهم أحد، فجاء ردها سريعًا: "إنه لأمر مستحيل أن يلمسهم أحد، ألم يشم تلك الرائحة؟!".

كنت أعتقد أنه فعل ذلك بالطبع فقد بدا مرتبطا بها إلى حد كبير، وواصلت حديثها متسائلة: "هل تظن أنه سينزعج إن أعطيت رجلا بعض المال كي يتخلص منها؟".

فأكدت لها أن أمرًا كهذا سيذهب الابتسامة عن وجهه للأبد، وهنا جاءتها فكرة بديلة إذ قالت لي: "هل تمانع في الاحتفاظ بها من أجله؟ دعني أرسلها إليك".. فأجبتها: "سيدتي، بالنسبة إلي فقد أحببت رائحة الجبن وبالعودة لرحلتي وإياها من ليفربول فكانت نهاية سعيدة لعطلة ممتعة، لكن، في عالمنا هذا، يجب علينا النظر بعين الاعتبار لما يعتقده الآخرون، والسيدة التي أسكن في الشقة تحتها أرملة ويتيمة أيضًا على حد علمي، ولها شخصية قوية ولا تحب أن يفرض عليها أي شيء، ووجود أجبان زوجك تلك في منزلها سيبدو إكراهًا لها ولا يجوز أبدًا أن افعل ذلك بأرملة يتيمة".

"حسنًا، إذًا..."، هكذا قالت زوجة صديقي، واستكملت: "كل ما أقوله إنني على وشك اصطحاب الأطفال إلى فندق حتى تؤكل تلك الأجبان كاملة، فأنا لن أقبل العيش معها في المنزل نفسه".. وبالفعل نفذت زوجته ما هددت به تاركة المكان في مسئولية الخادمة التي لم تشتم الرائحة على الإطلاق، وجاءت فاتورة الفندق وبعدما قام صديقي بحساب كل شيء ارتأى أن التكاليف قد تخطت الثمانية جنيهات والستة بنسات التي دفعها لأجل الجبن، وهو ما يفوق إمكانياته؛ لذلك قرر أن يتخلص منها فألقاها في البحر مما أجبرهم على إخراجها مرة أخرى، بسبب احتجاج الصيادين متعللين بأن رائحته تشعرهم بالإعياء، وهنا حاول توم التخلص منها بدفنها في الرمال على الشاطئ بإحدى المدن المطلة على البحر.

لذلك وعلى الرغم من ولعي بالجبن، فإنني أعتقد أن جورج كان محقًا في رفضه إياه، كما أضاف أننا لن نأخذ أي كميات من الشاي إذ إن وجبة العشاء في الفندق ستتضمنه بلا شك.

وهو ما أبهج هاريس بعدما امتعض وجهه قليلا، واقترح جورج أيضًا أن نحضر اللحوم المجمدة وفطائر الفواكه إلى جانب الطماطم وبعض الخضراوات، ولأجل الشراب سيساعدنا اصطحاب خيارات هاريس الرائعة ، التي يمزجها بالماء دائمًا، إضافة إلى عصير الليمون.

وضعنا قائمة طويلة بالأشياء التي يجب أخذها قبل أن نفترق ذلك المساء. وفي اليوم التالي الموافق يوم الجمعة أحضرنا كل شيء بها واجتمعنا في المساء لتعبئة وحزم الحقائب، إذ جئنا بحقيبة كبيرة للملابس وسلتين كبيرتين للطعام وأواني الطهي، ثم قمنا بنقل الطاولة إلى جوار النافذة فيما كانت الحاجيات كلها في كومة على الأرض في منتصف الغرفة، وجلسنا حولها بشكل دائري وأطلنا النظر إليها حتى أردفت قائلا: "أود أن أتولى مهمة التعبئة تلك".. وكانت لي طريقة أفخر بها في حزم الأمتعة وتعبئتها، فهي واحدة من تلك الأشياء الكثيرة التي أشعر أنني أفقه بها أكثر من أي شخص آخر، وقد برهنت على ذلك سابقًا لكل من جورج وهاريس، لذا فأخبرتهما أنهما من الأفضل أن يتركا الأمر برمته فوافقا على طلبي بحماسة شديدة أثارت ريبتي بعض الشيء.

إذ أشعل جورج غليونه وجلس على مقعد مريح، ورفع هاريس ساقيه على الطاولة وأشعل سيجاره هو الآخر.

لكن لم يكن هذا ما عنيته بالطبع، لم يكن ذلك ما رميت إليه بقولي اتركوا لي هذه الأشياء، كنت أقصد أن تسير مسألة الترتيب تحت توجيهاتي، بأن يعمل هاريس وجورج وفقًا لما أقوله، لكن فهمهما للأمر بتلك الطريقة قد أغاظني بشدة، فلا شيء يزعجني أكثر من رؤية أشخاص يجلسون حولي بلا عمل بينما أفعل أنا كل شيء.

لقد عشت مع رجل اعتاد أن يغضبني بهذه الطريقة سابقًا؛ إذ كان يجلس على الأريكة ويشاهدني وأنا أقوم بتلك الأشياء على مدار الساعة، ولا يبدر منه سوى أن يتبعني بعينيه أينما ذهبت وكان يقول لي إن مراقبتي وأنا أعمل تشعره بالحياة الواقعية وتثبت له أنه لا يحلم بعد التثاؤب المتواصل.

أما الآن، فأنا لا أقبل بأمور كتلك، كما أنني لا أستطيع الجلوس أيضًا ورؤية رجل آخر يقوم بالعمل وحده، لكن يمكنني أن أشرف على العمل، أن أسير وأخبره بما يتعين عليه فعله، إنها طبيعتي، ولا أستطيع مقاومة الأمر.

ومع ذلك، لم أقل أي شيء متراجعًا عن قراري، وبدأت في حزم الأمتعة في مدة أطول مما كنت أتوقع، لكني انتهيت من الحقيبة ومن ثم جلست عليها وقمت بعقد أربطتها، وهنا قال هاريس: "ألن تضع الأحذية؟" فنظرت حولي لأتيقن من أنني نسيتهم فعلًا، هذا هو هاريس، حتى إنه لم يكلف نفسه عناء لفت انتباهي، لم يستطع أن يقول كلمة واحدة حتى أغلقت الحقيبة وأوثقت رباطها، وضحك جورج ضحكته المزعجة التي لا معنى لها، ونجحا في إثارة غضبي كالمعتاد

فتحت الحقيبة ووضعت الأحذية وما إن عزمت على إغلاقها حتى تذكرت فجأة! ترى هل وضعت فرشاة الأسنان الخاصة بي؟ أم أنني نسيتها كما أفعل دائمًا؟ إذ إن فرشاة الأسنان تلك هي أكثر شيئًا يزعجني عندما أسافر، وينتابني حلم سيئ أنني لم أحزمها وأستيقظ وعلى جبيني العرق البارد فأنهض من الفراش بحثًا عنها وفي الصباح أنسى وأضعها في الحقيبة قبل أن يتسنى لي استخدامها، وأضطر إلى فك كل شيء مرة أخرى للحصول عليها، ودائمًا ما تصبح آخر ما أخرجه من الأمتعة ثم أعيد حزمها من جديد، وأضطر إلى الإسراع وإنهاء ما بدأته في اللحظات الأخيرة كي أبلغ محطة السكة الحديدية فأحملها معي ملفوفة في منديلي الشخصي، وبطبيعة الأمر لا أتمكن من العثور عليها بعد ذلك، وأعيد تفتيش الحقائب في الحالة نفسها التي سافرت عليها، فتسود الفوضى.

عثرت على فرشاة جورج وهاريس ثماني عشرة مرة لكنني لم أجد خاصتي ولا مرة، حتى أخرجت الأشياء ووضعتها مرة أخرى واحدًا تلو الآخر، وهززت الحقيبة بأكملها إلى أن وجدتها داخل إحدى الأحذية. وعندما انتهيت سألني جورج عما إذا كان الصابون موجودًا فقلت له إنني لا أعير انتباها للأمر بعد أن اضطررت لفتحها مجددًا بحثًا عن كيس التبغ، وأخيرًا انتهينا من ربطها في تمام الساعة العاشرة وخمس دقائق مساءً فيما تبقت بعض الأمور التي يتعين علينا القيام بها،

وهنا قال هاريس ساخرًا إنه يجب أن يعمل عليها برفقة جورج، فلم أمانع وجلست فيما شرعا هما بإتمام العمل.

بدأوا بروح مرحة وكأنهما يوضحان لي كيف تنجز أعمال كتلك، لكني لم أنبس ببنت شفة، انتظرت فحسب حتى يثار حنق جورج ويدرك أن هاريس أسوأ مساعد في هذا العالم. ظللت أنظر إلى أكوام الأواني والأكواب والغلاية والزجاجات والفطائر والموقد وكل الكعك والطماطم بينما يملؤني شعور بأن الأمر سيغدو مثيرًا للغاية، وهو ما حدث.

إذ بدأ الأمر بكسرهما لإحدى الكؤوس، وهو ما حاولوا التظاهر به كأنهما يثيران انتباهي، ثم قام هاريس بتعبئة مربى الفراولة فوق الطماطم وتسبب في سحقها فما كان عليهم سوى إخراجها بملعقة صغيرة إلى أن جاء جورج ودهس الزبدة بدوره، وبقيت كما أنا.. لم أعلق على أي شيء، جلست على حافة الطاولة كي أشاهدهما، الأمر الذي أغضبهما بقوة أكثر من تفوهي بالكلام، كانا متوترين ومندفعين، وواصلا دهسهما لبعض الأشياء وترك البعض الآخر في أمكنة يعجزون عن تذكرها لاحقًا، وعبأوا الفطائر في الأسفل ووضعا الأشياء الثقيلة في الأعلى مما تسبب في إفسادها.

كما نثرا الملح على كل شيء، أما بالنسبة للزبدة! فأنا لم أر رجلين في حياتي قد فعلا بها ما فعلا هذان، فبعدما انتشلها جورج من حذائه حاولا أن يضعاها في علبة لكنهما فشلا في وضعها بالكامل، وفشلا أيضًا في إخراج ما دخل منها، ثم استطاعا فعلها أخيرًا. وما إن أخرجاها على الكرسي حتى جلس هاريس عليها فالتصقت به، وظلا يبحثان عنها في كل أرجاء الغرفة وظل جورج يؤكد محدقًا بالمقعد أنه قد وضعها عليه، ويجيبه هاريس: "رأيتك تفعل ذلك بنفسي، ولم تمر دقيقة على ذلك".

ثم جالا في الغرفة مرة أخرى يبحثان عنها ثم التقيا في المنتصف وحدقا في بعضهما البعض، وهنا قال جورج: "إن هذا أكثر شيئًا غريبًا قد رأيته في حياتي"، وأردف هاريس: "أمر غامض جدًا!". وما إن استدار جورج ووقع نظره على ظهر هاريس ورأى الزبدة حتى صاح به: "ها هو هنا طوال الوقت!".

فسأله هاريس وهو يستدير في سخط: "أين؟"

وهنا أجابه جورج:"قف ساكنًا ألا يمكنك هذا!" وبدآ في نزعه ووضعه في إناء الشاي.

فيما كان مونترينسي مشاركًا في كل شيء بالطبع، وكأن كل طموحه في الحياة الوقوف في طريقك لا أكثر، وأن يشكل مصدر إزعاج رئيس حتى يثير غضب من حوله فيلقونه بالأشياء على رأسه، حينها فقط يشعر أن يومه لم يذهب هباء، فكل ما يصبو إليه أن يعرقل إنجازك للأمور حتى تسبه وتلعنه، وهو ما فعله فور أن انتهيا من حزم الأشياء فجاء وجلس عليها، وكلما مد هاريس أو جورج أيديهم لأجل أي شيء اعتقد أنهما يرغبان في لمس أنفه، ثم وضع ساقه في المربى وأفسد كل ملاعق الشاي الصغيرة، حتى إنه تخيل الليمون فئران وبدأ في ملاحقته بالقفز تجاهه إلى أن

تمكن هاريس من إبعاده بالمقلاة، واتهمني أنني من حثه على ذلك، لكنني لم أفعل، كلب مثل هذا لا يحتاج أمري كي يزعج الآخرين، إنها طبيعته التي ولد بها.

تم الانتهاء من حزم الأمتعة في الثانية عشرة وخمسين دقيقة، ثم جلس هاريس عليها وهو يأمل ألا يكسر شيئًا، فقال جورج إنه لا يأبه، فإن كُسِر شيء فليظل مكسورًا؛ إذ إنه بات مستعدًا للنوم. والحقيقة أننا جميعًا كنا على استعداد تام للنوم. وقرر هاريس البقاء معنا في تلك الليلة فصعدنا إلى الطابق العلوي.

قفز كل منا في فراشه فيما اضطر هاريس إلى النوم معي في فراشي. وسألني: "هل تفضل النوم على الطرف الخارجي أم بالداخل فقلت له إنني أفضل النوم بالداخل، ومن ثم قال جورج: "في أي وقت عليَّ إيقاظكم يا رفاق؟".. أجابه هاريس: "في السابعة".

فقلت: "لا، بل في السادسة"؛ لأنني أردت أن أكتب بعض الرسائل.

وعندما اعترض هاريس اتفقنا على السادسة والنصف في نهاية المطاف، وأجبناه معًا: "أيقظنا في السادسة والنصف يا جورج".. لكن جورج لم يجبنا إذ كان نائمًا بالفعل، فوضعنا له إناء الاستحمام ممتلئًا بالماء تحت فراشه كي يسقط به لدى استيقاظه في الصباح، وتوجهنا بدورنا للنوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل الخامس

# توقعات الطقس

كانت السيدة "بوبيتس" هي التي أيقظتني في صباح اليوم التالي، وهي تقول: "هل تعلم أن الساعة قد قاربت على التاسعة، يا سيدي؟".

ففزعت قائلا: "ماذا؟ التاسعة!".

فردت تأكيدًا على كلامي: "التاسعة بالضبط، أعتقد أنكم استغرقتم في النوم".

أيقظت هاريس وأخبرته بالأمر فقال ناعسًا: "أعتقد أنك كنت تريد الاستيقاظ في الساعة السادسة".

فأجبته: "نعم أردت ذلك، لماذا لم توقظني؟"

رد: "كيف أوقظك وأنت لم توقظني؟"

وأردف مضيفًا: "الآن لن نتمكن من نزول الماء قبل الثانية عشرة! على أية حال، أتعجب منك لم حملت نفسك عناء الاستيقاظ ؟".

أجبته: "إنه لمن حسن حظك أنني استيقظت، فإن لم أفعل لظللت في نومك لأسبوعين".

وبينما نحن نتبادل أطراف الحديث في تلك الدقائق القليلة، تسلل لآذاننا صوت جورج نائمًا حتى تبادر لأذهاننا أن جورج هو المخول بمهمة إيقاظنا، ها هو راقد على ظهره، وفمه مفتوح على مصراعيه وركبتاه متلاصقتان. ولا أعرف لماذا.. لكن رؤية رجل نائم في الفراش وأنا مستيقظ تصيبني بالجنون، يبدو لي أمر مرعب أن أراقب وقتًا ثمينًا في حياة الرجل وهو يضيع هباء. وهكذا كان جورج يرقد في حالة فوضوية رافضًا هدية الوقت التي لا تقدر بثمن، لا يعبأ بحياته القيمة والثواني التي تمر منها دون حساب، إذ كان بإمكانه أن يجلس ويتناول البيض واللحم بدلا من التمدد هكذا.

كانت تلك بعض الأفكار التي أرهقتني وأنا أشاهده رفقة هاريس الذي بدا وكأنه يفكر مثلي في اللحظة نفسها. ومن ثم عقدنا العزم على إيقاظه فتغافلنا عما كنا نتنازع حوله، واندفعنا نحوه في آن واحد نبعد الأغطية والملابس عنه فيما ضربه هاريس بالحذاء وصرخت في أذنه، حتى استيقظ وجلس يسأل عما حدث، فأجبناه: "انهض أيها المتثاقل البدين!"، وأردف هاريس: "إنها التاسعة وخمس وأربعون دقيقة!".

فصاح وهو ينتفض من فراشه: "ماذا!"

وعندما سقط في قدر المياه استشاط غضبًا: "من الأحمق الذي وضع هذا الشيء هنا؟".

فقلنا له الأحمق هو من لا يرى قدرًا بهذا الحجم أمام الفراش. ثم بدلنا ملابسنا وعندما أردنا تصفيف شعرنا وتنظيف أسناننا تذكرنا أننا قمنا بتعبئة فرش الأسنان والفرشاة والمشط. إن فرشاة الأسنان تلك ستتسبب في موتي يومًا ما، وأنا أعلم ذلك. واضطررنا إلى النزول إلى الطابق السفلي وإخراجها من الحقيبة، وبعدما فعلنا ذلك أضاف جورج أنه يريد أدوات الحلاقة فقلنا له إنه سيتعين عليه أن يستغنى عن مسألة الحلاقة ذلك اليوم؛ إذ إننا لن نفرغ تلك الحقيبة من جديد لأجله، فسألنا: "لا تعبثوا معي، أيمكنني الذهاب إلى المدينة هكذا؟"، وكان معه الحق فيما يقول لكننا أقنعناه أن الأمر سيمر بشكل عادي.

ذهبنا للطابق السفلي لتناول الإفطار، فيما دعا مونتمورينسي كلبين آخرين للحضور ومجالسته، وكانا يمضيان الوقت بالقتال على عتبة الباب، فأوقفناهما بمظلة المطر، وجلسنا نتناول شرائح اللحم، قال هاريس: "لا شيء يضاهي وجبة فطور لذيذة"، وشرع يلتهم قطعة تلو الأخرى متعللا برغبته في تناولها وهي ساخنة، فيما رفع جورج الجريدة يقرأ علينا وفيات حوادث القوارب وتوقعات الطقس، التي أنبأتنا ببرد قارس مصحوبًا بهطول الأمطار الرعدية إضافة إلى رياح شرقية شديدة على مقاطعات "ميدلاند" كافة. أعتقد أنه من بين كل الأمور السخيفة والمثيرة للحنق التي أبتلينا بها؛ التنبؤ بالطقس.

وبحلول الثانية عشرة بدأت آشعة الشمس تتلألأ داخل الغرفة، وارتفعت حرارتها للغاية حتى ظللنا نتساءل؛ ترى متى ستبدأ تلك الأمطار الغزيرة والعواصف الرعدية؟!

ومن ثم انقضى الوقت إلى ما بعد الظهر ونحن نراهن أنفسنا على صحة الأمر، وفي تمام الساعة الواحدة دخلت صاحبة النزل تسألنا عما إذا كنا سنخرج في يوم جميل كهذا، فقلنا لها ونحن نضحك وكأننا على علم بخبايا كل شيء: "لا، لا، لن نعرض أنفسنا للبلل".

حتى اقترب المساء، ولم تكن هناك أية أمارات على احتمالية هطول المطر، حاولنا مواساة أنفسنا بفكرة أنها ستفعل في نهاية المطاف بينما كان الناس قد بدأوا في العودة إلى منازلهم، وتوقعنا أنهم سيبتلون في أية لحظة ولكن لم تسقط قطرة واحدة. ومر اليوم بشكل عظيم وفي صباح اليوم التالي، قرأنا أنه سيكون "يومًا دافئًا جيدًا مع توقع ارتفاع في درجة الحرارة فاكتسونا ملابس خفيفة، وخرجنا ولم يمر علينا أكثر من نصف ساعة حتى بدأ هطول المطر بغزارة وهبت رياح شديدة، وظل كلاهما على تلك الحالة طوال اليوم، حتى عدنا إلى النزل مصابين بنزلات البرد وآلام المفاصل في جسدنا بأكمله، ومن ثم خلدنا إلى النوم.

سيظل الطقس أحد الأشياء المبهمة تمامًا بالنسبة لي، لن أستطيع فهمه أبدًا، وحدث ذلك مرة في فندق في "أوكسفورد" كنت أقيم فيه بالربيع الماضي وعندما وصلت إلى هناك كانوا يتوقعون طقسًا معتدلا، في حين أن المطر كان يتساقط في الخارج، وما إن حاولت استخدام البارومتر حتى قفزت نتيجته تشير إلى أن الطقس جاف جدًا، وهنا وقف حامل الحقائب في الفندق بينما كان مارًا بالصدفة وقال إنه يعتقد أن

تلك النتيجة تشير للغد لا اليوم، وتوقعت أنا أنه ربما يشير لطقس الأسبوع الماضي لكنه لم يوافقني الرأي، استخدمته مرة أخرى في صباح اليوم التالي، واستمرت نتيجته مرتفعة كما كانت، في حين أن المطر كان يهطل بشكل أسرع من أي وقت مضى، وفي يوم الأربعاء حاولت معه مرة أخرى، فأشار المؤشر إلى طقس جاف للغاية إضافة إلى حرارة عالية، وفي الوقت نفسه ظل المطر يهطل في سيول مستمرة على حالها، وكأن جزء من المدينة يسبح تحت سطح الماء بسبب فيضان مياه النهر.

وقال الخادم إنه من الواضح أننا سنشهد موجة طويلة من ذلك الطقس لبعض الوقت، أتوقع أن يكون الجهاز قد أشار إلى الربيع التالي، أو أن هناك أنماط جديدة لقياسات البارومتر، ربما هناك منهم الطويل المستقيم أو ربما أنواع أخرى. أما هذا فإذا قمت بالنقر عليه فلا يخبرك بأي شيء ولكن حتى ذلك لم يساعدني على معرفة الإجابة، ولكن من منا يرغب في تتبع الطقس هكذا؟ لمَ نتحمل عبء معرفته مسبقا؟!

أما في يومنا نحن، فقد كان الطقس دافئًا مشرقًا ومشمسًا جدًا في هذا الصباح ناهيك عن توقعات جورج السلبية التي قرأها عن الاضطرابات الجوية وغيره حتى يتسبب في إزعاجنا، وعندما باءت محاولته بالفشل ولم يستطع أن يؤثر علينا بل أضاع وقته هباء، أخذ السيجارة التي لففتها بعناية لنفسي، وذهب في طريقه للخروج، ثم قمنا أنا وهاريس بالانتهاء من حزم الأشياء القليلة المتبقية على الطاولة، وقمنا بنقل أمتعتنا إلى عتبة الباب في انتظار سيارة أجرة، فيما بدا أنه كان لدينا قدر كبير من الأمتعة ومن الجيد أننا وضعناها معًا، إذ كانت حقيبة جلدية كبيرة وحقيبة اليد الصغيرة وسلتين إضافة إلى عدد من الأغطية وحوالي أربعة أو خمسة معاطف، وعددًا قليلا من مظلات المطر، ثم حملنا بطيخة وحدها في شنطة تتسع لها، لأنه كان من الصعب جدًا إدخالها في أي مكان، وكمية من العنب في كيس آخر، ومقلاة طويلة لففناها بورق بني لصعوبة تعبئتها في الحقائب نفسها.

لقد بدت الأمتعة كثيرة، وكنا أنا وهاريس نخجل من حملها، على الرغم من أنني لا أرى أي داع للخجل، لم تمر أية سيارة أجرة بل مر بعض الصبية الذي بدأوا يعيرون اهتمامًا للمشهد وأرادوا متابعته عن كثب على ما يبدو فتوقفوا بالفعل.

أولهم هو الشاب ابن "بيجز" بائع الخضار والفاكهة، الذي كان موهوبًا في جلب فتيان بلا أخلاق أو مبادئ كي يعملوا لديه، وكأنه جلب أكثر الفتيان شرًا في العالم كي يعلموا في إيصال الطلبات في ذلك الحي، فإذا حدث أي شيء سيئ كنا نعلم أنه بفعل صبية "بيجز"، فقد حدثت جريمة قتل ذات مرة وما إن بحثوا خلفه حتى أثبت مروره في الشارع حينها وتم استدعاؤه للاستجواب دون تردد. لم أكن أعرف ذلك الصبي في ذلك الوقت، ولكن مما رأيته منهم، فأعتقد أنني لا يجب أن أعيره اهتمامًا كبيرًا، كان قاب قوسين أو أدنى منا ونحن ننتظر السيارة. وعلى الرغم من أنه كان من الواضح أنه في عجلة من أمره، فإنه عندما رآنا أنا وهاريس ومونتورينسي والأمتعة تمهل في مشيته وأخذ يحملق بنا، نظرت إليه أنا وهاريس نظرات عابسة لعلنا نصيب كبرياءه في مقتل، لكن يبدو أن صبية "بيجز" لا يملكون أية مشاعر من أي نوع كقاعدة عامة.

ضاعت محاولتنا سدى؛ إذ استمر في تقدمه نحونا حتى أصبح على بعد خطوة واستند إلى الدرابزين والتقط شيئًا يمضغه وهو ما زال محملقًا بنا. وفي غضون لحظة مر صبي البقال على الجانب الآخر من الشارع، فناداه صبي "بيجز" وجاء صبي البقال ووقف على الجانب الآخر من الدرابزين، ثم انضم إليهما شاب من محل الأحذية ووقف إلى جانب صبي"بيجز" فيما تولى شاب آخر مهمة النظر ناحية الرصيف للمراقبة، ثم قال الشاب من محل الأحذية متهكمًا: "يبدو أنهم لن يتضوروا جوعًا، أليس كذلك؟".

فأجابه آخر:"آه! أفترض أنه يتوجب عليك أن تأخذ شيئًا أو شيئين معك إن سافرت"، ورد صبي "بيجز": "نعم، إذا كنت ذاهبًا لعبور المحيط الأطلنطي في قارب صغير".. فقاطعه وهو يصيح به: "لكنهم ليسوا ذاهبين لعبور الأطلنطي، إنهم ذاهبون للبحث عن مفقود على ما يبدو!".

وبمرور الوقت تجمع حشد قليل من الناس وكانوا يتساءلون فيما بينهم عن ماهية الأمر، فقال مجموعة من الشباب إنه احتفالا بمناسبة زفاف أحدنا وأشاروا إلى هاريس باعتباره العريس، بينما توقع البعض الآخر من السكان أنها كانت جنازة، وربما أنني شقيق المتوفي، وأخيرًا ظهرت سيارة أجرة فارغة، فمن المعتاد في شارعنا أن تمر سيارات الأجرة الفارغة بمعدل ثلاث دقائق وتتعقبك في حالة عدم حاجتك إليها، حملنا أمتعتنا ودلفنا بها بعدما تخلصنا من صديقي مونترينسي اللذين أقسموا على عدم تركه، وتخلصنا كذلك من هؤلاء الشباب المزعجين، وانطلقنا بعيدًا وسط همهمة الجمع بينما ألقي خلفنا صبي "بيجز" جزرة جلبًا للحظ.

وصلنا محطة "ووترلو"([8]) في الحادية عشرة، وسألنا من أين سينطلق قطار الحادية عشرة وخمس دقائق، لم يعلم أحد بالطبع، فلا أحد في "ووترلو" بأكملها كان يعرف من أين أو إلى أين سينطلق ذلك القطار أو أي شيء عنه، فيما كان يعتقد الحمال الذي حمل حقائبنا أنه سينطلق من الرصيف رقم 2، في حين أن حمالًا آخر قد تجادل معه إثر سماعه بأن القطار سينطلق من الرصيف 1. ولوضع حد لهذه المسألة صعدنا إلى الطابق العلوي وسألنا مسئولا في المحطة، فأخبرنا أنه قد قابل للتو رجلًا قال إن القطار جاء إلى الرصيف رقم 3، فانطلقنا إلى الرصيف رقم 3، لكن ما إن وصلنا إلى هناك حتى علمنا أن ذلك القطار السريع متجه إلى "ساوثهامبتون"، أو "وندر لوب"، لكنهم كانوا متأكدين من أنه ليس قطار "كينجستون"، على الرغم من أنهم لم يذكروا سبب تأكدهم من الأمر.

ثم قال الحمال إنه يعتقد أن قطارنا على رصيف من درجة أعلى، وهنا ذهبنا إليها وما إن رأينا السائق حتى سألناه ما إذا كان ذاهبًا إلى "كينجستون"، فقال إنه لا يستطيع تأكيد ذلك لكن هذا ما يبدو أنه متجه إليه، وأنه إذا لم يكن قطار الحادية عشرة وخمس دقائق المتجه إلى "كينجستون" فعلى الأرجح سيتجه إلى "فيرجينيا ووتر"([9])، أو "جزيرة وايت"، أو مكان ما في هذا الاتجاه. منحناه بضعة نقود في يده وتوسلنا إليه كي يذهب بنا إلى "كينجستون" وأنه هو القطار الذي ينطلق في الحادية عشرة وخمس دقائق متعللين بأنه لن يعرف أحد على الإطلاق من أنت أو

إلى أين أنت ذاهب، أنت تعرف الطريق كل ما عليك فعله هو التسلل بهدوء والذهاب إلى "كينجستون".

فقال لنا: "حسنًا، أنا لا أعرف ماذا أقول أيها السادة، لكنني أعتقد أن هنالك قطارًا بلا شك يجب أن يذهب إلى "كينجستون"، وأنا سأفعل ذلك، هيا بنا".

وهكذا وصلنا إلى "كينجستون" من محطة السكك الحديدية، وعلمنا فيما بعد أن القطار الذي أحضرنا إلى هنا كان قطار البريد، وأنهم قضوا ساعات في "ووترلو" يبحثون عنه، ولم يعرف أحدهم ما جرى.

كان قاربنا ينتظرنا أسفل الجسر مباشرة في "كينجستون"، فتوجهنا إليه، وقمنا بترتيب أمتعتنا ثم دلفنا إليه، مكث هاريس قرب المجاذيف، وجلست أنا عند ذراع الوقود، ومونترينسي بدوره في مقدمة المركب، وشرعنا نشق طريقنا في النهر الذي سيكون ولمدة أسبوعين بمثابة وطن بالنسبة لنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل السادس

# هامبتون كورت ([10])

كان صباحًا رائعًا في يوم من آخر أيام الربيع أو بدايات الصيف، فيما يعكس العشب بريقًا لامعًا وتطل أوراقه بلون أخضر، وتبدو هذه الفترة من السنة كشابة تفتخر بأنوثتها، فيما ظهرت خلفية شوارع "كينجستون" رائعة الجمال في ضوء الشمس الساطع ومياه النهر اللامعة والممتلئة بزوارقها والممرات التي يزينها الشجر على الجانب الآخر.

وكان هاريس في سترته الحمراء الفضفاضة يجدف مبتعدًا في الأفق نحو قصر "هامبتون كورت" الرمادي القديم، ورحت أغوص في نوبة تأمل أفكر في "كينجستون" في الأيام الخوالى، حينما قامت الجحافل الرومانية بإقامة المعسكرات على المرتفعات المنحدرة.. ولم تكن هناك كل هذه المنازل، وكان بالكاد هناك حانة واحدة على الأكثر، فيما تركزت أي من مناطق جذب السياح على بعد عشرة أميال من المكان ذاته.

أتساءل الآن وأفترض إذا أصبح هاريس رجلاً مهمًا في المجتمع وكان رئيسًا للوزراء ومن ثم توفى وقرروا وضع علامة على المنازل التي زارها، أراهن أنه سيكون قد مر عليها جميعًا لاحتساء الشراب، سيكون هناك الكثير منها! وستكتسب المنازل التي لم يزرها شهرة واسعة لندرتها وسيحتشد الناس لمعرفة ما أمر تلك المنازل وما قصتها من وقت لآخر.

وبالعودة لتاريخ "كنجستون"، فقد تقلصت عظمتها لفترة من الوقت، ليرتفع شأنها مرة أخرى عندما احتضنت قصرًا رائعًا كهذا؛ "هامبتون كورت"، وظهرت الزوارق الملكية في المرسى على ضفة النهر، كانت المنازل القديمة وكأنها تقص عليك الحكايات بوضوح، حكايات عن تلك الأيام التي كانت فيها "كينجستون" منطقة ملكية، وكان النبلاء وخدمهم يعيشون هناك، وكان الطريق الطويل المؤدي إلى بوابات القصر مزخرفًا طوال اليوم بالحرير المخملي، تلك الأيام التي عرف الرجال فيها كيف يشيدون المباني. أذكر رؤيتي لسلالم منحوتة بطريقة رائعة من البلوط في أحد المنازل في "كينجستون"، لقد أصبح ذلك المنزل متجرًا في السوق الآن، كانت الدرابزينات تحفًا فنية رائعة، والجدار قد صُنع من خشب البلوط بطوله، ومنحوت كقصر له أرضية زرقاء مبهجة.

بدت الغرف مختلفة عندما زارها أحد أصدقائي ذات يوم، لا أستطيع أن أقول إنني ألوم صاحبها الذي تركها، من المؤكد أنه لأمر محبط بعض الشيء أن تعيش في مكان شديد الرقي لهذه الدرجة، سيكون الأمر مثل العيش في كنيسة، لكن من المحزن أن صاحبها الحالي، الذي قابله صديقي، لم يكن يعير اهتمامًا للبلوط المنحوت منه! على الرغم من أنها أشياء تضطر لدفع مبالغ طائلة للحصول عليها،

يبدو أن تلك هي قوانين هذا العالم. وكأن كل شخص لديه ما لا يريده، والأشخاص الآخرون لديهم ما يريده هو، الرجال المتزوجون لديهم زوجات لا يرغبون فيهن فيما يصرخ الشباب العازبون بأنهم لا يستطيعون الحصول على زوجات كهؤلاء. الفقراء الذين لا يستطيعون لم شتات أنفسهم لديهم ثمانية أطفال، والأزواج الأثرياء الذين لا يحتاجون أموالهم يموتون أحيانًا بدون أطفال. كما أننا نرى فتيات مع عشاق لا يريدنهم أبدًا ويواصلن القول إنهن يفضلن العيش بدونهم، وأنهم يتسببون في إزعاجهن فيما إنهم لا يسعدونهن بل يتسببون في حزنهن فقط لا غير.

كان هناك صبي في مدرستنا اعتدنا أن ندعوه "ساندفورد"، كان أكثر الفتية غرابة من بين ما مررت بهم، أعتقد أنه كان يحب الدراسة حقًا؛ إذ اعتاد الوقوف في صفوف فقط لانتظار الجلوس وقراءة اليونانية. أما بالنسبة لقواعد اللغة الفرنسية، فلم يكن من السهل قط إبعاده عنها، وكان يتوق دائمًا للفوز بالجوائز وأنه سيكبر ويغدو رجلاً ذكيًا. فكانت تملؤ رأسه كل هذه الأفكار، لكنه كان ضعيفًا كطفل لم يولد بعد. كانت عادة هذا الفتى أن يمرض مرتين في الأسبوع تقريبًا بحيث لم يتمكن من الذهاب إلى المدرسة في كل مرة، أعتقد أنه أصيب بأي مرض معروف وأصيب به بشدة، كان يصاب بالتهاب الشعب الهوائية في عيد الميلاد المجيد إضافة إلى الحمى، وبعد ستة أسابيع من ذلك أصيب بالتهاب المفاصل حتى إنه كان يخرج في ضباب نوفمبر ويعود إلى المنزل مصابًا بضربة شمس!

ياه لهذا المسكين الذي عانى بشكل رهيب من أسنانه بعدما كان يشكو من آلام بها لا أكثر، التي سرعان ما تحولت لآلام في الأعصاب والأذن. أعتقد أنه لم يحيا قط وهو غير مصاب بنزلة برد معتادة، ولم يسمحوا له بالنهوض من سريره سواء للقيام بتمريناته أو لمراجعة قواعد الألمانية التي أخذوها وقد تغيب عنها.

وكنا نحن الأولاد الآخرين نقضي كل فصل دراسي جديد من تلك المدرسة ونحن نتمنى فقط لو أصابنا المرض ليوم واحد، حتى نتمكن من إعطاء آبائنا أي عذر لعدم الذهاب، لم نتمكن من فعلها، إذ كنا نتمتع بصحة جيدة ونأكل ونسمن ولنا شهية مفتوحة طوال الفترة الدراسية، حتى تبدأ العطلات ويأتي الانهيار معها، فنصاب بنزلات البرد والسعال وجميع أنواع الاضطرابات المعوية، وعلى عكس ذلك فمع بدأ الدراسة نتحسن مرة أخرى ونكون أفضل من أي وقت مضى.. هكذا هي الحياة.

وبالعودة إلى قصة البلوط، أتساءل هل سيحدث ذلك بالطريقة نفسها في المستقبل؟ الكنوز الثمينة في عصرنا هذا هل ستتحول إلى تفاهات رخيصة من الماضي؟ ولوحات العشاء الخاصة بنا ستزين أسرة النبلاء بعد ألفي عام؟ الأكواب البيضاء ذات الحواف الذهبية والزهور الجميلة بداخلها، التي لا تستخدم إلا من قبل سيدة المنزل؟ وكلبي ذو الأنف الأحمر ترى أين سيذهب في غضون تلك الفترة، من المحتمل أن يتم نقله من مكان لآخر دون ساقيه وبذيله المكسور وسيتم بيع تمثاله للصين لوضعه في خزانة زجاجية يمر عليه الناس ليبدون إعجابهم به، ويطرون على لون أنفه الرائع ويتكهنون بطول القطعة المفقودة من ذيله بلا شك. بينما نحن في هذا العصر لا ندرك جمال ذلك الكلب، ولا نقدر قيمته مثله مثل غروب الشمس والنجوم لأنها أمام أعيننا طوال الوقت. أما في الصين فسيتهافت الناس عليه وسوف

يتساءل أحفادنا كيف فعلنا ذلك ويشار إلينا باسم هؤلاء الفنانين القدامى الكبار الذين ازدهروا في القرن التاسع عشر، وقاموا بتربية كلاب كتلك.

كما سيشار إلى ما حاكته الفتيات في المدرسة على أنها "نسيج من العصر الفيكتوري" ولن تقدر بثمن، وسيبحثون عن أكواب زرقاء وبيضاء من تلك التي توجد في كل منزل أراه على جانبي الطريق في الوقت الحالي، وسوف تباع بقيمة وزنها من الذهب، ويستخدمها الأثرياء في حفلاتهم، ويقوم المسافرون من اليابان بشرائها كهدايا تذكارية.

وبينما أنا مستغرق في أفكاري ألقى لي هاريس بالمجاديف ونهض تاركًا مكانه وتمدد على ظهره واضعًا إحدى ساقيه فوق الأخرى، فيما شرع مونترينسي يعوي ويقفز ويبعثر الأشياء من حوله.

أخذني هاريس على حين غرة، لكنني لم أفقد أعصابي، بل سألته بهدوء، إذ إنني ملام بعض الشيء، أنا أعترف بذلك، لكن لا شيء يشفع له التعبير عن الأمر بتلك الطريقة خاصة من رجل نبيل كهاريس الذي أعرفه، كنت سارحًا أفكر في أشياء أخرى وتغافلت عما قد يلحظه أي شخص آخر بسهولة، ومن ثم توليت القيادة بالفعل، ومررنا في ممر من الصعب التعرف عليه حينها، لكننا اكتشفنا ماهيته بعد فترة.

على أية حال فقد قال هاريس إنه عمل بما فيه الكفاية، وإنه قد حان دوري لأجدف، لذا توليت المهمة وسرنا بالقارب حتى بلغنا "قصر هامبتون كورت". يا له من جدارعتيق يمتد على طول النهر! لم تتسن لي فرصة المرور من هنا قط إلا وشعرت بأنه المشهد الأفضل في الحياة، جدار مبهج لامع عتيق يعكس صورة ساحرة إلى جانب النباتات الزاحفة أسفله والطحالب التي تنمو هناك باستمرار، والنباتات الأخرى التي تطل من أعلاه بخجل وترفرف على قمته كمن يرغب في رؤية ما يجري بهذا النهر المزدحم فيما تتدلى فروع اللبلاب قليلا، ناهيك عن عدد الألوان وامتزاجها في هذا الجدار القديم، لو كنت أجيد فن الرسم وأعرف كيف أرسم لرسمت رسمًا رائعًا لهذا الجدار، أنا متأكد، لطالما اعتقدت في كثير من الأحيان أنني أود العيش في "قصر هامبتون"، إذ يبدو سالمًا هادئًا للغاية. ويا له من مكان قديم مناسب للتجول في الصباح الباكر قبل خروج الكثير من الناس.

لكني لا أفترض أنني سأعير اهتمامًا كبيرًا للأمرعندما يتعلق بتنفيذه واقعيًا، إذ إنه سيكون مملا جدًا وسأصاب بالاكتئاب، عندما يلقي مصباحي ظلاله على تلك الجدران ليلا وأسمع صدى الأقدام البعيدة عبر ممرات مصنوعة من الحجارة الباردة، نحن مخلوقات تحب الشمس، رجال ونساء يفضلون الضوء والحياة، وربما هذا هو السبب في أننا نحتشد جميعًا في المدن فيما تغدو بقية البلد مهجورة أكثر وأكثر كل عام.

وعندما يحين النهار نحب مناطق التلال المفتوحة والغابات الواسعة بما فيه الكفاية، ولكن في الليل وعندما تخلد الأرض بأكملها إلى الفراش ونبقى نحن مستيقظين، يبدو العالم موحشًا للغاية إلى درجة تشعرنا بالخوف، ثم نجلس ونتنهد ونتوق

للشوارع المضاءة وصدى أصوات البشر، وذلك الجانب الصاخب من حياة الإنسان، نشعر بالعجز وقلة الحيلة ونحن في ذلك الثبات التام بينما تحدث الأشجار حفيفًا بفعل الرياح في الليل المظلم، دعونا نجتمع معًا في تلك المدن الكبيرة، حول المواقد الضخمة نصرخ ونغني معًا والشجاعة تملؤنا.

سألني هاريس إذا ما كنت دخلت متاهة "قصر هامبتون" من قبل أم لا؟ قائلا بأنه ذهب مرة واحدة كي يدل شخصًا آخر على الطريق الذي كان يعرفه باستخدام خريطة، والتي كان أمر قرائتها بسيطًا للغاية، وكان ذلك الرجل الذي اصطحبه هاريس ابن عمه القادم من الريف، وقال له: "سنذهب إلى هناك، حتى يمكنك أن تقول إنك كنت في مكان كهذا، كما أن الأمر بسيط للغاية ومن العبث أن نسميها متاهة، كل ما عليك فعله أن تلزم اليمين أولا فور دخولك ثم سنمشي لمدة عشر دقائق ونذهب كي نتناول الغداء".

وبمرور وقت قصير مذ دخولهما قابلا بعض الأشخاص الذين أخبروه أنهم كانوا هناك لخمس وأربعين دقيقة وقد نالوا ما يكفي من الأمر، وهنا أخبرهم هاريس أن باستطاعتهم أن يتبعوه إذا رغبوا في هذا؛ إذ إنه قد دخل للتو ولسوف يأخذ جولته ويخرج مرة أخرى، فقالوا إنه لطف كبير منه وتبعوه بالفعل.

وفي طريقهم انضم إليهم العديد من الأشخاص الآخرين الذين أرادوا أن يتبعوه أيضًا في تلك المتاهة، حتى هؤلاء الذين فقدوا كل الآمال الممكنة في الدخول أو الخروج من هذا المكان، أو رؤية منازلهم وأصدقائهم مرة أخرى، فقد تشجعوا فور رؤيتهم لهاريس وجماعته ومن ثم انضموا إلى المسيرة شاكرين إياه. وقد أحصى هاريس من يتبعونه فوصلوا إلى عشرين شخصًا؛ فيما أصرت امرأة تحمل رضيعًا كانت موجودة هناك في ذلك الصباح على التشبث بذراعه خوفًا من أن تفقده. واصل هاريس التزامه بجهة اليمين كما قال، لكن الطريق بدا طويلا حتى قال ابن عمه إنه على الأرجح أن هذا المكان كبير جدًا، فقال هاريس: "نعم، إنه واحد من أكبر القصور في أوروبا".

فجاء رد ابن عمه: "نعم، لا بد أن يكون هكذا، لأننا قطعنا مسافة ميلين داخله بالفعل".

وبدأ هاريس في الشعور بأن هناك شيئًا غريبًا إلى حد ما، لكنه واصل السير على طريقته حتى مروا أمام نصف كعكة كانت ملقاة على الأرض والتي أقسم ابن عمه على أنه قد رآها هناك منذ سبع دقائق، فقال هاريس: "مستحيل!".

فقالت المرأة التي تحمل طفلها: "لا ليس مستحيلا على الإطلاق"؛ إذ إنها هي من أخذت تلك الكعكة من يد طفلها وألقتها هناك قبل أن تلتقي هاريس مباشرة. وأضافت أيضًا أنها كانت تتمنى ألا تقابل هاريس أبدًا، وأعربت عن رأيها فيه بأنه مخادع مما أثار جنون هاريس فأخرج خريطته وشرع يشرح نظريته لهم، فقال أحد الحاضرين: "ربما يمكننا اتباع الخريطة لو أننا نعرف المكان الذي نحن فيه الآن"، لكن هاريس لم يكن يعرف واقترح أن أفضل شيء يمكنهم فعله العودة إلى المدخل والبدء من جديد. في البداية لم يبد أي منهم حماسة لفكرة البدء مرة أخرى، لكنهم

اتفقوا فيما يتعلق بأمر العودة إلى المدخل إذ كان هناك إجماع تام فاحتشدوا وتتبعوا هاريس مرة أخرى في الاتجاه المعاكس وبعد مرور عشر دقائق وجدوا أنفسهم في المنتصف، وفكر هاريس بالتظاهر بأن هذا هو ما كان يهدف إليه؛ لكن الحشد بدا حانقًا.

على أية حال فقد توصلوا إلى شيء يمكنهم البدء من عنده، إذ كانوا يعرفون مكان وجودهم، ومن ثم فقد عادوا إلى الخريطة مجددًا وبدا الأمر أبسط من أي وقت مضى وشرعوا في المحاولة للمرة الثالثة، وبعد ثلاث دقائق وجدوا أنفسهم في المنتصف مرة أخرى، ولم يتمكنوا من الوصول إلى أي مكان آخر، فمهما اختلفت الطريقة التي استعانوا بها كانت تعيدهم إلى المكان نفسه كل مرة، حتى إن بعض الناس قد توقفوا هناك وانتظروا الآخرين الذين أنهوا الدورة المعتادة عائدين إليهم!

قام هاريس بإخراج خريطته مرة أخرى بعد فترة، لكن مجرد رؤيتها أثار غضب الجمع بأكمله الذين أخبروه بالرحيل، قال إنه شعر كونه شخصًا غير مرغوب فيه إلى حد ما، فقد جن جنونهم جميعًا في نهاية المطاف وصاحوا ينادون على الحارس، وبالفعل صعد أحد الرجال السلم الخارجي وبدأ ينادي مشيرًا إلى الاتجاه الذي يجب أن يسيروا فيه، وبحلول الوقت ولأنهم لم يكونوا قادرين على استيعاب أي شيء أخبرهم الرجل بالتوقف في مكانهم وانتظاره حتى يأتي إليهم، وبالفعل تجمعوا معًا وانتظروا. وصعد الرجل وذهب إليهم.

لكنه كان حارسًا شابًا، حديث عهد في عمله هنا؛ وعندما دخل لم يتمكن من العثور عليهم، وكان يتجول محاولا الوصول إليهم إلى أن فقد طريقه، كانوا يرونه بين الحين والآخر، وهم يهرعون نحو الجانب الآخر من السياج، وما إن يراهم حتى يسارع للوصول إليهم فينتظرونه هناك لمدة خمس دقائق، ثم يعود مرة أخرى في المكان نفسه الذي رأوه فيه سالفًا، ويسألهم عن مكانهم، إلى أن اضطروا إلى الانتظار حتى عاد أحد الحراس القدامى من عشائه حتى يخرجهم، قال هاريس إنه يعتقد أنها كانت متاهة رائعة، بقدر ما حدث بها واتفقنا على أننا سنحاول إقناع جورج بدخولها في طريق عودتنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل السابع

# يوم خاص بالأزياء

مررنا على سد "مولسي"([11]) عندما شرع هاريس يقص تجربته المذهلة بتلك المتاهة، واستغرقنا بعض الوقت للمرور إذ إن قاربنا كان القارب الوحيد وكان الهويس كبيرًا، ولا أعتقد أنه قد توفرت لي فرصة رؤية هويس "مولسي" من قبل وهو يحوي قاربًا واحدًا فقط كما هو الحال الآن، فهو من أكثر الأماكن انشغالا في النهر، لقد وقفت أشاهده ذات مرة إذ إنك لا تتمكن من رؤية المياه على الإطلاق في بعض الأحيان، لا ترى إلا كتلة لامعة من السترات المتألقة، وقبعاتها، إضافة لبعض القلنسوات الأنيقة أيضًا، والمظلات الواقية من الشمس بألوانها المتعددة، وأغطية حريرية، ومعاطف تشبه العباءات، وأوشحة متدلية منها بلون أبيض زاهٍ، وعندما تنظر لأسفل ناحية الهويس من رصيف الميناء قد يخيل إليك كونه أشبه بصندوق ضخم وبداخله زهور من كل لون وظلالها مختلطة نتيجة إلقائها بعجالة شديدة، فتظهر متكدسة إلى جانب بعضها البعض كخطوط قوس قزح، والتي تغطي كل زاوية.

وفي أيام الأحد العادية يتصدر ذلك المشهد اليوم بطوله تقريبًا، سواء في أعلى مجرى النهر وفي أسفله يقبع الناس في انتظار أدوارهم، فيما تتراص خلف البوابات صفوف طويلة من القوارب الأخرى؛ التي تتقارب من بعضها وتبتعد، وها هو النهر تغطيه آشعة الشمس بداية من القصر حتى "كنيسة هامبتون"، منقوشًا ومزينًا باللون الأصفر والأزرق والبرتقالي والأبيض والأحمر والوردي.

فيما يرتدي جميع سكان "هامبتون ومولسي" زيًا خاصًا بركوب الزوارق، ويأتون ويطوفون الهويس برفقة كلابهم، يتغازلون فيما بينهم، يدخنون ويشاهدون القوارب كما يشترك جميعهم في القبعات والسترات الخاصة بالرجال والثياب النسائية الجميلة الملونة وكلابهم الهائجة والقوارب التي تستعد للحركة، والأشرعة البيضاء، والمناظر الطبيعية الخلابة، والمياه المتلألئة أمامها.

إنها واحدة من أجمل المعالم السياحية التي أعرفها بالقرب من لندن، حيث يمنحك النهر فرصة جيدة لارتداء أفضل ما لديك من الثياب، ولو لمرة واحدة وبأي طريقة ممكنة فأعتقد أننا نحن الرجال قادرين على إظهار أذواقنا في الألوان حتى نبدو بشكل رائع للغاية، ولو سألتني فبالنسبة إلي لطالما أحببت أن تحتوي أشيائي على اللون الأحمر قليلا، الأحمر والأسود، ولمعلوماتكم، فإن شعري يتخذ اللون البني الأشقر نوعًا ما والذي يضفي مسحة جميلة على جبهتي كما قيل لي، لذا فالأحمر الداكن يتماشى معه بشكل رائع، ومن بعده أعتقد أن ربطة عنق باللون الأزرق الفاتح ستجعل مظهري على ما يرام، إضافة إلى زوج من الأحذية الجلدية الروسية ومنديل حريري أحمر حول الخصر؛ إذ إن المنديل يبدو أفضل بكثير من الأحزمة.

أما هاريس فيحرص دائمًا على اللجوء للأصفر أو المزج ما بين اللونين البرتقالي والأصفر، لكنني لا أعتقد أنه اختيار حكيم منه على الإطلاق، فلون بشرته داكن جدًا بالنسبة للون الأصفر، درجات الأصفر لا تناسبه ولا يوجد شك في ذلك، أريده أن يتخذ من اللون الأزرق أساسًا له مع الأبيض أو الكريمي إلى جانبه، لكن من نتحدث عنه هو رجل على قدر ذوقه المتدني في الملابس على قدر عناده البادي عليه دائمًا، إنه لأمر مؤسف للغاية إذ إنه لن يحقق نجاحًا أبدًا إن استمر كما هو. في حين أن هناك لونًا أو لونين قد لا يبدو فيهما سيئًا مع اعتمار قبعته، لكنه لا يفعل.

أما جورج فقد اشترى بعض الأشياء الجديدة لهذه الرحلة، والتي جعلتني مغتاظًا بسببها، فالسترة لها مظهر صارخ ولم أرغب حينها أن يعرف جورج ما دار في عقلي حيالها، ولكن في الحقيقة فلا توجد كلمة أخرى مناسبة للوصف!! فقد أحضرها إلى المنزل وجعلنا نراها مساء الخميس. سألناه ما اللون الذي يطلقه على ما نراه، وقال إنه لا يعرف، أو إنه لا يعتقد أن هنالك اسمًا لذلك اللون، إذ أخبره الرجل أنه تصميم فريد من نوعه، ولبسه جورج، وسألنا عن رأينا فيه، فقال هاريس إنه يبدو كشيء يمكنك تعليقه فوق نباتاتك المزهرة في أوائل الربيع لتخويف الطيور وإبعادها، كان يجب على هاريس احترام مشاعر جورج، لكنه بالكاد كان يعد لباسًا لأي إنسان طبيعي، الأمر الذي أصاب جورج بالكآبة، وتسلل إليه شعور بالحنق. ولكن كما قال هاريس فإذا لم يكن يريد رأيه فلماذا سأله إياه من الأساس؟ وما أزعجنا أنا وهاريس حيال تلك السترة أننا كنا نخشى أن تجذب انتباه كل من بالقارب.

لكن حقيقة القول إن الفتيات خاصة يهتمون بمنظر الثياب في القارب بشكل مبالغ فيه، إذ يرتدين ملابس أنيقة وفي اعتقادي فلا شيء يضاهي سحرهن إلا لباس يدل على حسن ذوق صاحبه في القارب ذاته، في حين أنه يجب عليك أن ترتدي زيًا مريحًا خاصًا بالرحلات ليس إلا. أتمنى حقًا أن تتفهم جميع السيدات ما أقوله، يجب أن تصنف أزياؤنا كأزياء يمكن ارتداؤها في قارب، وما يفسد مناخ الرحلات برمتها هو ما إذا كنت برفقة ذلك النوع من المسافرين الذين يفكرون طوال الوقت في لباسهم أكثر من الرحلة.

وكان من سوء حظي ذات مرة أن اضطررت للذهاب في نزهة بحرية مع اثنتين من السيدات اللاتي يندرجن تحت هذا النوع، لقد قضينا وقتًا ممتعًا وبدت كل منهما في مظهر جميل بالدانتيل والأشياء الحريرية التي يرتدونها إضافة إلى الزهور، والأوشحة، والأحذية الرقيقة، والقفازات الفاتحة، لكنهما كانتا ترتديان ملابس تبدو استعدادًا لاستوديو تصوير فوتوغرافي، وليس لنزهة في النهر، كانت أزياء القوارب خاصتهما كواحد من عروض الأزياء الفرنسية، كان الأمر سخيفًا بالنسبة إلي، وكان أول ما تذمرا حياله اعتقادهما بأن القارب لم يكن نظيفًا.

نفضنا الغبارعن جميع المقاعد من أجلهما، وأكدنا لهما ذلك إلا أنهما لم تصدقانا، حتى قامت إحداهن بمسح الوسادة بطرف قفازها وعرضت النتيجة على الأخرى، ومن ثم تنهدت كلتاهما وجلستا في محاولة مستميتة للشعور بالراحة. وعند السير بمركب يعتمد على مجدافيه فمن الطبيعي أن تكون عرضة لرذاذ المياه من حين

لآخر، لكن يبدو أن قطرة ماء كانت قادرة على إفساد ملابسهما تلك، إذ لم تجف البقعة التي تركتها المياه قط، وتركت بصمتها على الفستان إلى الأبد، قمت بجهد كبير حينها، فعلت ما بوسعي، إذ استمررت بالتجديف أسرع بكل ما أملك من طاقة، وكنت أوقفه مؤقتًا للسماح للمجاديف أن تقطر قليلا قبل إعادتها إلى الماء على الفور، وما أن ترتاح حتى أعيد الكرة مرة أخرى.

على الرغم من كل هذا وبقدر محاولاتي فلم أستطع اجتناب الضوء الذي ينعكس من حين لآخر بفعل الماء وتلك الفساتين، لم تشتكيا الفتاتان، لكنهما اجتمعتا بالقرب من بعضهم البعض، وتزممن بشفاههن وفي كل مرة تلمسهما قطرة من الماء، تتكمشان وترتجفان بشكل واضح. لقد كان مشهد رؤيتهما في حالة معاناة في صمت فريدًا من نوعه. واصلت التجديف على نحو جامح وفي تشنج جعلني أرشهما بالرذاذ أكثر فأكثر، وكلما حاولت ألا أفعل استسلمت في نهاية المطاف، ومن ثم قلت إنني سأجدف أنا من مقدمة المركب، وهو ما وافقني عليه رفيقي آنذاك وقمنا بتغيير الأماكن، الأمر الذي جعل السيدتين تتنفسان الصعداء لدى رؤيتي وأنا أغادر، بل وتهللت سريرتهما بعض الشيء.

يا للفتيات المسكينات! أما رفيقي أو الرجل الذي جلس أمامهما بدلا مني فقد كان مرحًا ظريفًا خفيف الظل وله عقل رزين إضافة إلى قدر الحساسية التي يتمتع بها وكأنه جرو صغير في "نيوفاوندلاند"، إذ يمكنك أن تنظر إليه حانقًا لمدة ساعة ولن يلحظ ذلك وإن لاحظ فلن ينزعج، كان له طابع مقبول. واتبع طريقة تجديف ذكية مكنته من نثر المياه في كل مكان مثل نافورة، مما جذب الحشد بأكمله وجلسوا يراقبونه دون الشعور بالوقت، وعندما كان ينثر ما يقارب النصف لتر من الماء على واحد من تلك الفساتين، كان يضحك ضحكة لطيفة ويقول: "أستميحك عذرًا"، فيما تتقبله الفتيات المسكينات وتهمهم إحداهن: "لا تعطى أهمية كبيرة للأمر"، وتقومان بسحب الأغطية عليهما دون أن يراهما أحد، وحاولتا حماية أنفسهما بالمظلات المصنوعة من الدانتيل وأشرطة الزينة.

أما في وقت الغداء فقد قضتا وقتًا سيئًا للغاية، إذ أرادهما الناس أن تجلسا على العشب، وكان العشب ملطخًا بالغبار، وجذوع الأشجار قبالتهم التي من المفترض أن تستندا إليها بدت وكأنها لم يتم تنظيفها لأسابيع، فافترشتا مناديلهن على الأرض وجلستا عليها تبتلعان الطعام بشكل ثابت دون حركة، حتى مر شخص ما ممسكًا بطبق من فطيرة اللحم، وتعثرت قدمه فوق أحد جذور النباتات، فطارت الفطيرة من يده ولحسن الحظ أنها لم تقترب من أي منهما، لكن ما حدث أثار في تفكيرهما وجود خطر محدق مما أصابهما بالقلق، وكلما تحرك أي شخص بعد ذلك مع وجود أي شيء في يده من المحتمل أن يسقط ويحدث جلبة، كانتا ترقبان ذلك الشخص بقلق شديد حتى يجلس مكانه مرة أخرى. قال صديقنا بعدما انتهينا جميعًا من تناول الطعام: "الآن، أيتها البنتان، هيا أقدما، عليكما أن تنظفا معنا"، لم يبلغا مقصده في البداية، وما إن فهمتا الفكرة حتى قالتا إنهما تخشيان ألا تعرفا كيف يتم غسيل أشياء كتلك.

فصاح بهما على الفور: "أوه.. سأعلمكما عما قريب، إنها متعة نادرة! إذ إنك تستلقين على- أعني أنك تتكئين على ما يحوي الكومة التي أمامك، كما أفعل ، وتضعين الأشياء في الماء".

وهنا أردفت الأخت الكبرى أنها تخشى ألا يكون لديها فساتين مناسبة للعمل.

فاستطرد صديقي: "لا يهم، سيفي ما ترتديانه بالغرض، هيا اسحبا معي"، وجعلهما تفعلان ذلك بالفعل. وأخبرهما أن مثل هذا النوع من الأشياء بمثابة نصف متعة النزهة، فيما قالت كلتاهما إن الأمر كان مثيرًا جدًا بالنسبة لها!!

وبالعودة لرحلتنا، فقد أراد هاريس الخروج إلى "كنيسة هامبتون"، والذهاب لرؤية قبر "السيدة توماس"... فسألته: "من هي السيدة توماس؟".

فأجاب هاريس: "كيف لي أن عرف؟، إنها سيدة لديها مقبرة عجيبة وأريد أن أراها"

فاعترضت على الأمر، ولا أعلم ما إذا كنت مخطئًا أو نشأت هكذا، لكنني لم أعر اهتمامًا قط لزيارة تلك الأضرحة بنفسي، فيما أعلم أن الشيء الصحيح الذي يجب عمله عندما تصل إلى قرية أو بلدة، هو الذهاب مسرعًا إلى ساحة الكنيسة والاستمتاع برؤية القبور ومشهدها المهيب؛ ولكنه يعد نوعًا من الأفعال التي أرفضها عن نفسي، فلا أهتم بالزحف في الكنائس المعتمة التي تصيبني أجواؤها بالقشعريرة وراء هؤلاء الرجال المسنين كي يقرأون علينا النقوش التي كتبت على كل مقبرة، لقد صدمت حيال قراءة ما كتب عليها من عبارات مقتبسة من قبل بل وفقدت رباطة جأشي كما أنني لا أمتلك الحماس الكافي كي أتعرف على تاريخ الأسرة المحلية.

وذات صباح مشرق في أحد الأيام المشمسة، كنت أتكئ على الحائط الحجري المنخفض الذي يحرس كنيسة قرية صغيرة، وقمت بالتدخين إبان سعادة بالغة بسبب المشهد الهادئ المريح والكنيسة الرمادية القديمة مع فروع اللبلاب التي تتشابك من حولها، وشرفتها الخشبية المنقوش عليها، إضافة إلى الممر الأبيض الذي يتعرج لأسفل حتى يبلغ التل بين صفوف طويلة من شجر الدردار، الأكواخ ذات الأسقف من القش وهي تختلس النظر من فوق سياج الشجيرات المرتب بعناية، لقد كان منظرًا طبيعيًا رائعًا وشاعريًا على نحو ألهمني فانتابني شعور فريد من نوعه، شعرت بأنني لا أريد أن أكون آثم أو مذنب مرة أخرى، أريد أن آتي لأعيش هنا، ولا أرتكب الأخطاء كأي وقت مضى، أعيش حياة جميلة بريئة طاهرة، يتقدم بي العمر ويشيب شعري وكل هذا النوع من الأشياء.

في تلك اللحظة غفرت لجميع أصدقائي وأقاربي أيًا من أعمال الشر والخيانة التي ارتكبوها بحقي، ودعوت لهم بالمباركة، لم يعلموا أنني فعلت ذلك إذ ذهبوا في طريقهم وهم غير مدركين لما كنت أفعله من أجلهم في هذه القرية الهادئة؛ لكنني فعلت ذلك وتمنيت أن أخبرهم أنني فعلت ذلك لأنني أردت أن أجعلهم سعداء. وبينما تغمرني كل هذه الأفكار العظيمة قطع حبلها صوت حاد يردف بصوت عالٍ:

"حسنًا، أنا، أنا قادم، أنا قادم. كل شيء على ما يرام، ألست في عجلة من أمرك قليلا!".

فنظرت إلى أعلى أتفحص الأمر ورأيت رجلاً عجوزًا أصلع يتجول وهو يعرج في فناء الكنيسة متجهًا نحوي، بينما كان يحمل مجموعة كبيرة من المفاتيح في يده، التي تهتز وتصلصل في كل خطوة، أومأت إليه من بعيد في وقار وصمت، لكنه واصل تقدمه، وصاح قائلاً في لحظتها: "أنا قادم يا سيدي، أنا قادم. أنا أعرج قليلاً، فأنا لست رشيقًا خفيف الحركة مثلما اعتدت أن أكون، الطريق من هنا، يا سيدي".

قلت له: "ابتعد، أيها الرجل العجوز البائس"

فأجاب: "لقد جئت بأسرع ما يمكنني يا سيدي، فإن زوجتي لم ترك إلا في تلك اللحظة التي تحركت بها، اتبعني يا سيدي".

كررت كلامي: "اذهب بعيدًا، اتركني وشأني"

وهنا بدا متفاجئًا وسألني: "ألا تريد أن ترى المقابر؟"

أجبته: "لا، أنا لا أريد ذلك، أريد فقط أن أقف هنا متكئًا على هذا الجدار الرملي القديم، هيا ابتعد، ولا تزعجني بينما تغمرني تلك الأفكار الجميلة والنبيلة التي تجعلني راغبًا في الوقوف لأجلها فأغوص في تلك الحالة الجيدة فلا تأت لتمازحني مثيرًا جنوني وغضبي، ضاربًا كل هذه المشاعر بهرائك السخيف عن المقابر، اذهب بعيدًا، واعثر على شخص ما كي يدفنك بثمن بخس، وسأتكفل أنا بنصف النفقات".

أصابه الارتباك للحظة، ثم قام بفرك عينيه، ونظر نظرة جدية في وجهي، فلقد بدوت بشريًا بشكل كاف من الخارج، ولم يستطع التفوه سوى بسؤالي: "هل أنت غريب عن تلك الأنحاء؟ أنت لا تعيش هنا؟".

فقلت له: "لا، أنا لا أعيش هنا، فلم تكن لتحيا أنت هنا لو أنني فعلت"

قال: "حسنًا، إذن، تريد رؤية المقابر- الأضرحة- أنسبائك الذين دفنوا هنا، كما تعلم، التوابيت!"

أجبته قائلاً بينما استشاط غضبي: "أنت رجل مخادع بحق، قلت لك إنني لا أريد أن أرى المقابر- ليست المقابر الخاصة بك، لماذا يجب علي أن أفعل؟ لدينا مقابر خاصة بنا وبعائلتنا، لم برأيك يملك عمي "بودجر" مقبرة في مدافن "كينسال جرين"؟ التي تعد من أفخم ما شيد في هذا الريف كاملا؛ وكذلك مدفن جدي الذي يتسع لثمانية زوار آخرين، في حين أن عمتي الكبيرة سوزان لديها مقبرة من الطوب في "فينشلي" بفناء الكنيسة، مع إناء القهوة الذي تحبه يقبع أمامها، إضافة إلى ست بوصات من الحجر الأبيض يحيط المكان، لذا فإن أردت الذهاب للمقابر فإنني سأذهب إلى تلك الأماكن وأستمتع بها، فأنا لا أريد أقارب آخرين، وعندما تدفن أنت بدورك، سآتي وأرى خاصتك، هذا كل ما يمكنني فعله من أجلك".

ظللت فظا غاضبًا كما أنا، وفي نبرة واهنة قال لي: "حسنًا، هلا أتيت ورأيت نافذة النصب التذكاري؟".

لكنني لم أرغب حتى في رؤية ذلك، فلجأ إلى فرصته الأخيرة ودنا مني وراح يهمس: "إنني أملك اثنتين من الجماجم في سرداب بالأسفل، تعال وشاهدهما، تعال وشاهد الجماجم، إنك شاب في مقتبل عمره وخرج لقضاء عطلة، وتريد أن تمتع نفسك، تعال وشاهد الجماجم!".

ثم التفت عنه وفررت، وكلما أسرعت سمعته يناديني: "أوه، تعال وشاهد الجماجم؛ عُد وشاهد الجماجم!".

وبالعودة إلى هاريس الذي يستمتع برؤية المقابر والأضرحة والكتابات والنقوش التذكارية البارزة عليها، وفكرة عدم رؤية قبر "السيدة توماس" التي أثارت غضبه، إذ قال إنه كان يتطلع إلى رؤية قبر السيدة توماس منذ اللحظة الأولى التي تم فيها اقتراح الرحلة- وإنه لم يكن لينضم إلينا إلا لأجل رؤية قبر السيدة توماس!

ذكرته بجورج، وكيف أنه علينا أن نصل بالقارب إلى "شيبرتون" في تمام الساعة الخامسة لمقابلته، ومن ثم صب جم تفكيره على جورج في تلك اللحظة وراح يتساءل لماذا يعبث بنا جورج هكذا بخصوص برنامج اليوم؟ ويتركنا كي نجر ونسحب هذا القارب القديم الثقيل على طول النهر لمقابلته في النهاية؟ لماذا لم يستطع المجيء والقيام ببعض الأعمال؟ لماذا لم يستطع أخذ اليوم عطلة والنزول معنا؟ ما الأمر الجيد الذي يفعله في البنك على أية حال؟ واستكمل قائلا: "فأنا لا أراه أبدًا وهو يقوم بأي عمل هناك، فكلما ذهبت إليه رأيته يجلس خلف نافذة زجاجية طوال اليوم في محاولة أن يبدو كما لو أنه كان يفعل شيئًا ما، ما النفع الذي قد ينتج من جلسة رجل خلف الزجاج هكذا؟ يجب أن أعمل من أجل رزقي فلماذا لا يستطيع هو أن يعمل فما الفائدة من وجوده هناك؟ وما الفائدة من بنوكهم تلك؟ فهم يأخذون أموالك، وبعد ذلك عندما تسحب شيكًا يرسلونه لك مرة أخرى مشوهًا بمعاملات بنكية غير مفهومة، ما النفع من هذا؟

علي أن أخلي حسابي، وبما أننا هنا يمكننا أن نذهب ونرى ذلك القبر فأنا لا أعتقد أنه في البنك على الإطلاق، لا بد من أنه يتسكع في مكان ما، هذا ما يفعله كي يتركنا للقيام بكل هذا العمل".

أشرت إليه بأننا على بعد أميال من الحانة قائلا: "سوف أخرج وأحتسي مشروبًا"، ومن هنا بدأ يثرثر عن النهر وما الخير الذي نخرج به من النهر، وما إذا كان الناس يموتون من العطش به، إن الحل الأفضل دائمًا أن تترك هاريس لأفكاره عندما يشرع في ذلك، لأنه سيظل هكذا حتى يهدأ لحاله بعدئذ، وقد ذكرته أنه لدينا عصير الليمون المركز في السلة الكبيرة، كما أن قارورة الماء في مقدمة القارب وأن باستطاعته المزج بينهما لصنع مشروب بارد ومنعش، ومن هنا بدأ حديثه حول عصير الليمون وكيف أنه مثله مثل الزنجبيل، وشراب التوت، وغيرها، قائلا بأنهم جميعًا يسببون عسر الهضم ويدمرون الجسد والروح على حد سواء، كما أنهم سبب نصف الجرائم التي ارتكبت في إنجلترا.

وعلى الرغم من ذلك قال إنه يجب أن يشرب شيئًا ما، وتسلق المقعد، وانحنى للحصول على الزجاجة، التي كانت تقبع في أسفل سلة الطعام بالضبط، وبدا أنه من الصعب العثورعليها، فما كان عليه سوى أن يميل أكثر وأكثر محاولا الإمساك بها في الوقت نفسه ولتقديره الخاطئ للأمر اتخذ طريقًا مغايرًا بالقارب مما أزعجه كثيرًا فظل يهبط لأسفل كي يجد غايته سريعًا، إلى أن سقط هناك على رأسه متمسكًا بجانبي القارب في تجهم شديد بينما تحلق ساقيه لأعلى في الهواء، لم يجرؤ على التحرك خوفًا من السقوط في النهر واضطر إلى البقاء هناك حتى تمكنت أنا من الإمساك بساقيه وسحبه للخلف مرة أخرى... الأمر الذي أثار جنونه أكثر مما كان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل الثامن

# هاريس والأغنيات الهزلية

توقفنا في طريقنا تحت أشجار الصفصاف في حديقة "كيمبتون" نستظل بها كي نتناول الغداء

ويا لها من بقعة صغيرة وجميلة جدًا؛ إذ تتزين الهضبة بعشب ساحر يمتد جنبًا إلى جنب بمحاذاة مياه النهر، بينما تطل عليه الأشجار من أعلى. كنا قد بدأنا للتو في الجزء الثالث من الغداء الذي يحوي الخبز والمربى عندما جاء إلينا رجل نبيل يرتدي قميصًا بلا سترة من فوقه ويدخن غليونا قصيرًا فأردنا التأكد من ما إذا كنا نتعدي على ممتلكات الغير أو أنها بقعة خاصة، إذ إننا لم نعر الأمر الاهتمام الكافي حتى اللحظة، ولم نتمكن من الوصول إلى استنتاج محدد بشأن هذه النقطة، ولكن إذا أكد لنا ذلك الرجل أننا نتعدى على ممتلكات الغير فإننا سنصدقه بالطبع دون ذرة من التردد، وهو ما حدث بالفعل إذ أعطانا الإجابة المطلوبة وشكرناه، لكنه ظل ساكنًا لا يتحرك كما بدا أنه غير راضٍ، لذلك سألناه إذا كان هناك أي شيء يمكننا القيام به من أجله؛ وقدم له هاريس- الذي يميل إلى نزعة الود بداخله- القليل من الخبز والمربى لكنه رفض رفضًا شديدًا، وأضاف أن من واجبه الإلقاء بنا خارج هذا المكان، فقال هاريس إنه إذا كان هذا واجبًا فيتعين عليه القيام به، وسأل الرجل عما يجول بعقله فيما يتعلق بأفضل وسيلة لتحقيق ذلك.

إن هاريس من النوع الذي يمكنك أن تسميه رجلًا تربى وتغذى بشكل جيد جدًا، إذ يبدو ضخمًا قوي البنيان، وهنا نظر إليه الرجل وعاينه بعينيه من شعر رأسه لأخمص قدميه، ثم قال إنه سيذهب كي يتشاور مع سيده أولًا ومن ثم سيعود كي يطردنا ويلقي بنا في النهر.. لم يعد بالطبع ولم نره مرة أخرى قط، إذ جل ما أراده حقًا كان شلنًا لا أكثر، فهناك عدد كبير من الرجال أمثال هذا الذي يدرون دخلهم على ضفاف النهر خلال فترة الصيف، وذلك بالتسكع حول ضفاف النهر وابتزاز الأغبياء والضعفاء من الناس بهذه الطريقة؛ بادعاء أنهم أصحاب الأرض التي تتعدى عليها، لذا فإن المسار الصحيح الذي عليك اتباعه في مواقف كتلك أن تترك اسمك وعنوانك لذلك المدعي كي يسلمهما للمالك إن كانت له أي علاقة بالموضوع حتى يتم استدعاؤك وإثبات الضرر الذي ألحقته بأرضه من خلال الجلوس على جزء منها، لكن غالبية الناس كسلاء وخجولون إلى حد كبير، لدرجة أنهم يفضلون تشجيع عملية الابتزاز هذه بالاستسلام له بدلاً من وضع حدًا له ولتلك الممارسات بقليل من الحزم.

لكن أنانية المالك أيضًا على ضفاف النهر تنمو مع كل عام، إذ إن هؤلاء الرجال يودون فرض هيمنتهم على نهر التايمز تمامًا، ويفعلون ذلك في الواقع على طول الروافد الفرعية له وفي المناطق النائية منه، حتى إنهم يغرسون الأعمدة من داخل مجرى النهر ويقيمون سلاسل من ضفة إلى ضفة أخرى، ويضعون لوحات إعلان

خشبية ضخمة على كل شجرة. إن رؤية تلك اللوحات الإرشادية يثير كل ذرة غضب في طبيعتي، أشعر أنني أريد نزعها وتمزيقها إربًا، ومن ثم تثبيتها على رأس الرجل الذي قام بوضعها أو أن أقتله، ثم أدفنه، وأضع اللوحة على القبر بدلا من بلاطته الرخامية. عبرت عن تلك المشاعر التي غمرتني لهاريس، الذي قال إنه يعاني مما هو أسوأ من ذلك، قال: "إنه لا يشعر فقط أنه يريد قتل الرجل الذي تسبب في وضع اللوح لكنه يود أن يذبح جميع أفراد أسرته وجميع أصدقائه ومن تربطه معهم علاقات، ثم يحرق منزله"، لكنه بدا مبالغًا في الأمر بالنسبة لي وعندما قلت له ذلك أجابني: "لا بل قليل، بل إنني بعد قيامي بذلك سأقف على أنقاض ما حدث وأغني أغنيات هزلية ".

لقد كنت منزعجًا لسماع هاريس وهو يواصل وصفه لأفكاره المتعطشة للدماء، فعلى الرغم من أي شيء لا ينبغي لنا السماح لغرائزنا أن تتجاهل العدالة وأن تتحول إلى مجرد انتقام. مر وقت طويل قبل أن أتمكن من إيقاف هاريس كي ينظر نظرة معقولة لما يقول، لكني نجحت في نهاية المطاف، ووعدني أنه سوف يتجنب الأصدقاء والأقارب في أحداث كتلك، ولن يغني أغنيات هزلية على أطلال أحدهم كما ذكر.

لم تسمعوا هاريس قط وهو يغني أغنية هزلية، إن فعلتم لتفهمتم حجم الخدمة التي قدمتها للبشرية بإقناعه بالتخلي عنها، إنها واحدة من أفكار هاريس الراسخة؛ إنه يمكنه أن يغني أغنية هزلية؛ ولكن!

الفكرة الثابتة بين أصدقاء هاريس الذين سمعوه يحاول الغناء تأتي على عكس ذلك تمامًا، وهي أنه لا يستطيع ولن يستطيع أبدًا وأنه يجب ألا يُسمح له بالمحاولة من الأساس، فعندما يكون هاريس مدعوا إلى حفلة، ويطلب منه الغناء فيأتي رده: "حسنًا، لا يمكنني أن أغني سوى أغنية هزلية، كما تعلمون".

ويقولها بلهجة توحي بأن غناءه شيء يجب أن تسمعه مرة واحدة في حياتك قبل وداعها، ومن ثم يقول المضيف وصاحب الحفل: "هذا شيء لطيف جدًا، هل تغني لنا واحدة يا سيد هاريس؟". وهنا ينهض هاريس متجهًا نحو البيانو وعلى وجهه بهجة مشرقة وكأنه على وشك أن يمنح الحاضرين شيئًا ذا قيمة، ويردف المضيف: "الآن فلنلتزم الصمت جميعًا من فضلكم"، ويلتفت للجمع: "السيد هاريس سوف يغني أغنية هزلية!".

ويهمهمون فيما بينهم: "أوه! يا لها من بهجة!" ويسرعون من الشرفة، ويصعدون من الدرج ويذهبون لجلب بعضهم البعض من جميع أنحاء المنزل حتى يحتشدون جميعًا في الغرفة ويجلسون من حوله بينما ترتسم البسمة على وجوههم ثم يبدأ هاريس في الغناء. حسنًا، من المتعارف عليه أننا لا نحتاج صوتًا جميلا في الأغاني الهزلية ولا نتوقع البناء الموسيقي أو مخارج الألفاظ الصحيحة تمامًا، كما لا نمانع إن اكتشف المغني في منتصف اللحن أن صوته مرتفع للغاية فيبدأ في خفضه فجأة، ولا نقلق حيال الوقت، ولن نبالي إن أعاق نظرك رجلان يتمتمان، بل ويوقفان

اللحن في منتصفه كي يتناقش المغني مع عازف البيانو، ومن ثم يقرران البدء من جديد.. لكنكم من المؤكد أنكم تتوقعون سماع كلمات!!

فلا تتوقع أبدًا ألا يتذكر الرجل أكثر من ثلاثة سطور من المقطع الأول، وأن يواصل تكرارها مرارًا حتى يحين دور الكورس من بعده، ولا تتوقع أن يتوقف الرجل في منتصف السطر الذي يغنيه ويقهقه وهو يقول: "أوه إنه مضحك للغاية".. بينما المضحك أكثر هو عدم استطاعته على التفكير فيما تبقى منه، ومن ثم يعيد المحاولة مجددًا كي يعوض ما حدث، حتى يتذكر الكلمات فجأة بعدما يكون قد وصل إلى جزء مختلف تمامًا من الأغنية، فينقطع عن الغناء دون سابق إنذار، حتى يعود للمقطع الأصلي الذي ينشده عليك. حسنًا، كل ما سأفعله هو منحكم مثال عن غناء هاريس الهزلي وأترك الحكم لكم، إذ يمكنكم تخيله وهو يقف الآن أمام البيانو ويقول: "ما أنشده شيئًا قديمًا للغاية، كما تعلمون، لذا فإنني أتوقع منكم جميعًا أن تعرفوه، لكن هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنني غناءه، إنها أغنية القاضي، أقصد! أعني! حسنًا، أنتم تعرفون ما أعنيه، الشيء الآخر هو أنه يجب عليكم جميعًا أن تنضموا للكورس من ورائي".

وإن أمكنني وصف المشهد فإنه سيسير كالتالي: همهمات من الفرح يشوبها القلق إبان الانضمام إلى الكورس، أداء تمهيدي متألق لافتتاحية مقطوعة موسيقية لأغنية "القاضي"، التي يتم عزفها من خلال عازف البيانو الذي يبدو عليه الانفعال، ومن ثم لحظة وصول هاريس كي ينضم إليه دون أن يعير انتباهًا لما بدأه الرجل، فيضطر عازف البيانو إلى إعادة الكرة مرة أخرى، ويبدأ هاريس في الغناء في الوقت نفسه متجاهلا أول سطرين من الأغنية التي يؤديها، فيحاول العازف بعصبية أن يعيد المقدمة، لكنه يستسلم ويحاول مسايرة هاريس في الأداء دون استجابة فعلية منه هو الآخر، إذ يحاول أن يتذكر ما يقوله، ومن ثم يستشعر عقله وهو يستسلم فيتوقف على إثر ذلك، فيناديه الحضور (بتشجيع لطيف): "هاريس، كل شيء على ما يرام. أنت تقوم بعمل جيد، هيا استمر".

لكن عازف البيانو يردف قائلا: "أخشى أن يكون هناك خطأ ما في مكان ما، ما الأغنية التي تغنيها؟".

فيقول هاريس (على الفور): "أغنية القاضي، لماذا؟ ألا تعرفها؟"

فيردف بعض أصدقاء هاريس (من نهاية الغرفة): "لا، أنت لا تغني تلك الأغنية، أيها الساذج إنك تغني أغنية "الأدميرال"".

ثم يدور المشهد في نقاش عريض بين هاريس وصديق له بشأن ما كان يغنيه. حتى يقول صديقه أخيرًا إنه لا يهم ما كان يغنيه هاريس طالما إنه سيواصل الغناء على نحو جيد، ومع إحساس واضح بالأذى الذي أصاب هاريس بداخله يدعو عازف البيانو للبدء من جديد، وعندها يبدأ عازف البيانو في عزف افتتاحية أغنية "الأدميرال" وهنا يستحوذ على تفكير هاريس أن تلك كانت افتتاحية موسيقية جميلة للغاية، ثم يشرع في الغناء: "عندما كنت صغيرًا وتم استدعائي..."، وهنا ينقلب المشهد إلى جلبة متواصلة من الضحك، والتي يستقبلها هاريس باعتبارها مجاملة،

بينما يفكر العازف في زوجته وأولاده حتى لا يستسلم ويعتزل المجال ويتقاعد، ومن ثم بادله أحدهم مهمة العزف، وهنا يقول العازف الجديد لهاريس مازحًا: "الآن أيها الرجل العجوز، ستبدأ، وأنا سأعزف من بعدك مباشرة، لن نبالي بأية افتتاحية".

وبناءً على ما شرحه له واستيعاب هاريس للأمر ببطء فقال له: "استميحك عذرًا، يبدو أنني قمت بالخلط بين الأغنيتين، لقد تسبب صديقي في إرباكي، لكني جاهز الآن".. ويشرع في الغناء فيبدو صوته وكأنه قادم من سرداب أو قبو، أو كأنه اهتزازات هادئة تمهد لهزة أرضية قوية، ويقول متبعًا كلمات الأغنية: "عندما كنت شابًا، كنت أعمل محاميًا في مكتب للمحاماة...".

فيوقفه عازف البيانو قائلا: "إن نبرتك منخفضة جدًا، سنعيد الكرة من جديد، إن كنت لا تمانع". فيشرع في غناء أول سطرين مرة أخرى بنبرة عالية هذه المرة، مما يحدث مفاجأة كبيرة لدى جانب من الحضور، ويثير غضب سيدة عجوز ويدفعها للصياح الذي تم إخراجها من الغرفة على إثره.

ويتابع هاريس: "وفتحت كل نافذة وكل باب، و...، لا، لا، قمت بتنظيف نوافذ الباب الأمامي الكبير، ولمعت الأرضية، لا، أقصد حطمتها، أستميحك عذرًا، إنه لشيء مضحك، لا أستطيع التفكير في هذا السطر من الأغنية، وأنا- وأنا- أوه، حسنًا، سوف نصل للجزء الخاص بالكورس هكذا، أو سنصادفه كما أعتقد..".

ويواصل الغناء: "ولقد غششت، غششت، غششت، حتى.."، "أما الآن فيجب أن يعيد الكورس من بعدي هذين السطرين، كما تعلمون".

فيستجيب له الحضور وينشدون ذلك الجزء من الأغنية، وهكذا يسير غناء هاريس دون أن يدري صورة الأحمق الذي يصنعه من نفسه، وكيف أنه يسبب إزعاجًا كبيرًا للكثير من الناس الذين لم يتعرضوا له بأي أذى، إنه يتخيل بصدق أنه يقدم لهم بهجة، حتى إنه يقول إنه سيغني أغنية كوميدية أخرى بعد العشاء!

وبمناسبة الحديث عن الأغنيات الهزلية والحفلات، فإنه يذكرني بحادث طريف قد تعرضت له بنفسي ذات مرة، كنا في إحدى الحفلات التي يكون فيها مجموعة من الحضور الذي يمتلك قدرًا من الثقافة العالية والأناقة، نرتدي أفضل ملابسنا ونتبادل أطراف الحديث بشكل لطيف، كنا جميعًا نشعر بالسعادة فيما عدا اثنين من الشباب؛ طالبان كانا عائدين لتوهم من ألمانيا، شابان عاديان لهما مظهر مألوف لمن في عمرهما، فيما بدا عليهما الانزعاج والقلق كما لو أن قد أصابهما شعور بالملل مما يسير حولهما، لكن الحقيقة كانت أننا كنا أذكياء للغاية بالنسبة لهما. إذ كانت محادثتنا الرائعة ذات مستوى ثقافة أعلى منهما بمراحل، وكانا خارج نطاق الجلسة بأكملها، لم يكن من المفترض أن ينضما إلينا من الأساس، وقد وافقني الحضور على رأيي هذا في وقت لاحق.

قمنا بعزف موسيقى لبعض السادة الألمان القدامى، وعقدنا مناقشة حول علم الفلسفة والأخلاق، وأثنينا على آراء بعضنا البعض في وقار وكياسة، حتى إننا كنا مرحين وظرفاء على نحو رفيع المستوى، ومن ثم ألقى علينا أحدهم قصيدة فرنسية بعد

العشاء وقلنا له كم كانت جميلة، وقامت سيدة أخرى بغناء أغنية عاطفية باللغة الإسبانية، حتى إنها أبكت واحدة أو اثنتين من الحاضرين، كانت محزنة وشجية للغاية. وبعد ذلك نهض هذان الشابان وسألونا إذا ما كنا قد سمعنا من قبل للسيد الألماني "سلوسن بوشين" (الذي كان قد وصل لتوه ونزل لينضم إلى غرفة العشاء) وهو يغني أغنيته الهزلية الألمانية العظيمة، لم يكن أي منا قد سمع عنه من قبل على حد تذكرنا، فيما قال الشابان إنها كانت أكثر أغنية هزلية طريفة تم كتابتها على الإطلاق، وإنه لو رغبنا في سماعها منه لسوف يحضرون السيد "سلوسين بوشين"، الذي يعرفونه جيدًا، كي يقوم بغنائها، واستمرا في وصفها بأنها مرحة وظريفة جدًا، حتى إنه عندما قام السيد "بوشين" بغنائها أمام الإمبراطور الألماني فقد لاقت عظيم إعجابه.

وأضافا بقولهما إنه لا أحد يستطيع غناء تلك الأغنية كما يفعل السيد "سلوسن بوشين"؛ لقد كان يؤديها بجدية شديدة تجعلك تتوهم أنه يلقى رثاء لمأساة ما قد حدثت، وهذا بالتحديد طبعًا ما أضفى عليها جانبًا أكبر من المرح. قالا إنه لم يسبق قط أن بدا من نبرة صوته أو طريقة غنائه أنه يغني شيئًا مضحكا وإلا أفسد ما يفعله، إذ كان مناخ الجدية الذي يقيمه، المناخ الأقرب إلى الرثاء، ما يجعلها تبدو مسلية بشكل لا يقاوم.

وهنا قلنا لهم إننا نتوق لسماع ذلك حيث إننا رغبنا في الحصول على بعض المرح، فذهبا إلى الطابق السفلي وجلبا السيد "سلوسن بوشين"، الذي بدا عليه أنه مسرور للغاية لفكرة غنائه، فقد صعد على الفور وجلس على البيانو مباشرة دون التفوه بكلمة، فيما جال الشابان في الغرفة وهما يهمسان: "أوه، لسوف يروق لكم ذلك، سوف تضحكون"، واتخذا موضعًا هادئًا خلف ظهر الأستاذ، ثم شرع السيد "سلوسن بوشين" في غنائه فيما لم توح المقدمة الافتتاحية قط كونها أغنية هزلية، كان الأمر غريبًا، والمناخ مفعم بالعاطفة يحث جسد المرء على الإصابة برعشة خفيفة، وبدأنا نتمتم لبعضنا البعض أنها ربما طريقة ذلك الألماني الخاصة وتجهزنا للاستمتاع بها، وبالحديث عن نفسي فلم أكن أفهم اللغة الألمانية، لقد تعلمتها في المدرسة لكني نسيت كل كلمة منها بعد عامين من تخرجي، وقد شعرت بتحسن طفيف في قراءتي إياها منذ ذلك الحين.

ومع ذلك، لم أكن أريد أن يستشعر الحاضرون مدى جهلي بها؛ لذا فقد تتبعت فكرة أنارت في عقلي واعتقدت أنها جيدة إلى حد ما؛ إذ ركزت بصري على الطالبين الشابين وتابعت حركاتهما، وعندما يضحكان ضحكة صامتة أفعل مثلهما، وعندما يضحكان بصوت عال أضحك أنا بدوري، فيما كنت أضحك من تلقاء نفسي بين الحين والآخر كلما أحسست بعض الكلمات الفكاهية التي فاتت على الآخرين، واعتبرت هذا النهج الذي انتهجته غاية في الدهاء من جانبي! وبمرور الوقت ومع استمرار الأغنية لاحظت أن الكثير من الأشخاص الآخرين كانت عيونهم مثبتة على الشابين أيضًا، مثلهم مثلي، يتظاهرون بالضيق إن تضايق الشابين ويقهقهون إن قهقه الشابان، واللذان استمرا في الضحك بشكل متواصل طوال الأغنية حتى سارت الأمور بشكل جيد للغاية.

ولكن الأستاذ الألماني لم يبدُ سعيدًا، في البداية عندما بدأنا في الضحك، كانت تعبيرات وجهه تنم عن دهشته الشديدة، كما لو أن الضحك كان آخر ما توقعه كطريقة للترحيب به، كنا نظن أن هذا مضحك للغاية إذ اعتقدنا أن أسلوبه الجاد كان يشكل نصف طريقته الفكاهية، وأن أي تلميح من جانبه بأنه يعلم كم كان مضحكا قد يفسد كل شيء تمامًا.

واصلنا الضحك وتمادينا فيه، حتى تحولت دهشته إلى علامات الانزعاج والسخط، وكان ينظر إلينا جميعا في صرامة (باستثناء الشابين اللذين لم يستطع رؤيتهما). الأمر الذي أغرقنا في موجة من الضحك أكثر وأكثر، حتى قلنا لبعضنا البعض إنه سيكون سبب موتنا، وهذه الكلمات كانت كافية لإرسالنا إلى نوبات مهلكة، لكن بالنظر إلى جديته الوهمية، فأعتقد أننا قد بالغنا!!

وفي المقطع الأخير حملق بنا مشدوهًا بنظرة حانقة واضحة، ولولا أننا كنا متحضرين نفسيًا لما يتعلق بالطريقة الألمانية لغناء الأغنيات الهزلية لكان علينا أن نشعر بالتوتر الشديد حيال نظراته، لكنه ألقى بنا في نوبة من المشاعر المختلطة بسبب تلك الموسيقى الغريبة، وأنه لو لم نكن نعرف أنها أغنية هزلية فلربما بكينا إبان سماعها، وانتهى الأستاذ من عزفه وسط صيحات استحسان وثناء وقهقهات من حوله، إذ قلنا إنه كان أطرف شيئًا سمعناه في حياتنا وكيف أنه لأمر غريب برؤية أشياء كهذه، فلا تزال هناك فكرة شائعة مفادها أن الألمان لم يكن لديهم أي حس للفكاهة. وسألنا البروفيسور لماذا لم يترجم الأغنية إلى اللغة الإنجليزية حتى يتمكن عامة الناس من فهمها، ويتمكنون من الإنصات إلى الأغنية الهزلية بشكلها الحقيقي.

وهنا نهض السيد "سلوسن بوشين" فاقدًا أعصابه بشكل تام، وأخذ يلقي السباب علينا بالألمانية وكان يثب محركا ذراعيه من الغضب ويضرب بقبضته في الهواء ناعتًا إيانا بكل الشتائم الإنجليزية التي يعرفها، وقائلا إنه لم يتعرض لمثل هذه الإهانة مطلقًا طوال حياته، إذ اتضح لنا أن الأغنية لم تكن أغنية هزلية على الإطلاق بل كانت تقص حكاية فتاة صغيرة تعيش في جبال هارتز، والتي تخلت عن حياتها لإنقاذ روح حبيبها، لكنه مات بدوره وتلاقت أرواحهما في السماء، وبعد ذلك وفي المقطع الأخير يبدو أنه سيهجرها ويذهب مع روح أخرى، لست متأكدًا من التفاصيل لكني واثق من أنها كانت قصة محزنة للغاية، وقال السيد بوشين إنه سبق له أن غناها أمام الإمبراطور الألماني ذات مرة فانتحب كطفل صغير، وأضاف بوشين أن من المعروف عمومًا أن تلك هي إحدى الأغنيات الأكثر مأساوية وإثارة للشفقة في اللغة الألمانية!

لقد كان موقفًا عصيبًا بالنسبة لنا، عصيبًا جدًا، ولم يكن ثمة إجابة نجيبه بها، لم يبد منا سوى أن حاولنا التجول بنظرنا بحثًا عن الشابين اللذين تسببا في كل هذا، لكنهما كانا قد غادرا المنزل دون لفت انتباه أحد فور انتهاء الأغنية، وكانت تلك هي نهاية الحفل، ولم أرَ في حياتي حفلة تنتهي بهذا الهدوء ومع إطراءات بسيطة، لم نودع بعضنا حتى ولم نتمنَ لبعضنا البعض ليلة سعيدة على الأقل، بل نزلنا فرادى إلى الطابق السفلي، نمشي في روية، نحافظ على المناخ السائد، حتى طلبنا من الخادم قبعاتنا ومعاطفنا ونحن نهمس، وفتحنا الباب لأنفسنا وتسللنا للخارج، وتفرقنا

بسرعة شديدة بينما نتجنب النظر في أعين بعضنا البعض قدر الإمكان، ولم أبد أي اهتمام بسماع الأغنيات الألمانية منذ ذلك الحين.

حسنًا- بالعودة لرحلتنا كنا قد وصلنا إلى هويس "صانبري" في الساعة الثالثة والنصف، وكان النهر جميلا جداً حينها قبل بلوغك للبوابات والمياه الساحرة من خلفك لا يسعك إعطاؤها وصفًا مناسبًا، لكن عبور تلك البوابات بدا من أصعب ما يكون. حاولت أن أفعل ذلك ذات مرة إذ كنت أبحر بمركب له مجاديف، وسألت الزملاء الذين كانوا يقودونه إذا ما كان ذلك أمرًا يمكن القيام به فقالوا نعم، اعتقادًا منهم أنه ممكن إذا قمت بالتجديف بقوة.

لقد كنا تحت الجسر الصغير الذي يربط الطريق بين السدين، وعندما قالوا هذا وبت أنا عازمًا على سحب المجاديف بشكل أقوى حتى إنني وقفت لأفعلها على نحو صحيح، وبالفعل سحبت ببراعة وكأنني على أرجوحة تسير بشكل ثابت في حركتها ذهابًا وإيابًا، قمت باستغلال قوة ذراعيّ وساقي وظهري حتى بذلت جهدًا سريعًا جيدًا وقويًا في عملية التجديف، وظللت أفعلها على نحو منتظم، وقال أصدقائي حينها إنها كانت متعة كبيرة أن يشهدوا مثل هذا، وبعد انقضاء خمس دقائق اعتقدت أننا لا بد أن نكون بالقرب من السد بالفعل ونظرت أتفحص الأمر لأجدنا تحت الجسر في المكان نفسه الذي كنا فيه بالضبط عندما بدأت! وكاد صديقي الأبلهين يقتلان أنفسهما من شدة الضحك، واتضح لي أنني كنت أجدف كالمجنون بينما ظل القارب عالقًا في الهويس ذاته!

جدفنا أنا وهاريس حتى "والتون" حيثما يظهر مكان واسع إلى حد ما لمدينة على ضفاف النهر، مثله مثل كل الأماكن الجميلة الواقعة هناك، لا يترائى لك سوى أصغر زاوية منها وأنت في المياه ، لذلك فمن القارب قد تتخيل أنها مجرد قرية تحتوي على ستة منازل وأن هذا كل شيء.

إن "ويندسور" ([12]) و "أبينجدون"([13]) هما البلدتان الوحيدتان اللتان يمكنك رؤيتهما خلال وجودك في النهر السائر، أما جميع المدن الأخرى فتختبأ في زوايا ومنعطفات مستديرة، ولا يمكنك إلا اختلاس النظر على شارع من شوارعها لا أكثر. أتوجه بشكري لهم في الحقيقة على كونهم أناسًا متفهمين للغاية؛ إذ تركوا لنا ضفاف النهر من جهة الغابة والحقول والأعمال الخاصة بالمياه كما هي، حتى مدينة "ريدينج" فعلى الرغم من أنها تبذل قصارى جهدها لإفساد مناخ البحر بالوصول إلى أكبر مساحة ممكنة منه لاستغلالها وجعلها تبدو قبيحة، فإن الأمور لا تزال في وضع جيد بما يكفي لإبقاء ذلك القبح متواريًا عن الأنظار.

كان هنالك مكان صغير خاص في "والتون" يعد معسكرًا أو خندقًا أو شيئًا من هذا القبيل، كما لاحظت وجود المقابر أيضًا، وكنت خائفًا من أن يمر هاريس إلى جانبها فيراها، لكنه لم يبد كمن يلقي بالا للأمر. وسرنا في طريقنا بينما كانت مياه النهر تبدو هائجة بشكل هائل، إن نظرت إليها من أعلى الجسر، كانت ستبدو في صورة رائعة بلا شك لكنها تثير الحنق من وجهة نظر من يقوم بالتجديف في لحظات كتلك، وتسبب الجدال والخناق فيما بين الرجل الذي يسحب والآخر الذي يتولى القيادة.

ومن ثم مررنا بحديقة حديقة "أوتلاندز" على الضفة اليمنى من موقعنا، إنها مكان قديم مشهور، ربما تعود ملكيته إلى "هنري الثامن" بعد شخص ما لا تسعفني ذاكرتي في تذكر هويته الآن، لكنه عاش فيها، كما أن هنالك كهفًا في الحديقة، يمكنك أن تزوره مقابل رسوم دخول، ومن المفترض أنه لمكان غاية في الروعة، لكني لا أستطيع إدراك مدى تلك الروعة عن نفسي. كانت هناك دوقة أخيرة من "يورك"، التي عاشت في "أوتلاندز"، وكانت مغرمة جدًا بالكلاب وقامت بتربية عدد كبير منها، كما كان لها ساحة مقابر خاصة كي تقوم بدفنها عند وفاتها، إذ يرقد هناك حوالي خمسين منها، موضوع بلاطة على ضريح كل واحد منها ونقش عليها أنها تستحق ذلك. كنت أذكر كذلك أن هنالك معركة قامت هنا أو ما شابه.

أما كل من "هاليفورد وشيبرتون" فهما من أندر البقاع التي يمكنها بلوغ مياه النهر؛ ولكن لا يوجد شيء جدير بالملاحظة حيال أي منهما، هناك مقبرة في كنيسة "شيبرتون" مع قصيدة شعر قد نقشت عليها، وكنت متوترًا خشية أن يرغب هاريس في الخروج والتسكع من حولها أيضًا. إذ رأيته يراقب المنظر بعينيه ونحن نقترب منها، لكنني تمكنت وبحركة بارعة من إلقاء قبعته في الماء، وأثناء محاولته استعادتها وشعوره بالسخط حيال ما فعلته كان قد غفل تمامًا عن كل شيء يخص قبوره الحبيبة.

عند سد "واي"، و"واي" بمثابة مجرى صغير جدًا يسمح فيه بالتنقل للقوارب الصغيرة وصولا إلى "جيلدفورد"، وهو واحد من تلك الأماكن التي لطالما أردت استكشافها ولم أفعل يومًا. كما تفقدنا منطقة "زا بورن" وهي قناة أو منطقة تلاق لكل مداخل نهر التايمز معًا، فيما يقع السد أو الحاجز الخاص بها في مقابلة المدينة. وكان أول ما رأيناه عندما أمعننا النظر فيه هو سترة جورج على إحدى البوابات، وبنظرة ثاقبة أكثر تأكدنا من كونه جورج بالفعل، الذي حياه مونترينسي بنباح صاخب وصحت أنا وهاريس بدورنا ننادي عليه فبادلنا التحية ملوحًا بقبعته وهو يصيح هو الآخر، حتى احتشد الناس ظنًا منهم أن شخصًا ما قد سقط في الهويس، وقام الحارس بسحب البوابات حتى أدركوا أن أحدًا لم يسقط فبدا عليهم الانزعاج.

كان جورج يحمل حقيبة جلدية مثيرة للفضول في يده، كانت مستديرة ومسطحة حتى نهايتها، ولها مقبض طويل مستقيم يتدلى من معصمه، فسأله هاريس: "ما هذا؟ مقلاة؟".

فأجابه جورج مع لمعة غريبة تتلألأ في عينيه: "لا، إنها موضة هذا الموسم فالجميع يحملها معه إلى النهر، إنها آلة البانجو".

فقلت أنا وهاريس في صوت واحد: "لم نعهدك قط عازفًا لآلة البانجو!".

أجابنا: "ليس بالضبط، لكن عزفها سهل للغاية- هكذا أخبروني- كما أنني لدي كتيب للتعليمات!".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل التاسع

# سلوك بغيض على قارب شراعي صغير

الآن وبما إننا بلغنا جورج فقد أجبرناه على العمل مثلنا.. لم يكن يرغب في ذلك بالطبع؛ إذ حاول ألا يفعل متعللا بأنه كان يقضي أوقاتًا عصيبة في المدينة وأخذ يشرح لنا، حتى قال هاريس ذو الطبع القاسي الذي لا يعرف الشفقة: "آه! والآن حان وقت قضاء وقتًا عصيبًا في النهر على سبيل التغيير؛ فالتغيير مفيد للجميع، هيا انهض!".

لم يستطع جورج الاعتراض أو الفرار من الموقف على الرغم من أنه حاول ذلك بالاشارة إلى أنه ربما علينا أن نتوقف قليلا لعمل الشاي بينما نقوم أنا وهاريس بالتجديف، إذ إن الحصول على الشاي يعد عملًا مرهقًا أيضًا، فيما نبدو أنا وهاريس في حاجة إليه، فكان الرد الوحيد الذي تلقاه منا على ما قاله أننا مررنا المجدافين إليه حتى حملهما في صمت ومضى.

هناك شيء غريب للغاية، شيء غير قابل للتفسير متعلق بحبال السحب في القوارب، إذ إنك تقوم بلفها بالقدر نفسه من الصبر والعناية التي تحتاجهما لطي بنطال جديد، وبعد انقضاء خمس دقائق وعندما تحاول التقاطها تجدها متشابكة بشكل مروع يثير الغضب في نفسك. أنا لا أرغب في التقليل من شأني لكنني أؤمن إيمانًا راسخًا أنك إن حملت تلك الحبال وقمت بتمديدها على طول المكان في حقل ما بأكمله، ثم أدرت لها ظهرك لمدة ثلاثين ثانية فإنك إن نظرت إليها مرة أخرى، ستجدها قد صنعت من نفسها كومة في منتصف المكان تمامًا، ستجد أنها باتت متشابكة وصنعت من نفسها عقدة، فتفشل في بلوغ طرفي نهايتها بعدما صارت حلقات فوق بعضها البعض.

وسيحتاج منك الأمر نصف ساعة كاملة كي تجلس على العشب وتسب وتلعن طوال الوقت في محاولة تفكيكها مرة أخرى، هذا ما يجول في خاطري بالضبط حول الحبال والخيوط بشكل عام. وبالطبع قد تكون هناك استثناءات فيما أقوله؛ قد يكون هناك حبال تنجز العمل على أكمل وجه دون أن تعيقك، حبال جديرة بالاحترام بل آمل في ذلك، لكنني لم يتسن لي مقابلتها بعد.

أما عن حبال السحب التي أخذناها معنا، فقد حملتها بنفسي قبل وصولنا إلى البوابات مباشرة. لم أسمح لهاريس أن يلمسها قط، لأنه شخص مهمل، لذا فقد قمت أنا بعقدها في حلقات ببطء وحذر وقيدتها من المنتصف وطويتها في جزأين، ومن ثم وضعتها برفق في أسفل القارب، ثم قام هاريس بحملها بدقة كي يضعها في يد جورج ليس إلا، والذي أخذها في ثبات بدوره وأمسكها مبعدًا إياها عن جسده، وبدأ في حل الحبال كما لو كان يخلع الملابس عن طفل حديث الولادة، وقبل أن ينجح في حل دزينة من تلك الحبال، أضحت أقرب لسجادة سيئة الصنع أكثر من أي شيء آخر، إنه الأمر ذاته دائمًا كما أخبرتكم، الأمر نفسه الذي يتعلق بمسألة الحبال المعقدة، إذ

يتمحور المشهد حول الرجل الذي يقف محاولا فصلها عن بعضها البعض فيما يلقي اللوم على عاتق الرجل الذي طواها في البداية، وعندما يطفح به الكيل ينظر إليه ويسأله في غضب: "ما الذي كنت تحاول القيام به! صنع شبكة للصيد! لقد تسببت في فوضى لا أكثر، لماذا لم تحاول لفها بشكل صحيح؟ أم أنك مجرد أبله ساذج؟"، فيما يزمجر من وقت لآخر وهو يكافح في محاولة فكها، ويضعها بامتداد طول السحب ومساره في القارب، ويديرها محاولًا العثور على أحد طرفي النهاية.

ومن ناحية أخرى يعتقد الرجل الذي بدأ الأمر أن السبب وراء كل هذه الفوضى يقع على عاتق الرجل الذي يحاول فك وثاقها، ويصيح فيه في ثقة: "لقد كان كل شيء على ما يرام عندما أخذتها مني! لم لا تمعن التفكير فيما تفعله؟ إنك تحاول حل الأمور بطريقة مندفعة، وكل ما ستحصل عليه عقدة متشابكة أكثر مما هي الآن"، ويتبادلان مشاعر الغضب حتى تشعر أنهما يودان شنق بعضهما بعضًا بتلك الحبال.

تمر عشر دقائق، حتى يصرخ الرجل إثر غضبه الشديد، ويثب حانقًا على تلك الحبال، ويحاول سحبها مباشرة عن طريق الإمساك بأول طرف يأتي في يده فيجذبه على الفور، الأمر الذي يتسبب في مزيد من التشابك بالطبع أكثر من أي وقت مضى، ومن ثم يقفز الرجل الثاني من المركب ويشرع في مساعدته، فيصطدم أحدهما بالآخر ويعرقلان بعضهما بعضًا، إذ إن كلاهما يحمل الخيط نفسه، ويسحبانه في اتجاهين متعاكسين، ويتساءلان لم يسقطان في كل مرة. وفي النهاية وما إن يتضح لهما الأمر حتى يستديران ويجدان أن القارب قد انطلق في طريقه مباشرة نحو السد!

لقد حدث ذلك حقًا ذات مرة على مرأى ومسمع مني، كان في صباح يوم عاصف إلى حد ما، وكنا نجدف في مجرى النهر وبينما نحن نجول بناظرنا في الأنحاء لاحظنا زوجًا من الرجال كانا ينظران إلى بعضهما البعض في حيرة وبؤس وارتباك بلا حول ولا قوة لم أرها قط كما رأيتها منذ ذلك الحين، وكانا يمسكان بحبل طويل بينهما ومن الواضح أن شيئًا ما قد حدث؛ لذلك فقد توقفنا وسألناهما ما الأمر، أجابا بلهجة ساخطة: "لقد توقف قاربنا، فقد خرجنا لتونا كي نحل الحبل الذي يسحبه، وعندما بحثنا عنه لم يكن موجودًا".

وقد بدا عليهما التضرر الشديد حيال ما وصفاه بفعلة دنيئة وبغيضة من قبل القارب، لكننا عثرنا لهما على مبتغاهما، الذي ابتعد لمسافة نصف ميل في أعماق المياه، بعدما علق ببعض محركات السرعة وأعدناه إليهما، أراهن على أنهما لن يعاودا التنزه في القارب نفسه مرة أخرى لمدة أسبوع. إنني لن أنسى أبدًا صورة هذين الرجلين وهما يتحركان صعودًا ونزولًا على الرصيف بينما يحملان حبال السحب بحثًا عن قاربهما. إن المرء ليحيا عددًا كبيرًا من الحوادث المثيرة للضحك المرتبطة بأمر تلك الحبال في النهر، وواحد من أكثر المشاهد شيوعًا عليه مشهد الرجلين اللذين يتسكعان في لا مبالاة بطول المركب، مستغرقين في نقاش حيوي، بينما زميلهما على متن المركب نفسه وعلى بعد مائة ياردة من خلفهما يصرخ عبثًا كي يحثهما على التوقف ويشير إليهما إشارات متتالية تنبئ بحدوث خطأ ما، ويصيح فيهما بأن هناك انزلاقًا بدفة القيادة أو ربما مرساة القارب قد انخلعت وتسبب في

حركته أو ربما أن قبعته قد سقطت في الماء، سقطت قبعته في الماء وتطفو بسرعة في طريقها لمجرى النهر.

يناديهما كي يتوقفا، يناديهما بلطف وبطريقة مهذبة في بادئ الأمر: "مرحبًا! توقفا لمدة دقيقة، هلا فعلتما؟"، ثم يصيح بنبرة مرحة: "لقد أسقطت قبعتي من على متن القارب، مرحبًا!! ألا يمكنكما سماعي؟"، ثم تتغير نغمته هذه المرة: "يا للعجب! توقفا أيها الأبلهان الغبيان!"، ويشرع بعد ذلك في الوثب ومواصلة الحركة في مكانه فيما يتحول وجهه للون الأحمر من الغضب ويسب ويلعن بكل كلمة يعرفها، حتى يتوقف الأولاد على ضفاف النهر كي يسخروا منه ويتهكمون عليه، بل ويلقون الحجارة عليه إذ إنه يتم سحبه بالقارب الذي يسير بعيدًا عنهما، وبمعدل أربعة أميال في الساعة دون النجاح في إيقافه.

يحدث الكثير من هذا النوع من المشكلات، التي يمكن تفاديها إن تذكر من يقومون بربط الحبال أنهم يربطونها فعلا، ويقومون بإلقاء نظرة من حين لآخر للتأكد من سير الأمور على ما يرام، كما أنه من الأفضل أن تترك شخصًا واحدًا كي ينجز تلك المهمة، لأنه عندما يتشارك فيها اثنان فإنهما يواصلان الحديث مع بعضهما البعض ويغفلان ما يفعلانه.

أخبرنا جورج في وقت لاحق من المساء عن حالة غريبة للغاية عندما كنا نناقش الموضوع فيما بعد العشاء، إذ قال إنه وثلاثة رجال آخرين كانوا يجدفون بمركب محمل وثقيل للغاية من "مايدنهيد"([14]) في إحدى الأمسيات، وبالقرب من سدود "كوكهام" لاحظوا وجود شاب وفتاة يسيران على طول الممشى وهما مستغرقان في خضم محادثة شيقة على ما يبدو، فيما كانا يحملان مرساة القارب بينهما، والتي تصل القارب عن طريق حبل طويل يتدلى على الأرض من خلفهما ونهايته في الماء، ولكن لم يكن هناك قارب بالقرب منهما، لم يكن هناك قارب على مرمى البصر، فلا بد أن يوجد قارب وأن يكون متصلا بذلك الحبل، لا بد أنه كان موجودًا بالفعل، هذا مؤكد، لكن ما الذي حل به؟ ما الكارثة المروعة التي أصابته؟ وهؤلاء الذين لا يزالون به فقد دفنت سيرتهم في غموض، ويبدو أنه مهما كانت فظاعة الحادث الذي وقع فإنه على الرغم من ذلك لم يزعج الشاب وسيدته تلك بأية حال من الأحوال!

كان جورج على وشك أن يناديهما ويوقظهما من غفلتهما، لكن في اللحظة ذاتها ومضت في عقله فكرة أفضل فلم ينادهما، وبدلا من ذلك سحب نهاية الربطة التي تنتهي بالمرساة من الطرف الآخر حتى وصل إليها وتأكد أنها نهاية الحبل ومن ثم صنع منها هو وأصدقاؤه عقدة وضعوها فوق صاري المركب الخاص بهم ثم تركوا المجاديف وذهبوا للمكوث في مؤخرة القارب وأشعلوا غلاييهم، ومن ثم فقد قام الشاب والفتاة بسحب هؤلاء الرجال الأربعة الضخام بزورقهم الثقيل. ثم قال لنا جورج إنه لم ير في حياته هذا الكم من الحزن والبؤس كما رآه يسكن قسمات الشاب والفتاة هكذا من قبل، إذ حدث ذلك بطبيعة الحال عندما أدرك هذا الزوج حقيقة أنهما يقومان بسحب القارب الخطأ بعدما سارا به لمسافة ميلين، وقال جورج إنه لولا تأثير السيدة اللطيفة إلى جانبه للجأ الشاب إلى استخدام لهجة شديدة تعبيرًا عن

غضبه، والتي استفاقت من هول المفاجأة فاستندت إليه بيدها تسأل بحدة: "هنري! أين هي العمة؟"، وهنا سأل هاريس: "وهل استعادوا تلك السيدة العجوز؟".

أجابه جورج بأنه لا يعرف.

وفي إيراد مثال آخر على الخطر الذي يكمن بين الرابط والمربوط فيه كما نحكي، فقد شهدت موقفًا أنا وجورج ذات مرة بالقرب من "والتون"، حيث كانت الألواح تسير برفق في الماء وكنا نخيم على الضفة المقابلة نراقب الأمور بشكل عام، وما إن مر وقت قليل حتى ظهر قارب صغير على مرمى البصر، وكان يشق المياه بسرعة كبيرة مدفوعًا من قبل زورق بخاري ضخم يجلس عليه صبي صغير جدًا، تبدو عليه الربكة الشديدة إزاء ذلك القارب الذي يحمل خمسة شباب يتمددون على متنه في وضع هادئ حالم غير عابئين بما يحدث، فيما كان الرجل الذي يتولى القيادة مسترخيًا للغاية.

وعندما مروا من أمامنا وفي تلك اللحظة بالذات فقد فعل الرجل ما كنا بانتظاره أن يفعله، واندفع القارب نحو الضفة بضوضاء أشبه بصوت تمزيق أربعين ألف ورقة من الكتان، حتى سقط على إثر ذلك رجلان وسلة كبيرة ومعهما ثلاثة مجاديف من على ميسرة القارب واستقروا على ضفة النهر، وفي غضون لحظات ترجل رجلان آخران من الميمنة وجلسا بين مرساة القوارب والأشرعة والزجاجات، وارتمى رجل آخر على بعد عشرين ياردة، ثم سقط على رأسه.

حتى بدا الأمر وكأنه محاولة لتفريغ محتويات القارب، لكن على نحو أسهل، حتى صاح الصبي الصغير بأعلى صوته، وحثّ مركبه على التحرك وجلس الرجال يحدقون في بعضهم البعض، إذ مرت عليهم بضع ثوان قبل أن يدركوا ما حدث لهم، وعندما فعلوا ذلك، بدأوا في الصياح بقوة لكي يتوقف الصبي. وعلى الرغم من ذلك فقد كان منشغلا للغاية بالقارب عن أن يسمعهم، وشاهدناهم وهم يهرولون من خلفه حتى غاب عن مرمى البصر تمامًا. لا أستطيع أن أقول إنني شعرت بالأسف حيال حادثهم المفجع، فبالتأكيد قد وددت أن يحدث أمر مماثل لمجموعة الشباب الحمقى الذين قاموا بربط قواربهم بهذه الطريقة، إضافة للكثير من الأشياء به، وإلى جانب ذلك الذي وضعوا أنفسهم فيه، حتى باتوا مصدر إزعاج ومضايقة لكل قارب آخر يمرون عليه، لأنه بطريقة السير التي اعتمدوها من المستحيل ألا يعيقوا طريق أي شخص آخر، أو أن يتمكن أي أحد من تفادي طريقهم!

أما من بين جميع التجارب المتعلقة بالسحب الخطأ، فإن الشعور الأكثر متعة بالطبع أن يتم قطر قاربك من قبل فتيات، إنه شعور لا ينبغي على أي أحد أن يفوته، فيما يحتاج الأمر لثلاث فتيات للقيام بتلك العملية، كي تمسك اثنتان منهما بالحبل وتتجول الأخرى وتدور هنا وهناك وهي تقهقه. عادة ما يبدأ الأمر بأن يعلقن بأنفسهن وتتعرقل أرجلهن بالحبل من حولها فيضطررن للجلوس على الممر وحل وثاق بعضهن بعضًا ثم يلففنه حول رقابهن حتى يقتربن من الاختناق ومع ذلك وفي نهاية المطاف يقومن بإصلاحه بشكل معتدل، ويبدأن في الركض ويسحبن القارب بطريقة خطيرة للغاية، حتى يصعب عليهن التنفس بطريقة طبيعية بعدما يقطعن

مسافة مائة ياردة، ويتوقفن فجأة، ويجلسن جميعًا ويضحكن، وينجرف قاربك إلى منتصف النهر ويستدير في مكانه.

فتصيح فيهن كي لا يتوقفن، فيصيحن هن في القارب ويقولن بكل ثقة: لا يبدو أمر التجديف صعبًا على الإطلاق. اعتقدنا أنه صعب للغاية".

فتجيبهم: "أوه، لا، إنه بسيط بما فيه الكفاية. عليك أن تبقي على استعداد دائم، هذا كل ما في الأمر".

وفي المحطة التالية يرين شيئًا ما وعليك بالطبع أن تترك القارب من أجله كي تزيله عن طريقهن، لذا فما أقوله إنه لا توجد لحظة مملة على الإطلاق في قارب تقوم فتيات بسحبه.

جدف بنا جورج في طريقه مباشرة حتى بلغنا سد "بنتون هوك" بعد فترة، وتناقشنا هناك في المسألة المهمة الخاصة بالمبيت، وقررنا النوم على متن القارب تلك الليلة، ولم يكن أمامنا إلا المكوث هناك أو مواصلة التقدم في طريقنا، لكن بدا أنه من السابق لأوانه التفكير في أمر تغطية القارب، بينما لا تزال الشمس ساطعة في السماء، ولهذا اتفقنا على مواصلة طريقنا مباشرة حتى "رانيميد"، التي تقع على بعد ثلاثة أميال ونصف؛ كي نعثر على مكان هادئ تكسوه الأشجار التي يمكننا الاستظلال بها. لكننا تمنينا فيما بعد لو أننا قد توقفنا في "بنتون هوك" ونمنا هناك، إذ إن التجديف عكس اتجاه الرياح لمسافة ثلاثة أو أربعة أميال قد يعد أمرًا عاديًا لو أننا في وقت مبكر من صباح اليوم، لكنه ودون شك مرهق للغاية في نهاية يوم طويل، حتى إنه لا يتسنى لك الاهتمام بالمشهد من حولك، ولا تقوى على الحديث أو الضحك، ويبدو كل نصف ميل تقطعه أقرب إلى ميلين أو أكثر، فيتسلل إليك شعور بالخوف الشديد إزاء ما يحدث، وكأن أحدهم قد أخفى المكان الذي تريده عن عمد.

أتذكر أنني شعرت بالانزعاج ذات مرة لحد كبير بسبب النهر، لقد كنت بالخارج مع سيدة شابة وهي ابنه خالتي من جانب والدتي وقد كنا نبحر في اتجاه "جورينج". كان الوقت متأخرًا إلى حد ما، وكنا نشعر بالقلق حيال الدخول أو أنه في حقيقة الأمر لقد كانت هي من يشعر بهذا القلق لقد قاربت الساعة علي السادسة والنصف عندما وصلنا إلى سد "بنسون"، وكان المساء قد حل وخيوط الغسق قد بدأت ترتسم في السماء مما جعلها تشعر بالإثارة، وقالت لي إنها يجب أن تدلف لأجل تناول العشاء، وقلت إنني شعرت برغبة في فعل ذلك أيضًا؛ وقمت بإمساك خريطة كانت معي كي أري تحديدًا مدى المسافة التي نبعدها بالضبط، فاتضح لي أنه كان على بعد ميل ونصف من السد القادم- سد والينجفورد- وخمسة أميال آخرين من هناك إلى- كليف- وهنا قلت لها: "أوه، كل شيء على ما يرام! سنبلغ السد القادم قبيل الساعة السابعة، وبعد ذلك سيكون هناك سد واحد أخير في انتظارنا".

وبقيت في مكاني وبدأت أجدف بعيدًا حتي مررنا أسفل الجسر، وبعد ذلك بفترة وجيزة سألتها إذا ما كانت قد رأت السد فأجابتني بالنفي بأنها لم ترَ أي سد، واصلت التجديف حتي مرت خمس دقائق أخرى وطلبت منها أن تتفحص مرة أخرى، فأجابتني: "لا أستطيع رؤية أية علامات تدل على وجود السد!".

فسألتها: "هل أنتِ متأكدة من أنكِ تعرفين ما السد؟ هل ستعرفينه إن رأيتِ واحدًا؟"، أنا أشكك في الأمر حقًا دون أدني رغبة مني في الإساءة إليها.

لكن السؤال قد أساء إليها، واقترحت أن أبحث بنفسي بشكل أفضل إن أردت ذلك. لذلك فقمت بترك المجاديف وألقيت نظرة كان النهر يمتد مباشرة من أمامنا لمسافة ميل تزينه حمرة الشمس عند المغيب.

ولا يوجد أثر لأي سد أو هويس يمكنني أن أراه، وهنا سألت رفيقتي: "أنت لا تظنين أننا فقدنا طريقنا، أليس كذلك؟". إذ إنني لم أفهم كيف يكون أمر كذلك ممكنًا؛ وعلى الرغم من ذلك، فقد توقعت أننا ربما قد دخلنا بطريقة أو بأخرى في طريق السد، ونشق طريقنا الآن نحو الشلال لا أكثر. لم تشعر بالراحة تجاه هذه الفكرة، وشرعت في البكاء. قائلة إن مصيرًا محتومًا بالغرق ينتظرنا، وإن الحق يقع عليها لأنها خرجت معي من البداية. لقد كانت معاملة سيئة مبالغ فيها من قبلها، لكنها لم تلقِ بالا لذلك، وكل ما كانت تأمله أن ينتهي الأمر قريبًا.

حاولت طمأنتها، والتفكير بشكل إيجابي حيال الوضع برمته. إذ قلت إن الأمر وما فيه إنني لم أكن أجدف بالسرعة التي كنت أتخيلها، لكنه من المفترض أن نصل قريبًا إلى ذلك السد؛ وبدأت أسير لمسافة ميل آخر. حتى شعرت بالتوتر بدوري. ونظرت مرة أخرى إلى الخريطة، حيث كانت هناك علامة واضحة على وجود "سد والينجفورد" على بعد ميل ونصف من "بنسون". لقد كانت خريطة جيدة وموثوقًا منها؛ إلى جانب أنني قد تذكرت مكان هذا السد بنفسي فلقد مررت به مرتين. أين كنا؟ ماذا حدث لنا؟ بدأت أعتقد أن كل ذلك مجرد حلم، وأنني كنت بالفعل نائمًا في الفراش، ويجب أن أستيقظ في خلال دقيقة حتى يخبرني أحدهم أن الساعة تجاوزت العاشرة، وسألتها إذا ما كانت تفكر فيما أفكر فيه؟ فأجابتني بأنها كانت على وشك أن تسألني السؤال نفسه. وبدأ كل منا يتساءل عما إذا كنا نائمين، وإذا كان الأمر كذلك، فمن منا الذي كان يحلم؟ ومن منا من كان بداخل الحلم، حتى أصبح الأمر مثيرًا للاهتمام للغاية.

واصلت القيام بالتجديف، وعلى الرغم من ذلك، لم يظهر أي سد في الأفق بينما ازداد النهر غموضًا ووحشة تحت ضباب الليل، وبدأت الأمور تصبح غريبة وغير واضحة بالنسبة إلينا، حتى استحوذ على تفكيري شكل الجنيات والغيلان والأبخرة من حولهم، وتلك الفتيات الشريرة اللاتي يجلسن طوال الليل على الصخور ويجذبن الناس لإغراقهم في الدوامات؛ وددت لو أنني كنت رجلاً أفضل من ذلك، رجل يمكنه أن يسبح ويتلو التراتيل في أوقات كتلك.

وفي وسط كل هذه الأفكار تسلل صوت الموسيقى إلى أذناي وانتاباتني حالة من الرغبة في الإيمان بأنه سيتم إنقاذنا، أنا لا أحب الأغنيات عمومًا، لكن تلك النغمات كانت جميلة للغاية؛ نغمات كان لها وقع كبير في الروح خاصة في حالتنا آنذاك، الأمر الذي أكد لنا وجود شيء بشري مطمئن من حولنا، واقتربت تلك الأصوات الحلوة حتى أصبحت قريبة من القارب بشكل ملحوظ.

حتى تبين لنا أنها كانت حفلة في سفينة بها أناس خرجوا للعزف والإبحار في ضوء القمر، لم يكن هناك أي قمر تلك الليلة لكن ذلك لم يكن خطأهم، لكنني لم أسمع عزفًا أكثر روعة مما كانوا يتبعونه، ولم أرَ أناسًا لطفاء هكذا في حياتي. ألقيت التحية عليهم وسألتهم عما إذا كانوا يستطيعون إخباري بالطريق المؤدي إلى "هويس والينجفورد"؛ وشرحت لهم أنني كنت أبحث عنه لمدة ساعتين.

فأجابوني مندهشين: "سد الينجفورد! لقد زال أثره من عام يا سيدي، ليس هناك سد باسم والينجفورد في تلك الأنحاء الآن، أنت قريب من سد "كليف"!

لم أفكر فيما قالوه مطلقًا، كل ما أردته أن أعانقهم وأدعو لهم بالمباركة، ولكن التيار كان قويًا للغاية على أن يسمح بأمر كهذا، وما كان علي سوى أن ألجأ لكل كلمات الامتنان التي أعرفها، إذ شكرناهم مرارًا وتكرارًا وتمنينا لهم ليلة جميلة ورحلة سعيدة، وأعتقد أنني دعوتهم كلهم كي يأتون ويقضون أسبوعًا معي، وقالت ابنة خالتي أن والدتها ستكون سعيدة جدًا لرؤيتهم، وغنينا معهم جزءًا من أغنية نعرفها ومن ثم انطلقنا كي نصل المنزل في الوقت المناسب لتناول العشاء بعد كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل العاشر

# الليلة الأولى

بدأنا أنا وهاريس نشكك في عدم وجود هويس "بيل وير" كما حدث معي من قبل، وكان جورج قد جدف بنا إلى "ستاينز" وتحركنا بالقارب من هناك في هدوء حتى بدا الأمر وكأننا نجر خمسين طنًا من خلفنا ونسير لمسافة أربعين ميلا.. لقد كانت الساعة حوالي السابعة والنصف عندما بلغنا "ستينز" ودلفنا جميعًا بينما ظل جورج يجدف بمحاذاة الضفة اليسرى ونحن نبحث عن مكان كي نرسو فيه.

كنا نعتزم في الأصل الذهاب إلى جزيرة "ماجنا كارتا" ([15])، وهي جزيرة جميلة تأسر جانبًا لطيفًا من النهر حيث الرياح العليلة التي تمر عبر واد أخضر، وأن نخيم في إحدى تلك البقاع الخلابة التي يمكننا العثور عليها حول هذا الشاطئ الصغير. لكننا لم نشعر بالحماس الكافي كما كنا في وقت سابق من اليوم، فقد كانت أبخرة السفن وغازات الوقود كافية بالنسبة لنا في تلك الليلة، وكل ما كنا نتوق إليه تناول العشاء والخلود إلى الفراش، ومع ذلك، فقد جدفنا إلى الجزيرة حتى بلغنا بقعة لطيفة للغاية تحت شجرة الدردار الشاهقة، وفي الجذور المنتشرة حولها قمنا بتثبيت القارب.

ثم ظننا أننا سنتوجه لتناول العشاء مباشرة (كنا قد أفرغنا الشاي لتوفير الوقت)، لكن جورج قال لا وإنه من الأفضل أن ننزل الأشرعة أولاً كي نغطي القارب قبل أن يحل الظلام، وبعدما نتمكن من إنهاء الأمر برمته حينها فقط يمكننا الجلوس لتناول الطعام بذهن صاف.

احتاج أمر ذلك الغطاء القماشي وقتًا أطول مما كنت أعتقد، إذ بدا الأمر بسيطًا جدًا في البداية، فما عليك سوى الإمساك بخمس حلقات حديدية مثل الأطواق العملاقة في لعبة الكريكت ونقوم بفردها فوق القارب ومن ثم نثبتها في الأسفل بالمكان المخصص لذلك. أمر يستغرق عشر دقائق على أكثر تقدير كما اعتقدنا. أخذنا الأطواق وبدأنا في وضعها في الفتحات المخصصة لذلك، تظنون بالطبع أنه ليس بالعمل الخطير وما شابه ولكننا إذا عدنا لذلك اليوم بذاكرتنا سنتعجب من أن واحدًا منا بقي على قيد الحياة ليروي الحكاية، يا إلهي لم يكونوا أطواقًا بل كانوا شياطين.

ففي البداية رفضت الانصياع والدخول في فتحاتها على الإطلاق، واضطررنا للقفز عليها، والطرق من فوقها بالمطرقة الخاصة بالقارب، وبعد أن دلفت في أماكنها اتضح لنا أنها كانت في الفتحات الخاطئة، وكان علينا أن نخرجها مرة أخرى.

لكنها لم تخرج، حتى ذهب اثنان منا وتصارعا معها لمدة خمس دقائق حتى اقتلعناها في حركة مفاجئة كادت تلقي بنا في المياه وتتسبب في إغراقنا.

كما أنها كان بها مفصلات حديدية في المنتصف ودون أن نلقي بالا كانت تصيبنا في أجسادنا، وبينما كنا نتصارع مع أحد أطراف ذلك الطوق في محاولة إقناعه بالقيام

بواجبه جاء طرفه الآخر من خلفنا بخسة، وضربنا على رؤوسنا، وأخيرًا تمكننا من تثبيتها وكان كل ما يجب القيام به هو فرد الغطاء عليها.

قام جورج بتثبيت أحد طرفيه في مقدمة القارب فيما وقف هاريس في المنتصف ليأخذه من جورج ويمرره إليّ، وقد انتظرت طويلا لاستلامه حتى يأتي إلي، كان جورج قد قام بدوره على ما يرام، وعلى الرغم من أن ما تم تكليف هاريس به كان جديدًا عليه، فإنه قد حاول القيام به والتمكن منه بأية طريقة. وفي حركة لا تزال غامضة مجهولة بالنسبة إلي وبعد عشر دقائق من الجهد المضني، فقد علق هاريس تمامًا تحت الغطاء، الذي أصبح ملفوفًا بإحكام ومطويًا عليه بحيث لم يتمكن من الخروج منه. حاول القيام وفي خضم الكفاح لأجل التحرر منه رفس جورج، الذي تعارك معه فوقع هو الآخر في الفخ ذاته.

لم أكن أعرف شيئًا عم يدور معهما كل هذا الوقت، لم أكن أفهم ما كان يحدث على الإطلاق، فقد طُلِبَ مني أن أقف حيث كنت وأنتظر حتى يصلني الغطاء، وهو ما فعلته؛ إذ وقفت أنا ومونتمورينسي هناك وانتظرنا في صبر، فيما كنا نرى الغطاء القماشي يتحرك بعنف ويتم قذفه ورفسه، لكنني افترضت أنه ربما يكون هذا جزءًا من الطريقة المتبعة فلم أتدخل.

حتى إنني سمعت أيضًا الكثير من السباب القادم من تحت الغطاء، وخمنت أنهما ربما يعتقدان أنه عمل مزعج على حد كبير لا أكثر، واستقررت على أن أنتظر حتى تتضح الأمور قليلاً قبل الانضمام إليهما. انتظرت بعض الوقت، ولكن يبدو أن الأمور باتت تتعقد أكثر فأكثر، حتى ظهر رأس جورج أخيرًا على جانب القارب وشرع يقول: "هلا منحتنا يد المساعدة! ألا يمكنك ذلك! بدلا من وقوفك هكذا كالمومياء، كلانا يختنق أيها الأحمق الذي ينتظر كالدمية!".

ذهبت إليهما وخلصتهما من الغطاء؛ ويبدو أنني فعلت ذلك قبل فوات الأوان؛ إذ كان وجه هاريس قد بدأ يميل للون الأسود، استغرق الأمر نصف ساعة من العمل الشاق، قبل أن ننتهي منه بشكل صحيح، ثم قمنا بتنظيف المكان وتوجهنا لتناول العشاء، وضعنا الغلاية لتسخين المياه على الموقد وتركناها في مقدمة القارب وذهبنا إلى آخره وتظاهرنا أننا لا نراقبها، وأننا نعمل على إخراج الأشياء الأخرى.

فهذه هي الطريقة الوحيدة لاستخدام الغلاية في وضح النهار، لأنها إن رأتك وأنت تراقبها قلقًا في انتظار ما يغلي بداخلها فلن تنتهي منه أبدًا، فما عليك سوى أن تذهب بعيدًا وتبدأ في تناول وجبتك كما لو أنك لن تتناول أي شاي على الإطلاق. ومن ثم ستسمع صوتها وهي تصفر في جنون لكي تنبهك لانتهاء غلي الشاي. إنها لخطة جيدة تلك التي اتبعناها، بأن تصيح مؤكدًا: "لا أريد الشاي، أليس كذلك يا جورج؟"، الذي يصيح بدوره "لا، أنا لا أحب الشاي؛ سأحتسي عصير ليمون بدلاً من ذلك، فالشاي لا يساعد على الهضم". وعندها ستغلي الغلاية وتخرجها من على الموقد!

لقد اتبعنا هذا النوع من الخداع، وكانت النتيجة أنه وبحلول الوقت أصبح كل شيء جاهزًا، كان الشاي ينتظر ثم أشعلنا المصباح وجلسنا نتناول العشاء، ولمدة خمس وثلاثين دقيقة لم يكن هنالك أي صوت بطول وعرض هذا القارب باستثناء

الصحون والسكاكين والأواني وصوت المضغ المستمر لأربعة أشخاص، حتى تأوه هاريس وأخرج ساقه اليسرى من تحته ووضع ساقه اليمنى بدلاً منها، وبعد خمس دقائق قال جورج الشيء نفسه وألقى بصحنه بعيدًا، وبعد ثلاث دقائق من ذلك، أظهر مونتمورينسي أول علامة على الرضا منذ أن بدأنا تلك الرحلة، وانحنى على جانبه وفرد ساقيه؛ ثم تأوهت بدوري وانحنيت برأسي للخلف واصطدمت بأحد الأطواق، لكنني لم ألقِ بالا لذلك، وتعجبت من شعور المرء عندما يكون ممتلئًا، عن مدى رضانا عن أنفسنا وتصالحنا مع العالم! أخبرني الأشخاص الذين جربوا ذلك أن المعدة الممتلئة تجعلك سعيدًا جدًا ومكتفيًا وقادرًا على القيام بالأعمال أيضًا وفي سهولة أكبر.

يشعر المرء بالتسامح والكرم بعد تناول وجبة غنية ومشبعة، يفكر بشكل سليم ويغدو طيب القلب، إنه لأمرغريب تلك الهيمنة على عقولنا من قبل أجهزتنا الهضمية، وكأنه لا يمكننا العمل ولا يمكننا التفكير ما لم ترغب معدتنا في ذلك، إنها تملي علينا عواطفنا وتحدد مدى شغفنا. فبعد تناول البيض واللحم نشعر برغبة في العمل وبعد احتساء الشراب نشعر برغبة في النوم، وبعد كوب من الشاي تشعر وكأنه يخاطب عقلك قائلا: "هيا الآن، انهض، وأظهر قوتك، كن بليغًا ومعطاءً؛ انظر بعين مجردة إلى الطبيعة وإلى الحياة، حرر أجنحتك وطر فوق العالم المحيط بك وسر عبر ممرات طويلة مزينة بالنجوم المتلألأة". أما بعد تناول الفطائر الساخنة فتبدو وكأنها تقول لك: "كن كسولا وتخلَ عن إنسانيتك كأبله متبلد المشاعر، ولا تشعل في عينيك أي شعاع هوى أو أمل أو خوف أو حب أو اهتمام بالحياة".

نحن لسنا سوى عبيد لمعدتنا، أيها الأصدقاء راقبوا معداتكم برفق، وتعاملوا معها بحذر وحكمة، ومن ثم ستأتيك القوة والرضا كي يستقران في قلبك، دون بذل أي جهد من ناحيتك، وستكون مواطنًا صالحًا، وزوجًا محبًا، وأبًا رقيقًا، ورجلاً نبيلاً تقيًا.

فقبل العشاء كنا جميعًا؛ أنا وهاريس وجورج، مشاكسين ويغلب علينا مزاج سيئ. أما بعد العشاء فقد جلسنا نلهو مع بعضنا بعضًا ولهونا مع الكلب أيضًا، أحببنا بعضنا، إذ تعرقل هاريس في قدم جورج أثناء تحركه، ولو حدث هذا قبل العشاء، لأعرب جورج عن ضيقه وبادله هاريس هذا التعبير، لتمنى له مصيرًا لعينًا في هذا العالم، مصير من شأنه أن يخيفه حتى يشعر بالرجفة، وبدلا من أن يقول هاريس بصوت غير مقبول إنه لا بد للمرء أن يتعثر بقدم جورج إن تحرك في محيط قدره عشر ياردات من المكان الذي كان يجلس فيه، وأنه لا ينبغي لجورج أن يحضر قدميه معه، فلا يمكنه أن يأتي إلى قارب عادي الحجم مع أقدام بذلك الطول، وينصحه بتعليقهما على جانبيه. لم يفعل هاريس كل ذلك، بل قال له: "أوه، أنا آسف للغاية يا صديقي القديم؛ آمل ألا أكون تسببت لك في أي أذى".

وقال جورج: "لا، على الإطلاق، لقد كان خطئي أنا"

فقال هاريس: "لا، إنه خطئي أنا"

وكم كان من اللطيف سماعهما وهما يقولان ذلك!

ومن ثم أشعل كل منا غليونه وجلسنا نراقب ذلك الليل الهادئ ونتحدث، حيث تساءل جورج لماذا لا يمكن أن نحيا مثل وقتنا هذا دائمًا- بعيدًا عن العالم، بذنوبه وإغراءاته، نحيا حياة ساكنة وسلمية نفعل الخير بها، فقلت إنه الشيء الذي أتوق إليه في الغالب؛ وناقشنا احتمالية ذهابنا بعيدًا، جميعنا، إلى جزيرة جيدة وملائمة لنا، أو العيش هناك في الغابة.

وقال هاريس إن الخطر الذي يحيط بتلك الجزر على حد معلوماته أنها تكون رطبة للغاية، لكن جورج أجابه بالنفي، ليس إن جرت العناية بها بشكل صحيح. وبعد ذلك وصلنا إلى مشكلة مياه الصرف التي قد تواجهنا هناك فأردف جورج بأمر مضحك للغاية قد حدث لأبيه ذات مرة، قال إن والده كان مسافرًا مع زميل آخر إلى "ويلز" وتوقفا ذات ليلة عند منزل صغير، حيث كان يسكن بعض الزملاء الآخرين فانضما إليهم، وقضيا المساء معهم.

وقد أمضوا أمسية سعيدة للغاية حتى وقت متأخر، وبحلول الوقت استعدوا للخلود إلى الفراش في مرح متواصل، وأوضح جورج أن ذلك حدث ووالده شاب صغير جدًا، ومن ثم كان على والد جورج وصديقه أن يذهبا للنوم في الغرفة نفسها، ولكن في أسرّة مختلفة.

فأخذا الشمعة، وصعدا، وبينما كانت الشمعة مرفوعة بمحاذاة الجدار عندما دخلا الغرفة، عزما على خلع ملابسهما والخلود إلى الفراش في الظلام، ولكن بدلاً من الدخول إلى أسرة منفصلة كما ظنا أنهما يفعلان، صعد الاثنان إلى السرير نفسه دون إدراك ذلك؛ إذ دخل أحدهما برأسه في الأعلى وزحف الآخر من الجانب الآخر، واضعًا قدميه على الوسادة، فخيم الصمت للحظة واحدة، ثم قال والد جورج: "جو!".

فجاءه صوت جو من الطرف الآخر من السرير قائلا: "ما الأمر يا توم؟"

فقال والد جورج: "لماذا يوجد رجلا في سريري؟" ها هي قدماه على وسادتي"

فأجابه الآخر: "حسنًا، إنه لأمر غير عادي يا توم، لكنك ستتعجب إن قلت لك إن هناك رجلا في سريري أيضًا!".

فسأله: "وما الذي ستفعله حيال ذلك؟"، أجابه زميله: "سأركله خارجًا"، قال له متحمسًا: "وأنا أيضًا".

كان هنالك صراع قصير، انتهى بصوت ارتطامين ثقيلين على الأرض، ثم جاءت نبرة صوت حزين نوعًا ما: "يا توم"

"نعم"

"كيف انتهى بك الأمر هنا؟"

"حسناً، إن أردت الحقيقة، فلقد ركلني الرجل"

"وأنا أيضًا! لا يروقني هذا المنزل، ماذا عنك؟"

استمعنا إلى قصته باهتمام وضحكنا، ثم انتهينا في العاشرة من تلك الليلة، واعتقدت أنني سأتمكن من النوم جيدًا بعد كل هذا التعب؛ لكني لم افعل، وكأنها قاعدة عامة أن أخلع ملابسي وما إن أضع رأسي على الوسادة حتى يطرق أحدهم الباب ويقول إن الساعة الثامنة والنصف، ولكن في تلك الليلة بدا الأمر وكأن كل شيء يسير ضدي سواء القارب أو الوضعية التي أنام بها؛ إذ كنت مستلقيًا وقدمي تحت مقعد ورأسي على مقعد آخر، فيما جعلني صوت المياه الجارية حول القارب، والرياح التي تهب بين الفروع مضطربًا ومنزعجًا.

تمكنت من النوم لبضع ساعات قليلة، وبعد ذلك ظهر جانب من القارب يبدو وكأنه قد نما في الليل؛ لأنه لم يكن هناك عندما بدأنا الرحلة، وكان قد اختفى في الصباح التالي لكنه شيء قد واصل دفعي في العمود الفقري.

لقد نمت على الرغم من ذلك لفترة من الوقت، وكنت أحلم بأنني ابتلعت إحدى العملات الذهبية، وأنهم كانوا يحاولون عمل فجوة في ظهري عن طريق مثقاب بغرض إخراجها فيما اعتقدت أنه لأمر لئيم للغاية من ناحيتهم، وقلت لهم إنني سأدين لهم بالمال، وأنهم سيحصلوا عليه في نهاية الشهر، لكنهم لم يستمعوا إلي، وقالوا إنه سيكون من الأفضل إن حصلوا عليه حينها، وإلا فستتضاعف الفائدة. لقد تصارعت معهم بعض الشيء، وأخبرتهم بما فكرت به حتى استيقظت في حركة مفاجئة، وبدا لي القارب خانقًا، وكان رأسي يؤلمني؛ لذلك قررت أن أخرج لاستنشاق هواء الليل البارد، ارتديت الملابس التي وجدتها في طريقي، بعضها من ملابسي، وبعضها من ملابس جورج وهاريس- وتسللت من تحت الغطاء إلى ضفاف النهر.

لقد كانت ليلة مجيدة، غاب فيها القمر، وترك الأرض الساكنة وحدها مع النجوم. بدا الأمر كما لو أننا في الصمت والسكون ننام كأطفالها الذين كانوا يتحدثون معها، كأنها شقيقتنا التي تتحدث عن ألغاز بأصوات عميقة بحيث لا تتمكن آذان الإنسان العادي من التقاط الصوت، لقد أذهلتنا تلك النجوم الغريبة، التي تبدو باردة جدًا، وجلية جدًا. ومع ذلك فإنها تملؤك بشعور الراحة والقوة، إذ إنه في الليل، وفي وجودها المهيب تزحف أحزاننا الصغيرة وهي خجلة، حتى لو كان اليوم مليئًا بالحزن والتعب وكانت قلوبنا مليئة بالشر والأفكار السيئة ،وبدا العالم قاسًيا بالنسبة لنا، فتأتي هي في الليل مثل الأم المحبة العظيمة كي تضع يدها على رأسنا المحموم بلطف، وتبتسم؛ وعلى الرغم من أنها لا تتحدث، فإننا نعرف ما تقوله، فنضع خدنا في حضنها، حتى يذهب الألم.

أحيانًا ما يكون ألمنا عميقًا وحقيقيًا، فيما نقف أمامه صامتين، لأنه لا توجد لغة للتعبير عن آلامنا، لا شيء سوى الأنين، حتى يمتلئ قلب الليل بالشفقة حيالنا إذ إنه لا يستطيع تخفيف آلامنا. فيأخذ يدنا في يده ويبدو العالم صغيرًا جدًا وبعيدًا للغاية عننا، ويحملنا على جناحيه المظلمين وفي ضوء النجوم العجيب تكتب حياة كل

إنسان ككتاب أمامنا، ونحن نعلم أن الألم والحزن ليسا إلا أمور عادية ورسائل، فقط من شعروا بتلك المعاناة يمكنهم فهم الأمر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل الحادي عشر
# قصة ذات عبرة

استيقظت في السادسة من صباح اليوم التالي؛ ووجدت جورج قد استيقظ بدوره، ثم تقلبنا على الجانب الآخر وحاولنا النوم مجددًا، لكننا لم نتمكن من ذلك. وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك أي سبب محدد يمنعنا من النوم، لكننا استيقظنا في نهاية المطاف وارتدينا ملابسنا، وما كان ينقصنا سوى النزول إلى أن نظرنا في ساعاتنا واتضح لنا أن الوقت لا زال مبكرًا، فنمنا حتى الساعة العاشرة نظرًا لعدم وجود أي ضرورة لاستيقاظنا قبل ساعتين مما يجب، إذ كان استيقاظنا في ذلك الوقت نوعًا من العبث.

قال جورج إن الشيء نفسه بل الأسوأ من ذلك قد حدث له قبل حوالي ثمانية عشر شهرًا، عندما كان يقيم بمفرده في منزل السيدة "جيبينز"، إذ قال إن ساعته قد أخطأت في إحدى الليالي وتوقفت عند الساعة الثامنة والنصف. ولم يتسن له اكتشاف الأمر حينها لأنه كان قد نسي أن يقوم بفحصها عندما ذهب إلى الفراش، وقام بوضعها على وسادته دون أن ينظر إليها مطلقًا.

كان في فصل الشتاء عندما حدث هذا، حيث نهار قصير في أسبوع مليء بالضباب، وبالتالي فإن حقيقة الأمر كانت أن النهار لا يزال مظلمًا للغاية عندما استيقظ جورج، ولم يعطه أية دلالة على الوقت، فرفع جورج يده إلى أعلى وسحب ساعته التي كانت تشير إلى الثامنة والربع، فصاح جورج: "يا إلهي، يجب أن أكون في المدينة في تمام التاسعة، لماذا لم يتصل بي أحد؟".

وألقى الساعة، وخرج من الفراش كي يأخذ حمامًا باردًا ويغتسل، وارتدى ملابسه بعدما حلق ذقنه أيضًا بالماء البارد لأنه لم يكن هناك وقت لانتظار الماء الساخن، ثم هرع وألقى نظرة أخرى على الساعة، ولم يدرِ ما إن تسبب اهتزازه على الفراش في تحريكها أو كيف حدث ذلك لم يستطع جورج أن يجد تفسيرًا، لكن من المؤكد أنها تحركت من الثامنة والربع وأشارت إلى التاسعة إلا عشرين دقيقة، انتزعها جورج وهرع إلى الطابق السفلي، وفي غرفة الجلوس كان كل شيء مظلمًا وساكنًا؛ إذ لم تكن هناك نار في المدفأة ولا إفطار، حتى قال جورج إنه لعار على السيدة جي أن تغفله، وقد قرر أن يخبرها بذلك لدى عودته إلى المنزل في المساء، ثم ارتدى معطفه واعتمر قبعته، وأمسك مظلته، وخرج نحو الباب الأمامي، لكن الباب لم يكن مفتوحًا، وألقى باللوم مجددًا على السيدة جي لكونها امرأة عجوزًا كسولة، وظن أنه من الغريب ألا يتمكن الناس من الاستيقاظ في وقت لائق وطبيعي، وفتح الباب وانطلق.

ركض بقوة لمسافة ربع ميل، وفي نهاية تلك المسافة بدأ يتسلل له شعور بالغرابة بسبب أن هناك عددًا قليلا من الناس من حوله، وأنه لا توجد محلات مفتوحة، وأنه على الرغم من كونه صباحًا كئيبًا وضبابيًا، لكنه من غير المعتاد أن تتوقف كل

الأنشطة التجارية هكذا، فيما كان عليه أن يذهب إلى العمل، فلماذا يظل الآخرون في الفراش لمجرد أنه صباح ضبابي؟!

وصل أخيرًا إلى "هولبورن"، لم يكن هنالك أية حافلة في الأرجاء، كان هناك ثلاثة رجال فقط، أحدهم رجل شرطة ورجل في عربة تسوق مليئة بالخضار، وآخر في سيارة أجرة قديمة. أخرج جورج ساعته ونظر إليها فوجدها تشير إلى التاسعة إلا خمس دقائق، فوقف مكانه وبدأ يعد نبضاته ثم انحنى وتحسس ساقيه، ثم ذهب إلى الشرطي وهو ممسك بساعته في يده وسأله عما إذا كان يعرف كم الساعة حينها، فنظر إليه الشرطي يتفحصه وقال: "كم الساعة! لماذا تسأل، إذا أنصت جيدًا فسوف تسمعها". وهنا استمع جورج لدقات ساعة مجاورة في الأنحاء وقال في دهشة: "ثلاث دقات فقط!"

فأجابه الشرطي: "حسنًا، وكم كنت تريدها أن تدق؟"

قال جورج وهو يبرز ساعته: "تسعة!"

فسأله الشرطي بحدة: "هل تعرف أين تعيش؟"

فأعطاه جورج العنوان فقال له الرجل: "حسنًا، خذ نصيحتي واذهب إلى هناك في هدوء واحمل تلك الساعة معك وحاول التخلص منها".

وعاد جورج إلى البيت مرة أخرى وأخذ يتأمل إذ ساعده المشي على ذلك، ودلف إلى النزل، وفي البداية عزم على خلع ملابسه والذهاب إلى الفراش مجددًا؛ ولكن عندما أمعن التفكير ورأى أنه سيرتدي تلك الملابس مرة أخرى، قرر ألا يفعل ذلك وأنه سيجلس وينام على مقعد مريح، لكنه لم يستطع النوم، لم يشعر قط بشعور يقظة أقوى من هذا في حياته؛ وبالتالي أشعل المصباح وأخرج رقعة الشطرنج، ولعب بمفرده، لكن الأمر لم يرضِه وبدا مملا على نحو ما، فترك الشطرنج وحاول أن سيتبدل به القراءة، لكنه لم يجد نفسه راغبة في القراءة أيضًا لذلك ارتدى معطفه مرة أخرى وخرج للتنزه.

لقد كان الطريق موحشًا بشكل مروع، ورمقه كل رجال الشرطة الذين قابلهم بنظرات شك واتهام، وأضاءوا المصابيح في اتجاهه وتتبعوه، وكان لهذا تأثير عليه إذ شعر وكأنه مجرم وقد فعل شيئًا ما، فأخذ يتسلل في الشوارع الجانبية ويختبئ في المداخل المظلمة عندما يسمع خطواتهم وهي تقترب، ومن الطبيعي أن هذا السلوك يثير الشكوك من حوله أكثر من أي وقت مضى؛ إذ كانوا يأتون ويخرجونه ويسألونه عما كان يفعله هناك، وعندما يجيبهم: "لا شيء" متعللا بأنه قد خرج في نزهة لا أكثر، يبدو الأمر كما لو أنهم لم يصدقوه. كانت الساعة الرابعة صباحًا، فاصطحباه اثنان من رجال الشرطة يرتديان ملابس مدنية إلى منزله للتأكد مما إذا كان يعيش هناك حقًا كما يدعي، وراقباه وهو يفتح الباب، حتى أدارا ظهريهما وتركاه.

فكر في إشعال المدفأة عندما دلف إلى النزل، وأن يصنع لنفسه بعض الفطور حتى يمر الوقت؛ لكنه لم يكن قادرًا على عمل أي شيء، فعليه أن يمر فوق دلو الفحم

وبيده ملعقة صغيرة دون أن يسقطها أو يسقط عليه، ويحدث ضجة كبيرة من شأنها أن توقظ السيدة جي، فتظن أنه لص وتفتح النافذة وتصرخ استدعاء للشرطة، فيندفع المحققان ويقيدانه ويصطحبانه إلى المحكمة على أثر ذلك.

كان في حالة عصبية مثيرة للشفقة بحلول الوقت وبات يتصور المحاكمة ومحاولته شرح الحقيقة أمام هيئة المحلفين بينما لا يصدقه أحد، حتى حُكم عليه بالسجن لعقوبة مدتها عشرين عامًا، وتموت والدته حزنًا عليه، لذا فقد تخلى عن فكرة محاولته لتناول الإفطار، ولف نفسه في معطفه وجلس على الكرسي ذي المساند، حتى نزلت السيدة جي في السابعة والنصف. فأقسم إنه لن يستيقظ مبكرًا أبدًا منذ ذلك الصباح الذي كان بمثابة تحذير بالنسبة له.

كنا نجلس مجتمعين وملفوفين في أغطيتنا بينما كان جورج يقص علينا هذه القصة الحقيقية، وعند الانتهاء من ذلك عمدت إلى إيقاظ هاريس بمجداف، حتى انقلب على الجانب الآخر ، وقال إنه سينزل في غضون دقيقة واحدة، وأنه سيبحث عن حذائه لا أكثر، وجلس فجأة وركل مونترينسي الذي كان نائمًا بأحد أطراف القارب.

ومن ثم رفعنا الغطاء، واتكأنا جميعًا برؤوسنا على جانبي القارب ننظر إلى الماء حتى سارت الرجفة في أجسادنا، كنا قد استقررنا في الليلة الماضية على أن ننهض في الصباح الباكر ونتحرر من تلك الأغطية والأوشحة وننطلق إلى النهر بينما نصيح في سعادة ونستمتع بسباحة طويلة ومنعشة، لكن بطريقة ما عندما حل الصباح فقد بدت الفكرة أقل إغراءً وبدا الماء كئيبًا باردًا بفعل الرياح.

حتى قال هاريس أخيرًا: "حسنًا، من سيكون أول من يقفز؟"

لم يكن هناك أدنى رغبة لنيل الأسبقية في أمر هكذا، حيث انعكس ذلك في قيام جورج للجلوس بالقارب وارتداء جواربه، كما نبح مونترينسي نباحًا لا إراديًا وكأن مجرد التفكير في الأمر قد أثار رعبه، وقال هاريس إنه سيكون من الصعب عليه العودة إلى القارب مرة أخرى كي يحضر سرواله. لست ممن يفضلون الاستسلام سريعًا على الرغم من أنني لم أتحمس لفكرة الغطس نفسها؛ إذ إنه من الوارد أن أصطدم ببعض النتوءات، أو الأعشاب الضارة، فحاولت تسوية المسألة بالنزول إلى ضفة النهر ونثر الماء على جسدي؛ لذلك فأخذت معي منشفة وسلكت طريقي نحو الشاطئ زاحفًا على فرع شجرة تغوص نهايته في الماء.

كان الطقس باردًا جدًا، والرياح تجرح كسكين، ففكرت في عدم الاقتراب من الماء وأنني سأعود للقارب وأرتدي ملابسي واستدرت بعدما انتويت ذلك بالفعل، وبينما أستدير إذا بفرع الشجرة الأحمق هذا ينكسر فأسقط أنا والمنشفة في الماء محدثين نافورة هائلة من قوة السقوط، وقبل أن أدرك ما حدث للتو كانت رئتاي قد امتلأتا بجالونات من نهر التايمز، وهنا سمعت هاريس يقول: "يا إلهي!".. وعندما طفوت على السطح استكمل قائلا: "لم أكن أعتقد أنه سيكون لديك الشجاعة للقيام بذلك، هل فعلتها حقًا؟". وهنا أردف جورج: "هل كل شيء على ما يرام؟".

فغمغمت قائلا: "كل شيء بخير، بل إنكما أحمقان لتفويتكما أمرًا كهذا، لم أكن لأفوته في مقابل العالم بأكمله، لماذا لا تحاولان فعلها؟ إن كل ما يحتاجه منكما قدر من الإصرار".. لكنني لم أستطع إقناعهما في نهاية المطاف.

وبعد كل هذا وبينما كنا نرتدي ملابسنا في ذلك الصباح فقد حدث شيء مضحك، إذ كنت أشعر بالبرد الشديد لدى عودتي إلى القارب، وبينما أرتدي قميصي في عجلة من أمري قذفت به عن طريق الخطأ حتى وقع في الماء مما أثار حنقي خاصة أن جورج قد انفجر في الضحك على أثر ذلك، لم أر شيئًا مثيرًا للضحك فيما حدث، وكلما قلت هذا لجورج ضحك أكثر، لم أر رجلا في حياتي يضحك بطريقة مبالغ فيها كما يفعل هو، حتى فقدت أعصابي في النهاية، وأوضحت له كيف أراه أحمق مجنونًا لكنه ظل يضحك بصوت أعلى على الرغم من ذلك.

وبعد ذلك، وبينما أحاول الإمساك بالقميص لإخراجه من الماء اكتشفت أنه لم يكن قميصي بل إنه قميص جورج الذي أخذته عن طريق الخطأ، وحينها وجدت الأمر مضحكًا لحد لم أره من قبل، وشرعت في الضحك كلما نظرت إلى قميص جورج المبلل، ظللت أضحك كثيرًا لدرجة أن القميص أفلت ليسقط مرة أخرى في الماء.

فقال جورج:" ألن تقوم بإخراجه؟"

لم أستطع أن أجيبه وسط صيحاته وموجة الضحك التي غرقت بها لفترة من الوقت حتى استطعت أخيرًا وأنا أتمالك نفسي: "إنه ليس قميصي- إنه يخصك!"، ولم أرَ في حياتي وجه رجل وهو يتغير هكذا من الضحك إلى الحنق الشديد بهذه السرعة، حتى إنه صرخ: "ماذا! أيها الأحمق السخيف، لماذا لا يمكنك أن تكون أكثر حرصًا لما تفعله؟ لماذا لا ترتدي ملابسك على الأرض بحق الجحيم! أنت لست مؤهلا للبقاء في قارب كهذا! لست مؤهلا تمامًا، ناولني الخطاف".

حاولت أن أجعله يرى الجانب الطريف من الأمر، لكني لم أستطع إذ إن جورج في بعض الأحيان ما يكون عنيفًا للغاية فلا يفهم مزحة ما..

اقترح هاريس أن نتناول بعض البيض المخفوق على الإفطار، وقال إنه سيقوم بصنعه من أجلهم، إذ إنه يجيد القيام بذلك من وجهة نظره، وإنه عادة ما يفعل الأمر ذاته عند الخروج في نزهة أو الإبحار في اليخوت حتى اشتهر بتميزه في ذلك لدى كل من تذوق بيضه المقلي، لذا فقد جذبنا حديثه وجلسنا حول المقلاة لا نعير اهتمامًا لأي نوع طعام آخر، حتى إنه أثار لعابنا أثناء سماعه يصف الأشياء التي يصنع البيض بها، أعطيناه الموقد والمقلاة وكل البيض الذي ما زال سليمًا بعدما تكسر بقيته وأفسد كل شيء في السلة، وتوسلنا إليه أن يشرع في طهيه، لقد واجه صعوبة في كسر البيض، أو بالأحرى ليس في تكسيره بالضبط لكن في تكسيره مع وضعه في المقلاة وتفادي إسقاطه على سرواله، ونجح أخيرًا في وضع ست بيضات في المقلاة، ثم جلس القرفصاء بجوار الموقد وأخذ يقلبهم بشوكة، لقد بدا العمل مرهقًا حسبما كنا نراقبه أنا وجورج، وبمجرد أن اقترب هاريس من المقلاة أحرق نفسه ثم قام بإسقاط كل شيء وأخذ يثب ويقفز حول الموقد، يهز أصابعه في الهواء ويسب ويلعن.

ظننت أنا وجورج أن ما يفعله طقسًا عاديًا من طقوس أدائه لتلك العملية، اعتقدنا أنه جانبًا من ترتيبات الطهي؛ إذ إننا لم نكن نعرف كيف يصنع البيض المخفوق، وتوقعنا أنه ربما يكون نوعًا من أطعمة الهنود الحمر أو أنه من نوع الأطباق التي تتطلب هذا الرقص كي يتم طهيها بعناية، حتى ذهب مونتمورينسي يستنشق رائحته واحترق بفعل الدهون التي تقفز في المقلاة، فأخذ يرقص ويثب هو الآخر حتى مثل مع هاريس مشهدًا من أمتع المشاهد التي رأيتها في حياتي.

لم تكن النتيجة على قدر النجاح الذي توقعه هاريس مقارنة بالجهد الذي بذله؛ إذ وضع ست بيضات في المقلاة وكل ما خرج لنا كان بحجم ملعقة صغيرة ومحروقة ولها هيئة رثة غير شهية بالمرة، وقال هاريس إنه هنالك خطأ ما بالمقلاة، وإنه كان سيخرج أفضل من هذا إن أحضرنا مقلاة كمقلاة السمك وموقد الغاز. وهنا قررنا عدم محاولة صنع هذا الطبق مرة أخرى حتى تتوافر لدينا تلك الإمكانيات المساعدة على طهيه بشكل سليم.

اشتدت الشمس وازداد سطوعها عندما انتهينا من الإفطار إذ هدأت الرياح وبات المناخ جميلا كما يتمناه المرء أن يكون، كان المشهد في الأفق كافيًا لتذكيرنا بقرن زائل، وكنا ننظر إلى النهر في ضوء الشمس من صباح اليوم حتى توهمنا بانقضاء القرون التي تفصل بيننا وبين هذا الزمن، وأننا قد عدنا لشهر يونيو من عام 1215، وأننا أبناء الإنجليز في ثياب وطنية مع حزام قماشي وننتظر هناك كي نشهد كتابة تلك الصفحة المهيبة من التاريخ.

فيما تترجم أحداث ذلك اليوم إلى عامة الناس بعد حوالي أربعمائة سنة من حينها، على يد مترجم قد درسها دراسة عميقة، تخيلناه صباحًا صيفيًا رائعًا؛ طقس مشمس دافئ، فيما يسكنه جانبًا من التشويق والإثارة جراء ما يحدث، حيث كان ينام الملك جون في قاعة "دنكروفت"، وبطول شاطئ مدينة "ستينز" يسير رجال الجيش المسلحين ومن حولهم الخيول تتعالى صيحاتها ورماة الرمح يضفون مهابة على المشهد.

فيما تجتمع القوات، يشربون ويتناولون الطعام بنهم، وينشدون الأغنيات، ويقامرون ويتشاجرون عندما يحل المساء ويظلهم سواد الليل، ويتسلل أطفال البلدة من حولهم كي يراقبوهم في تعجب ودهشة؛ على عكس البقية الذين يشعرون بالتوتر ويحتقرون ما يحدث من حولهم فيقفون وراءهم مع ابتسامات مفتعلة على وجوههم في الحقول المحيطة، ومن ثم تلمع الأضواء الخافتة كي تتراءى لك المعسكرات البعيدة حيث يقبع بعض من أتباع اللورد العظيم مع وجود حارس في كل شارع مظلم. ويطول الليل حتى يتلاشى تمامًا، ويبدأ صباح يوم عظيم في هذا الوادي القديم معلنًا عن مصائر قد انتهت وأخرى قد بدأت، ويطلع الفجر برماديته التي تستقر في الجزء السفلي من الجزيرتين فوق المكان الذي نقف فيه، إذ تحدث هناك جلبة كبيرة بفعل صوت العديد من العمال، والنجارون مشغولون بتثبيت المقاعد، التي تم استحضارها من مدينة لندن بالعديد من المواد الملونة والحرير وأقمشة مطرزة من الذهب والفضة.

كان هؤلاء الرجال يتراصوان على الطريق الممتد على طول ضفة النهر من ناحية "ستينز" حتى البقعة التي نقف عليها، ومن ساعة إلى أخرى، كنا نسير على طول الطريق أمام مجموعات جديدة تنعكس على أنصال أسلحتهم آشعة الشمس التي تسطع في الصباح، حتى تنتهي في عينيك بنهاية المطاف، يبدو الطريق وعر وصلب وغير مستو تمامًا، وصياح الفرسان يعلو وهم يركضون مجموعة تلو الأخرى، مع رفرفة الأعلام الصغيرة بفعل نسيم الرياح الدافئ، ويحدث بين الحين والآخر أن يثير أحدهم ضجة كبيرة فتشقّ الصفوف على جانبيها، ثم يحضر بعض من كبار الحراس على أحصنتهم الحربية.

ويجتمع سكان المناطق الريفية الرائعة مع سكان المدن الفضوليين الذين جاءوا من "ستينز"، ولا يملك أي منهم معلومة أكيدة عما يحدث وعما جاءوا من أجله، لكل واحد منهم نسخة مختلفة عن رواية الحدث العظيم الذي أرادوا رؤيته؛ إذ يقول البعض إن الكثير من الخير سيعم بانقضاء هذا اليوم، بينما يهز الرجال المسنون رؤوسهم لأنهم سمعوا مثل هذه القصص من قبل.

وكل النهر بأكمله وصولاً إلى "ستينز" تنتشر به قوارب صغيرة ومراكب أصغر، والتي تتزاحم باستمرار وتستخدم فقط من قبل الفقراء، ويجاورون بعضهم البعض ويقتربون من المراكب الكبيرة المغطاة، حتى تلك التي تحمل الملك جون في طريقه إلى توقيع الميثاق المصيري العظيم.

وفي الظهيرة، كان الملك جون في وسط الجميع، يمتطي حصانه ويتوجه إلى حيث تقف البوارج على أهبة الاستعداد، بينما يخرج السادة النبلاء لمقابلته فيحييهم بابتسامة وضحكة وبعض الكلمات اللطيفة والمعسولة، كما لو كان مدعوًا لحفلة كاملة على شرفه. إذ يعلو صوت فارس من الفرسان حماية لتفاصل الخطة الخاصة بميثاق الحرية! ويرتجف قلب الملك جون أمام الوجوه الصارمة للمقاتلين ثم يقوم بإعطائهم الكلمة للتحرك، وفي حركة بطيئة راحت تلك البوارج الثقيلة ذات السطح اللامع تغادر شاطئ "رانجميد" حتى وصلت على ضفاف الجزيرة الصغيرة التي تحمل منذ هذا اليوم اسم جزيرة "ماجنا كارتا"، وقد نزل الملك جون على الشاطئ، ونحن ننتظر في صمت مهيب حتى يصيح صيحة كبيرة في الهواء معلنًا عن وضع حجر الأساس في معبد الحرية في إنجلترا على الرغم من كل المعوقات... الآن نعلم ذلك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل الثاني عشر

# تجربة الإبحار

بينما كنت جالسًا على ضفة النهر أستحضر هذا المشهد في عقلي، وإذا بجورج يلحظ شعوري بالاسترخاء الشديد وأنني في تلك الحالة ربما لن أمانع في تقديم يد العون في أمور الغسيل، وهكذا قد انتشلت من أيام الماضي المجيد إلى حاضرنا العادي، بتعاسته وخطاياه، وهنا انزلقت إلى القارب وشرعت أنظف المقلاة بعصا خشبية ومجموعة من الأعشاب، ثم قمت بتلميعها في النهاية بواسطة قميص جورج الذي لا زال رطبًا.

ذهبنا بعد ذلك إلى جزيرة "ماجنا كارتا"، وألقينا نظرة على الحجر القابع داخل الكوخ هناك، والذي يقال إن الميثاق العظيم قد تم توقيعه عليه، وفيما يتعلق بما إذا كان قد تم توقيعه هنا بالفعل أم على الضفة الأخرى من "رانجميد" كما يقول البعض، فأنا أرفض إلزام نفسي بأية حقيقة منهما، على الرغم من أنني أميل شخصيًا لنظرية الجزيرة الشعبية، بالتأكيد فإذا كنت واحدًا من السادة النبلاء في ذلك الوقت لكان ينبغي عليَّ أن أخطب ود شعبي بشدة.

كانت هناك أنقاض لدير قديم في أراضي "أنكرويك"، التي تعد قريبة من "بيكنك بوينت"، هذا الدير القديم الذي قيل إن الملك "هنري الثامن" كان ينتظر به حتى التقى "آن بولين"، كما اعتاد أن يقابلها أيضًا في قلعة "هيفر" في "كينت"، وكذلك في مكان ما بالقرب من "سانت ألبانز". لا بد أنه كان أمرًا عسيرًا على الناس في إنجلترا في تلك الأيام، فهل سبق لكم أن عشتم في منزل به زوجان متحابان من قبل؟ إنه لأمر شاق جدًا، إذ تفكر في الذهاب والجلوس في غرفة الطعام حتى يسبقاك إلى هناك، وعندما تفتح الباب عليهما تشعر بالحرج والتطفل المتواصل، وعندما تدخل تقف الفتاة عند النافذة شاردة في الجانب الآخر من الطريق، ويجلس صديقك في الطرف الآخر من الغرفة وتركيزه كله منصب على صور لأقاربهما لتمضية الوقت، فتقف عند الباب لتقول: "اعذراني، لم أكن أعرف أن أحدًا هنا".

فتردف الفتاة في برود ولهجة توحي بعدم تصديقها لك: "أوه، ألم تعلم أننا هنا؟" فتتسكع قليلاً في الأنحاء، ثم تقول:"إن الغرفة مظلمة للغاية، لماذا لا نضيء النور؟" فيجيبك صديقك بأنه لم يلحظ ذلك، وتقول الفتاة إن والدها لا يحب النور المضاء في فترة الظهيرة وما بعدها، فتقص عليهما خبرًا أو اثنين وتعرض عليهما وجهات نظرك وآراءك حول القضية الأيرلندية، ولكن لا يبدو أن هذا يثير اهتمامهما.

وبعد عشر دقائق من نمط المحادثة ذاته، تتجه نحو الباب وتخرج وتفاجأ به يغلق خلفك على الفور، وكأنه قد أغلق من تلقاء نفسه دون أن يلمسه أحد ويرمقانك طوال الوقت بنظرة تحثك على أن تتراجع فورًا، حتى تخشى أن تقحم أنفك في أي غرفة من غرف النزل في نهاية المطاف؛ وبعد التنقل سيرًا على الدرج صعودًا ونزولا، تذهب لتجلس في غرفة نومك الخاصة، لكنك تشعر بالملل بعد فترة وبالتالي تعتمر

قبعتك وتهرع إلى الحديقة، وبينما تسير في الطريق مارًا بالمنزل الذي يجذب نظرك إليه، تجد هذين الشابين الأبلهين وهما يقفان في زاوية منه يراقبانك ظنًا منهما أنك تتابعهما بسوء نية، وتتمتم في حنق عائدًا إلى القاعة وتمسك بمظلتك لتخرج بعيدًا.

كان الطريق من "بيكنك بوينت" حتى هويس "وندسور" القديم يعكس جانبًا رائعًا من النهر، طريق مظلل مزين بمنازل ريفية صغيرة هنا وهناك، التي تقودك بطول امتداد النهر وصولا إلى "أجراس أوزيلي"؛ ذلك النزل الرائع الذي يعد أحد أفضل الفنادق المطلة على النهر، ومكان مناسب للاسترخاء واحتساء الشراب كذلك يعتقد هاريس أيضًا، وفيما يخص أمور كتلك يمكنك الأخذ برأي هاريس وأنت مغمض العينين.

إن "وندسور" القديمة مكان شهير جدًا، وبعدما تجاوزناها صار النهر مملا إلى حد ما، ولم يعد كما كان تمامًا حتى اقتربنا من "بوفيني"، ولهذا جدفنا أنا وجورج بمحاذاة "هوم بارك"، التي تمتد على طول الضفة اليمنى من النهر حتى جسر "فيكتوريا"؛ وعندما مررنا عند "داتشت"، سألني جورج ما إذا كنت أذكر رحلتنا الأولى في النهر، وأنه عندما نزلنا لتونا في تمام الساعة العاشرة ليلاً آوينا إلى الفراش مباشرة، أجبته بأنني أذكر الأمر بتفاصيله، إذ إنه يلزمني بعض الوقت كي أنسى ذلك.

قد كان يوم السبت قبل عطلة شهر أغسطس، وكنا نشعر بالجوع والتعب نحن الثلاثة، وعندما وصلنا إلى "داتشيت" أخرجنا الحقائب والأغطية والمعاطف وكل ما شابه ذلك، ومررنا على فندق صغير جدًا مع شجيراته الزاحفة على الشرفة. ولسبب ما أو لآخر قد رفضت المكوث به، وقلت لهم دعونا نذهب إلى واحد أبعد قليلاً لا يحتوي على هذا القدر من الشجيرات.

لذلك تابعنا طريقنا حتى وصلنا إلى فندق آخر. كان فندقًا لطيفًا للغاية، وبعدما أخذنا جولة في الجوار، لم يستحسن هاريس نظرة الرجل الذي كان متكئًا على الباب الأمامي. فقد قال إنه لم يبد رجلاً لطيفًا على الإطلاق، وكان يرتدي حذاءًا قبيحًا، لذلك السبب تابعنا طريقنا مجددًا وذهبنا، لكننا لم نلق أية فنادق أخرى ثم التقينا رجلاً وطلبنا منه توجيهنا إلى أي منها فقال:" أنتم بعيدون عنها الآن، يجب أن تستديروا إلى اليمين وتذهبون في طريقكم مرة أخرى، وبعد ذلك سوف تبلغون فندق "زا ستاج".

فقلنا له : "لقد كنا هناك بالفعل ولم يحظ على إعجابنا، فإن الشجيرات تغطيه بشكل كامل، فقال: "حسنًا، إذًا، هنالك فندق "مانورهاوس" في الجهة المقابلة بالضبط، هل مررتم عليه؟".

فأجابه هاريس: "إننا لا نريد الذهاب إلى هناك؛ فلم تروق لي نظرة الرجل الذي كان يقف أمامه"، لم يعجب هاريس لون شعر الرجل ولا حذاءه على حد سواء.

فقال الرجل: "حسنًا، أنا لا أعرف ماذا يجب أن تفعلوا، أنا متأكد من ذلك لأنهما الفندقان الوحيدان في المكان".

فصاح هاريس: "ألا توجد فنادق أخرى!"

"لا، لا شيء على الإطلاق"

"ماذا سنفعل الآن؟!"

ثم أردف جورج وقال إنه يمكن لي أنا وهاريس أن نشيد فندقًا خاصًا لنا إذا أردنا ذلك، ومن ناحيته فإنه سيعود أدراجه إلى فندق "زا ستاج". تنهدنا أنا وهاريس في استسلام وتبعنا جورج، وحملنا حاجياتنا إلى الفندق ووضعناها في صالته، حتى جاء المالك وقال: "مساء الخير أيها السادة".

فقال جورج:" مساء الخير، نريد ثلاثة أسرة من فضلك".

فقال الرجل: "آسف جدًا يا سيدي، أخشى ألا نستطيع تدبير ذلك"

فقال جورج: "حسنًا، لا مانع، اجعلهما اثنين، فيمكن لاثنين منا النوم في سرير واحد، ألا نستطيع؟"، قالها وهو ينظر إلي أنا وهاريس، والذي أجابه: " نعم"، إذ كان يعتقد أنه يمكنني أنا وجورج النوم في سرير واحد.

ثم كرر المالك كلامه: "آسف جدًا يا سيدي، لكننا في الحقيقة لا نملك أي سرير شاغر في النزل بأكمله، ففي واقع الأمر نحن نضع رجلين وأحيانًا ثلاثة رجال في سرير واحد"، تسبب حديثه في دهشتنا على عكس هاريس باعتباره مسافرًا قديمًا معتادًا على أحوال كتلك، وضحك قائلا: "أوه، حسنًا، يجب أن نعالج الأزمة، يجب أن تعطينا مكانًا في غرفة البلياردو"، فقال له: "آسف جدًا يا سيدي، ثلاثة من السادة ينامون على طاولة البلياردو بالفعل، واثنان في غرفة القهوة. لا يمكننا استضافتكم أبدًا في هذه الليلة".

حملنا أمتعتنا، وذهبنا إلى "مانور هاوس"، لقد كان مكانًا صغيرًا للغاية، وقلت إنني ربما أحبه أكثر من النزل الآخر، وقال هاريس: "أوه، نعم، سيكون كل شيء على ما يرام". نحن لسنا بحاجة إلى النظر إلى الرجل ذي الشعر الأحمر، إلى جانب أن ذلك المسكين ليس باستطاعته عمل أي شيء حيال امتلاكه شعرًا أحمر، هكذا تحدث هاريس بلطف شديد وعقلانية حول تلك النقطة.

لم ينتظر الناس في "مانور هاوس"، واستقبلتنا المالكة على عتبة الباب بتحيتنا وبقولها إن هذه المرة الرابعة عشرة التي ترفض فيها نزلاء خلال الساعة ونصف الساعة الماضية، كما ضحكت على مقترحاتنا البريئة حول النوم في الإسطبلات، وغرفة البلياردو، أو أقبية الفحم وقالت إن كل تلك الأماكن قد امتلأت منذ فترة، فسألناها إن كانت تعرف أي مكان آخر في القرية بأكملها يمكنه أن يأوينا لليلة واحدة؟

فقالت إنه على الرغم من أنها لا تنصح به، فإن هناك مكانًا صغيرًا على بعد نصف ميل على طريق "إيتون". لم نتمكن من الانتظار كي نسمع المزيد، وحملنا السلة

والحقائب والمعاطف والسجاد، وأخذنا نركض، بدت المسافة أكثر من نصف ميل على عكس ما قالت لنا، لكننا سرنا حتى بلغنا المكان في النهاية، وهرعنا لاهثين نحو الحانة، كان الناس يتمتعون بفظاظة غريبة لدرجة أنهم ضحكوا علينا إزاء ما حدث، لم يكن هنالك سوى ثلاثة أسرة فقط في المكان كله، فيما كان يشغله سبعة رجال نبلاء واثنان من الأزواج نائمان هناك بالفعل. حتى اصطحبتنا سيدة عجوز لمسافة ربع ميل معها إلى صديقة لها قالت إنها تؤجر الغرف للسادة الزائرين في بعض الأحيان. كانت تلك المرأة العجوز تسير ببطء شديد حتى استغرقنا عشرين دقيقة للوصول إلى صديقتها، وظلت طوال الرحلة تصف لنا حجم الآلام التي لحقت بظهرها.

كان الكثير من غرف صديقتها تم تأجيرها بالفعل، ومن هنا فاخترنا الغرفة رقم 27، لكنها لم تكن شاغرة، فاخترنا الرقم 32 لكنها كانت ممتلئة هي الآخرى، الأمر الذي أجبرنا على العودة إلى الطريق السريع. وجلس هاريس على سلة الأمتعة وقال إنه لن يذهب أبعد من ذلك، وأنه كم يبدو مكانًا هادئًا! وأنه يود الموت كما هو، حتى إنه سألني أنا وجورج أن نقبل والدته من أجله وأن نخبر كل أقاربه أنه قد سامحهم ومات سعيدًا.

وفي تلك اللحظة مر علينا ملاك في هيئة صبي صغير- ولا يمكنني التفكير في تشبيه أكثر جمالا من هذا- جاء الصبي يحمل مشروبًا في يده، وفي يده الأخرى شيء مربوط بسلسلة يلقيه على كل شقة يمر عليها. فيما كان يصدر صوتًا غريبًا ومنفرًا يدل على شعوره بالمعاناة، لقد سألنا هذا الصبي عما إذا ما كان يعرف أي منزل شاغر لأجلنا، منزل يحوي عدد سكان قليلًا أو تعود ملكيته لسيدات عجائز أو بعض السادة الكبار الذين لا يهابون التخلي عن فراشهم طوال الليل لثلاثة رجال يائسين مثلنا؛ أو إذا ما كان يمكنه أن يوصي لنا بمكان مهجور أو أي شيء من هذا القبيل.

لم يكن يعرف أي مكان من هذا القبيل- أوعلى الأقل لا يعرف مكانًا متوفرًا في متناول الأيدي، لكنه قال إنه يمكننا المجيء معه، فإن والدته لديها غرفة لتأجيرها، ويمكننا أن نقضي الليلة هناك، سقطنا أمامه موافقين وشرعنا نباركه، وأصاب هاريس فرحة شديدة لدرجة أنه كاد أن يغشى عليه، واستولى على شراب الفتى قبل أن يتمكن من استعادة وعيه، ثم انطلق يهرول وتركني أنا وجورج نحمل الأمتعة.

كان المكان عبارة عن كوخ من أربع غرف صغيرة حيث يعيش الصبي، وتتمتع والدته بروح طيبة، قدمت لنا اللحم الساخن على العشاء، فتناولنا كل شيء، تناولنا حوالي خمسة أرطال منه، ثم تناولنا كعكة المربى بعد ذلك، واثنين من آنية الشاي إلى أن آوينا إلى الفراش. كان هناك سريران في الغرفة، نمت أنا وجورج في أحدهما ونام هاريس في سرير الفتى الذي أخذه كله لنفسه مقارنة بحجمه الصغير، حتى إننا وجدنا قدميه العاريتين في الصباح وهما يتدليان خارجه، واستخدمناهما أنا وجورج لتعليق المناشف أثناء الاستحمام.

لم نكن نمتلك آية آمال عظيمة حيال الفندق الذي سنسكن به، ولم نستطع تحديد ماهية ما آوانا حتى الآن.

وبالعودة إلى رحلتنا الحالية لم يحدث أي شيء مثير، جدفنا أنا وجورج حتى وصلنا إلى جزيرة "مانكي" (جزيرة القرد) حيث توقفنا لتناول الغداء، اتفقنا على تناول اللحم البارد ثم وجدنا أننا نسينا إحضار المستردة، ولا أعتقد أنني شعرت على الإطلاق بتلك الرغبة في حياتي لتناولها، شعرت أنني أردتها بشكل سيئ لم أشعر به من قبل، فأنا لا أهتم عادة بتناول المستردة، ونادرًا ما أسأل عنها، لكنني كنت على استعداد أن أفعل أي شيء كي يحضر لي أحدهم بعضًا منها. هكذا أصبح عندما أريد شيئًا ولا أستطيع الحصول عليه، وقال هاريس بدوره إنه على استعداد أن يدفع عمره مقابل المستردة كذلك، وكم إنها ستكون صدفة عظيمة إن مر أحدهم في هذا المكان حاملا علبة مستردة أو القليل منها.

وهنا أدركت كم العبثية التي نتبعها حينما نريد شيئًا، كم التضحيات التي نقدم عليها في لحظات الإثارة، فعندما يفكر المرء في ذلك يرى حجم الرغبة التي تتناسب عكسيًا مع قيمة الأمر المرغوب فيها. أذكر أنني سمعت رجلاً يصعد جبلًا في سويسرا ذات مرة وقال إنه على استعداد أن يدفع حياته لأجل احتساء شراب في تلك اللحظة، وعندما دلف إلى أحد الأكواخ الصغيرة حيث يمتلكون الشراب، قام بافتعال مشكلة بسبب دفعه أكثر من المعتاد بخمسة فرانك مقابل الزجاجة، وقال إنها لفضيحة لا يمكن السكوت عنها، وكتب إلى جريدة "التايمز" حول هذا الموضوع.

عمت الكآبة على القارب لعدم وجود مستردة، وأخذنا نتناول اللحم البقري الذي لدينا في صمت، فيما بدا لنا الوجود عبثيًا لا أهمية له، وشرعنا نفكر في أيام الطفولة السعيدة ونتنهد حسرة عليها. وعلى الرغم من ذلك ابتهجنا قليلا بعدما تناولنا كعكة التفاح، إذ مد جورج يده في السلة وأخرج بعض الفاكهة المجففة، التي احتوت على الأناناس أيضًا وشعرنا أن الحياة تستحق العيش على الرغم من كل شيء. نظرنا إلى الصورة الموضوعة على العلبة ثم نظرنا إلى بعضنا البعض في سعادة وابتسمنا، ثم أمسك هاريس بملعقته واستعد.

وبحثنا عن الفتاحة لفتح علبة الفاكهة، أخرجنا كل شيء من السلة، أفرغنا كل الحقائب حتى كدنا ننزع ألواح القارب الخشبية. أخرجنا كل شيء إلى ضفة النهر، لكننا لم نعثر على فتاحة العلب، ثم حاول هاريس فتح العلبة بسكين جيب صغير، لكنه قام بكسرها وجرح نفسه بشدة. وحاول جورج بفتحها بمقص لكنه طار من يده، وكاد أن يلامس عينه. وبينما جلسا يضمدان جراحهما، حاولت أن أصنع ثقبًا في العلبة بخطاف القارب، لكنه سقط مني في الوحل، فتدحرجت العلبة وكسرت فنجان الشاي.

جن جنوننا، لقد أخرجنا كل متعلقاتنا على ضفة النهر، حتى ذهب هاريس وحصل على حجر حاد كبير، وعاد إلى القارب وأخرج الصاري، وأمسك جورج بالعلبة ووضع هاريس نهاية الحجر وثبت الطرف الحاد منها على الجزء العلوي من العلبة

بينما أخذت الصاري ورفعته عاليًا في الهواء واستجمعت كل قوتي حتى هويت به فوقهما.

كانت قبعة جورج المصنوعة من القش هي التي أنقذت حياته في ذلك اليوم، إنه يحتفظ بهذه القبعة حتى الآن (أو ما تبقى منها)، وبعد ذلك ظللت أهوي عليها بالصاري حتى أصابني التعب والإنهاك، فأخذها هاريس في يده وطرقناها حتى صارت مسطحة ثم ضربناها مرة أخرى حتى أصبحت مربعة، حولناها إلى كل شكل معروف في علم الهندسة- لكننا لم نتمكن من إحداث أي ثقب فيها.

ثم انضم جورج إلينا وطرقها حتى اتخذت شكلا غريبًا جدًا، شكل غريب ومخيف لدرجة جعلته يلقي بالصاري من يده ثم جلسنا جميعًا على العشب نحملق بها، وبدا أنه كان هناك انحناء كبير على الجزء العلوي منها يأخذ شكل ابتسامة ساخرة وهو ما أثار غضبنا الشديد، واندفع هاريس نحو تلك العلبة القصديرية وألقى بها بعيدًا في منتصف النهر، وبينما هي تغرق كنا نلقي بلعناتنا عليها، ودخلنا القارب وجدفنا بعيدًا عن تلك البقعة، ولم نتوقف قط حتى وصلنا إلى "مايدنهيد".

"مايدنهيد" مدينة الفنادق المبهجة التي يسكنها بشكل رئيس الرجال والفتيات من راقصي الباليه، وإن دوق لندن له "مكانة الصغير" دائمًا فيها، وبطلة إحدى الروايات المؤلفة من ثلاثة أجزاء تتناول الطعام بشكل دائم هنا. تجولنا في المدينة سريعًا ثم سرنا ببطء أكثر وألقينا نظرة على بوابات "بولتر وكوكهام وكليفين وودزكان" وغاباتها التي لا زالت ترتدي ثوب الربيع النابض بالحياة، فيما تبدو المياه على وفاق مع ظلال الأشجار الخضراء، تسكنهما المحبة غير المنقطعة.

أوقفنا قاربنا الصغير بعيدًا ثم انطلقنا في المياه أسفل "كوكهام" مباشرة، وما إن تناولنا الشاي في الهويس مساءً حتى شعرنا برياح شديدة، وبطبيعة الحال على النهر فإن الرياح عادة ما تكون عكس الطريق الذي تسير فيه، ففي الصباح وعندما تبدأ رحلة ليوم واحد وتنطلق لمسافة طويلة وتفكر كم سيكون من السهل عليك العودة تحت شراع المركب، تنحرف الرياح عكس اتجاهك ويتعين عليك أن تجدف بقوة في طريق العودة إلى البيت.

وعندما تغفل عن ضبط شراع القارب، فإن الريح تسير عكس ما تشتهيه في كل الحالات، ولكن في تلك الحالة يبدو العالم كاختبار رهيب وما على الإنسان سوى أن يحاول اجتيازه. ومع ذلك، وفي هذا المساء، يبدو أنه هنالك خطأ ما قد ارتكب، ودارت الرياح كي تضربنا من ظهورنا بدلا من مواجهاتنا وجهًا لوجه، حافظنا على رباطة جأشنا وبدأنا في الإبحار بسرعة قبل أن تسبب لنا عائقًا أكبر، وشرعنا نفكر في حلول مدروسة كي نطبقها ففردنا الشراع وطار القارب يشق المياه كما كان.

توليت أمر قيادة الدفة، فلا يوجد إحساس يضاهي الإبحار إثارة ومتعة، إذ يبدو الأمر أقرب إلى الطيران بالأجنحة التي ينشدها المرء في أحلامه، وكأن الرياح تحملك معها نحو الأمام دون أن تعلم وجهتها بالتحديد، بل تصبح حركتك بطيئة، وخطواتك متثاقلة، وتزحف ملطخًا بالوحل مثلك مثل أي جزء من الطبيعة وتتولى هي المسألة برمتها، فيخفق قلبك لها وذراعاها تحتضناه حتى تصبحان كروح واحدة

تنير أطرافها بضوء وأمل، بينما يغني لك الهواء وتبدو الأرض بعيدة وضئيلة وتبدو الغيوم القريبة من رأسك مثل إخوة تفتح ذراعيك لهم. كان النهر بأكمله لنا، باستثناء قارب الصيد الذي لمحناه بعيدًا؛ إذ ظهر لنا في الأرجاء قارب صيد يقبع في منتصف مجرى النهر ويجلس عليه ثلاثة صيادين، فيما أبحرنا نحن ومررنا على الضفاف التي تزينها الأشجارفي صمت.

كنت أتولى القيادة

وعندما اقتربنا أكثر تمكننا من رؤية الرجال الثلاثة الذين يصطادون هناك، بدوا كبارًا في السن، ولهم مظهر وقور، كانوا يجلسون على ثلاثة مقاعد في القارب ويتابعون شباكهم باهتمام، فيما كانت آشعة الشمس الحمراء تلقي بأضوائها على الماء، التي تتلامس مع أشجار الغابات الشاهقة، وتظهر الغيوم بلون ذهبي مهيب، لقد كانت ساعة من السحر العميق والنشوة والأمل والشوق. فأوقفت الشراع الصغير في مواجهة السماء الأرجوانية القاتمة من حولنا، في ظلال قوس قزح التي تنبعث من ورائنا، وكنا نحن أشبه بفرسان بعض الأساطير القديمة نبحر في بحيرة في عالم غير معروف. لم نتتبع طريق الغروب، بل ذهبنا نحو هؤلاء الصيادين حيث هؤلاء الرجال المسنين الثلاثة، لم نكن نعرف ما حدث في البداية لأن الشراع كان يحجب المنظر، لكن ما إن اقتربنا إلى جوارهم حتى انتابتهم الحيرة والسخط.

قام هاريس بإنزال الشراع ثم رأينا ما حدث، إذ إننا اصطدمنا بهؤلاء الرجال الثلاثة وأسقطناهم من فوق مقاعدهم في الجزء السفلي من القارب، وكانوا يحاولون الخلاص من بعضهم البعض ببطء وتألم وأخذوا يلتقطون السمك من حولهم. وأثناء قيامهم باللعنات انهالوا علينا بالسباب واللعنات، ألقوا علينا كل لعنة وسباب عرفه العالم في تلك اللحظة! لعنوا حياتنا ومستقبلنا وكل علاقاتنا وأي شيء يتعلق بنا، حتى أخبرهم هاريس أنهم يجب أن يكونوا ممتنين لإضفاء القليل من الإثارة على وقتهم بدلا من المكوث للصيد طوال اليوم، وقال إنه أصيب بالصدمة وانتابه الحزن لسماعه رجال في مثل عمرهم وهم يخرجون عن المألوف هكذا، لكن كلامه لم يجدِ معهم نفعًا.

وقال جورج إنه سيتولى أمر القيادة بعد ذلك، لأن عقلا كعقلي لا ينبغي أن يتولى مسئولية توجيه القارب، وإنه من الأفضل أن أترك إنسانًا طبيعيًا يتولى مهمة قيادة القارب الآن، قبل أن أتسبب في غرق الجميع، وأخذ الدفة بالفعل، وقادنا إلى "مارلو" ([16])، وفيها تركنا القارب، وذهبنا لنقضي ليلتنا في فندق "التاج".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل الثالث عشر

# الاختفاء العجيب لهاريس وشطيرته

"مارلو" واحدة من أروع الأماكن المطلة على النهر التي أعرفها، إنها مدينة صغيرة تعج بالحياة على الرغم من أنها ليست على قدر كاف من الجمال، لكنها تحوي العديد من الأماكن التي يمكنك الاستمتاع بها.

رحنا نتذكر الوقت الذي كانت تمتلك فيه تلك المدينة تاريخًا قيمًا. يمكنك أخذ جولة جميلة في تلك البلد إذا قمت بركوب الزوارق واستمتعت بالمشي فيها بعد ذلك، في حين أن النهر نفسه دائمًا ما يكون في أفضل حالاته هنا.

وبالتوجه جنوبًا إلى "كوكهام" على طول المروج الخضراء ستصل إلى ما هو أجمل منها، تلك المروج والسياج الخشبية القديمة مع الممرات الضيقة الصغيرة والمتعرجة داخل الغابات، كم هي طيبة رائحة الصيف المشمس الدافئ.

ومن "مارلو" شمالا نحو "سوننج" ستحظى بالمتعة ذاتها، إذ تحتوي على "كنيسة بيشام" ذات الأسوار الحجرية، التي تمتد على طول الضفة اليمنى لحوالي نصف ميل فقط بعد جسر "مارلو"، كما يوجد بها غرفة سرية مخبأة داخل الجدران السميكة يقال إنه يختبئ فيها شبح السيدة التي ضربت ولدها الصغير حتى الموت، وإنها تسير هناك ليلًا وتغسل يديها في الحوض المخيف الخاص بها. وقبل أن تبلغ قدميك ذلك الدير على ضفة النهر مباشرة تقع عيناك على المقابر الأثرية التي تستحق المشاهدة.

ومن خلال سياج "هورلي" ولأعلى قليلاً قد فكرت كثيرًا في استطاعتي البقاء لمدة شهر دون أن أحتاج للشرب لجمال المشهد، تقع قرية "هورلي" على بعد خمس دقائق سيرًا على الأقدام من الهويس، في بقعة صغيرة قديمة على النهر والتي يرجع تاريخها لتلك الأيام من زمن الملك "سيبرت". وإن سرت لأبعد من ذلك ستجد ما تبقى من دير "ميدمنهام" حيث رهبان ميدمنهام المشهورون كما كان يطلق عليهم، والذين كانوا يتبعون نظامًا صارمًا للحياة، نظام مختلف إلى حد ما عن كل الذين كانوا يتبعونهم بعد خمسمائة عام من زمنهم.

لم يكن هؤلاء الرهبان الذين مكثوا في الدير في القرن الثالث عشر يرتدون شيئًا سوى الملابس الخشنة مع القلنسوات، ولم يقربوا أي لحم ولا سمك ولا بيض، ويقضون ليلتهم على القش ويقيمون القداس في منتصف الليل، وينغمسون في القراءة والصلاة طوال الوقت، وعلى مدى حياتهم كانوا يفضلون الصمت بينما كانت أصوات الطبيعة مسموعة في كل مكان من حولهم؛ هدير المياه، وهمسات عشب النهر، وموسيقى الرياح المتساقطة.

ومن سد "ميمينهام" إلى سد "هامبيلدون" كان النهر يتسم بالجمال الهادئ، حيث المساكن ذات الإطلالة اللطيفة خلال فصل الصيف.

استيقظنا في وقت مبكر من صباح يوم الاثنين في "مارلو"، وذهبنا للاستحمام قبل الإفطار؛ وفي طريق العودة خلق مونترينسي من نفسه أحمق كبيرًا، إن الموضوع الوحيد الذي أختلف فيه مع مونترينسي هو القطط، أنا أحب القطط؛ بينما يكرهها هو، وعندما أرى واحدة أتوقف لأداعبها وأدغدغها بجانب رأسها، فترفع القطة ذيلها وتثبت ظهرها وتدلك أنفها في سروالي بلطف ووداعة. أما مونترينسي، فإذا قابل قطة في الشارع فسوف يعرف الشارع كله عن هذا، وسيكون هناك ما يكفي من الأصوات المزعجة في ظرف عشر ثوان من لقائهما. أنا لا ألوم الكلب بصفة عامة لأني أعتبر تلك هي طبيعته، فكأنه ولد وبه حوالي أربعة أضعاف الغريزة التي توجد في الكلاب الأخرى، وسيستغرق الأمر سنوات وسنوات من الجهد والصبر من جانبنا لتحقيق أي إصلاح ملموس في طبيعته.

ذات مرة كنت فيه في بهو أحد المتاجر الكبيرة، وكان هناك العديد من الكلاب من حولي، كانت في انتظارعودة أصحابها الذين كانوا يتسوقون في المتجر، كانت هناك أنواع كثيرة منها من نوع "كوليس"، و"سانت برنار" و"نيوفاوندلاندز"، وكذلك كلاب الصيد التي تملك الكثير من الشعر حول رأسها، وعدد قليل من الحيوانات التي تبدو في حجم الفئران، واثنان من نوع "يوركشاير"، كانت تجلس جميعًا في صبر وهدوء ووداعة، ثم دخلت سيدة شابة جميلة تمسك كلبًا صغيرًا وديعًا من السلسلة التي تحتضن رقبته، وتركته مع الكلاب الأخرى، فجلس ينظر لمدة دقيقة ثم رفع عينيه إلى السقف ثم تثاءب وجال ببصره في بقية الكلاب في صمت مهيب.

نظر إلى "البولدوج" الذي كان نائمًا على يمينه، ونظر إلى "البودل" الذي كان يقف على يساره في غرور وغطرسة، وبعد ذلك ودون سابق إنذار أو أي داع للاستفزاز، قام بعض قدم الكلب "البودل" القريبة منه فانطلقت صرخاته المتألمة لتكسر هدوء المكان، كان الأمر مرضيًا للغاية بالنسبة له، وعقد العزم على المضي قدمًا فيما يفعله، انطلق يقفز فوق "البودل" ودارت معركة شرسة وصاخبة بينهما، ثم عاد الكلب إلى مكانه وأمسك بالكلب "البولدوج" من أذنيه وحاول إلقاءه بعيدًا؛ حتى جعله يثور ويهاجم كل ما يمكنه الوصول إليه بما في ذلك حارس البوابة، الذي أعطى هذا الكلب الصغير فرصة للاستمتاع بصراع متواصل مع كلب "اليوركشاير"، الذي كان على القدر نفسه من الاستعداد ليهاجمه بدوره.

وأي شخص يعرف طبيعة الكلاب سيدرك أنه بحلول الوقت بدأت كل الكلاب الأخرى الموجودة في المكان تتقاتل كما لو أن ساكنها يعتمد على تلك المعركة، بدأت الكلاب الكبيرة تهاجم بعضها البعض بشكل عشوائي مثلها مثل الكلاب الصغيرة، التي قامت بملء وقت فراغها عن طريق عض سيقانها. صار بهو المتجر عبارة عن ساحة يسودها الهرج والمرج حتى تجمع حشد في الخارج يتساءلون عما حدث ومن الذي قتل، وجاء الرجال معهم أعمدة وأطواق وحاولوا فصل الكلاب، وفي وسط هذه الأعمال عادت تلك الشابة الجميلة وأخذت كلبها الصغير اللطيف وقبلته وراحت تسأله عما إذا كان قد جرحه أحدهم، وما الذي فعلته

به تلك الكلاب البغيضة؛ وكان يحدق في وجهها وكأنه يقول: "أوه، أنا سعيد للغاية لأنك جئت لأخذي بعيدًا عن هذا المشهد المشين!".

هذه هي طبيعة كلاب "الفوكس"، وبالتالي فأنا لا ألوم مونتمورينسي لتصرفاته مع القطط، فإنه هو نفسه تمنى لو لم يتصرف هكذا في ذلك الصباح، إذ كنا وكما قلت عائدين من الاستحمام وفي منتصف الطريق إلى الشارع خرجت علينا قطة من أحد المنازل، وبدأت تهرول عبر الطريق فأطلق مونتمورينسي صرخة فرحة كصيحة محارب قد رأى عدوه أمام عينيه، وطار خلف فريسته. كانت ضحيته قطة سوداء كبيرة، لم أر أكبر ولا أقبح منها قط، كانت قد فقدت نصف ذيلها وإحدى أذنيها وجزءًا كبيرًا إلى حد ما من أنفها، وكانت طويلة يبدو عليها الهدوء.

هرع مونترينسي نحو تلك القطة المسكينة بمعدل عشرين ميلا في الساعة، لكن القطة لم تتعجل بالهرب وكأنها لم تستوعب فكرة أن حياتها باتت في خطر، كانت تتحرك بهدوء حتى أصبحت على بعد ياردة من الكلب ثم استدارت وجلست في منتصف الطريق ونظرت إلى مونترينسي وكان تعبير وجهها كمن يقول له: "نعم! هل تريدني؟".

ولم يكن مونترينسي يفتقر للشجاعة قط، ولكن هناك شيئًا بدر من تلك القطة تسبب في تجلط الدماء في قلب ذلك الكلب، إذ إنه توقف فجأة ونظر إلى الوراء، لم يكن هنالك حديث بينهما، لكن يمكن للمرء أن يتخيله بوضوح، وكأن القطة تقول:"هل يمكنني فعل أي شيء من أجلك؟".

فيجيبها مونترينسي: "لا لا، شكرًا".

القطة: "لا تتردد في الحديث إذا كنت حقًا تريد أي شيء، كما تعرف"

فيقول مونترينسي وهو عائد إلى الخلف: "أوه، لا على الإطلاق، لا مشكلة لدي، بل أخشى أن أكون قد ارتكبت خطأ، ظننت أنني أعرفك، آسف جدًا لإزعاجك".

القطة: "لا داعي لذلك على الإطلاق، هل أنت متأكد أنك لا تريد أي شيء الآن؟"

مونترينسي: "لا أبدًا، أشكرك، صباحك خير"

القطة: "صباح الخير"

ثم انطلقت وواصلت سيرها، وعاد إلينا مونترينسي خجلًا وحتى يومنا هذا إذا قلت كلمة "قطة!" أمامه فسوف ينكمش وينظر إليك باستعطاف، كما لو أن لسان حاله يقول: "من فضلك لا تفعل ذلك".

ذهبنا للتسوق بعد الإفطار لشراء لوازم القارب كي تكفينا مدة ثلاثة أيام، قال جورج إنه يجب علينا تناول الخضروات لأن إهمال تناولها أمر غير صحي، كما أنها سهلة بما يكفي للطهي على حد قوله، وبناء عليه قمنا بشراء عشرة أرطال من البطاطس والبازلاء، كما اشترينا بعض اللحم، والعنب والفواكه والكعك والخبز والزبدة والمربى والبيض، وأشياء أخرى.

كانت جولتنا في "مارلو" أحد أعظم نجاحاتنا في تلك الرحلة، ودون تباهي كبير لكن الأمر كان مثيرًا للإعجاب؛ إذ توقفنا أمام جميع المحلات التجارية التي كنا نمر عليها ونحزم الأشياء معنا بعد ذلك أو نترك تلك المهمة للبائع الذي يرسل صبيه قائلا: "سيكون الصبي هناك قبل أن تصلوا يا سيدي! ظللنا هكذا حتى امتلأت السلال معنا واصطحبنا الصبي كي يساعدنا في حملها. ذهبنا إلى عدد كبير من المتاجر واعتمدنا المبدأ ذاته في كل متجر، وبحلول الوقت كانت النتيجة التي انتهينا إليها أنه كان بصحبتنا مجموعة من الأولاد مع السلال الممتلئة التي تتبعنا في كل مكان، وهكذا كانت مسيرتنا من وسط المدينة حتى النهر، وكأنها مظاهرة كبيرة لم تشهد "مارلو" مثلها منذ وقت طويل.

وكان ترتيب الموكب كما يلي:

مونتورينسي يحمل عصا، مع كلبين لهما مظهر مثير للاشمئزاز من أصدقائه، وجورج يحمل المعاطف والأغطية ويدخن غليونًا قصيرًا، وهاريس يحاول المشي بسلاسة بينما يحمل حقيبة جلدية منتفخة في يد واحدة وزجاجة من عصير الليمون في يده الأخرى، ثم صبي البقال وصبي الخباز يحملان السلال، وخلفهما صبي الفكهاني يحمل سلة الفاكهة، وأنا أحمل ثلاث قبعات وزوجًا من الأحذية ذات الرقبة، وأحاول أن أتظاهر بأنني لا أعي حجم ما أحمله، ثم ستة أولاد صغار وأربعة كلاب ضالة. عندما وصلنا إلى المرسى قال لنا الحارس: "دعني أرى يا سيدي، هل لكم قارب هنا أم سفينة بخارية؟"، وعندما أخبرناه أننا نملك قاربًا صغيرًا، له مجدافان لا أكثر، بدت عليه علامات المفاجأة.

واجهنا الكثير من المتاعب مع السفن البخارية في صباح ذلك اليوم، إذ كان اليوم الذي يسبق أسبوع "هينلي" مباشرة، كان هناك الكثير من القوارب البخارية حينها، ومنها ما كان يقطر قاربًا إضافيًا. إنني أكره تلك القوارب وأظن أن كل رجل يجدف بها يكرهها مثلي، وكلما رأيت واحدًا منها شعرت أنني أود جذبه إلى جزء هادئ من النهر كي أقوم بتحطيمه، فهي تطلق ضجيجًا يثير كل غريزة شر في طبيعتي، فإن صافرتها تكفي كعذر لاجتناب الأسلوب السلمي من تلقاء نفسك وارتكاب جريمة توقفك أمام هيئة محلفين من محكمة النهر بحكم "القتل العمد". وقد كانت تلك القوارب تصفر لنا بالفعل للخروج من طريقها، ويمكنني أن أقول بصراحة إن قاربنا الصغير قد تسبب لها في الكثير من الإزعاج والتعطيل عما تفعله في النهر، فما كان يظهر واحد منها في طريقنا إلا ويصيح أحدنا معلنًا عن قدوم العدو وفي لحظة يصبح كل شيء على استعداد لملاقاته، إذ كنت أمسك بالدفة، وجورج وهاريس يجلسان بجانبي، ونولي ظهورنا للقارب البخاري ويشق قاربنا طريقه في هدوء في منتصف النهر، وعندما يأتي القارب يطلق صفيره وبعد حوالي مائة ياردة يعيد الصفير مجددًا مثل المجنون، وكان ركابه يميلون على جوانبه ويصيحون بنا لكننا لم نسمعهم. كان هاريس يقص علينا حكاية عن والدته، ولم نفقد أنا وجورج انتباهنا قط لدى كل تفصيلة، وعندها أطلق هذا القارب البخاري صيحة أخيرة كادت تتسبب في انفجاره، حتى انحرف عن مساره وصار يتأرجح حتى اندفع كل من

كانوا على متنه وهم يصيحون قرب ضفة النهر، وتنضم إليه جميع القوارب الأخرى حتى تحول النهر كله لمسافة أميال إلى حالة من الهياج.

مما أجبر هاريس على قطع حديثه في الجزء الأكثر إثارة من الرواية، ونظر إلينا في دهشة وهو يقول لجورج: "يا جورج، أنجدنا يا الله، قارب بخاري!".

فيجيبه جورج: "لقد سمعت شيئًا ما!". وبناء عليه شعرنا بالتوتر والارتباك وبتنا عاجزين عن إخراج القارب من الطريق، فتجمع الناس وبدأوا يصيحون بنا من جديد في محاولة لتوجيهنا: "اسحب مجدافك الأيمن، أنت أيها الأحمق! عد إلى اليسار، لا، ليس أنت، بل الآخر، اترك الدفة بمفردها، هيا الآن، افعلوها كلكم معًا، لا ليس بهذه الطريقة، أوه، إنك...!".

ثم قاموا بإنزال قارب لتقديم يد العون لنا، وبعد ربع ساعة من الجهد لإخراجنا بعيدًا عنهم حتى يتمكنوا من مواصلة طريقهم، شكرناهم شكرًا جزيلا وطلبنا منهم أن يجرونا معهم، لكنهم لم يفعلوا ورفضوا بشدة. طريقة جديدة تلك التي اكتشفناها لإثارة غضب ذلك النوع الأرستقراطي من أصحاب القوارب البخارية، مثلها مثل أن تقابلهم في مناسبة ما وتطلب منهم أن يناولوك شيئًا فيغتاظون جدًا، كما أن السيدات العجائز التي لم تعتد على النهر يشعرن دائمًا بالقلق الشديد من صافرات القوارب البخارية.

أذكر مرة كنت ذاهبًا فيها من "ستينز" إلى "وندسور" فيما كانت المياه غنية بهذه الوحوش الميكانيكية، وكان هنالك حفل مقام بإحداها ويحتوي على ثلاث سيدات من الوصف الذي تحدثت عنه، كان الأمر مثيرًا للغاية، وكن يتفاجأن مع كل قارب بخاري يظهر في الأرجاء حتى أصررن على الابتعاد عن الأنظار بالجلوس قربًا من الضفة بالأسفل مع أسفهم الشديد، وأنهن يفعلن ذلك إرضاء لأهلهن الذين لن يتقبلوا تلك الحماقات.

اكتشفنا حاجتنا للماء بعدما بلغنا سد "هامبلدون"؛ لذلك أخذنا الجرة وصعدنا إلى منزل حارس الهويس كي نتوسل إليه ليعطه إلينا، كان جورج المتحدث باسمنا. حيث تصنع ابتسامة للرجل وقال: "من فضلك، هل تستطيع أن تعطينا القليل من الماء؟".

فأجابه الرجل العجوز: "بالتأكيد، خذ ما تريد واترك الباقي"

غمغم جورج: "شكرًا جزيلاً لك"

وأخذ يبحث وهو يسأله: "أين تحتفظ بها؟"

فرد عليه بثقة: "إنها دائمًا في المكان نفسه يا ولدي"

فقال جورج مستديرًا خلفه: "لا أراها"

علق الرجل: "لماذا، أين عيناك؟" وأمسك بجورج وهو يشير للنهر: "هناك قدر كاف لرؤيته أليس كذلك؟".

فقال له بعدما فهم مقصده: "لا يمكننا الشرب من النهر! أنت تعلم ذلك!"

فأجابه العجوز: "لا، لكن يمكنك أن تشرب بعضًا منه، إنه الشيء الوحيد الذي شربت منه طوال الخمس عشرة سنة الماضية".. أخبره جورج أن مقترحه غير جيد بما فيه الكفاية، وأنه يفضل المياه المعبأة في زجاجات نظيفة.

ثم حصلنا على المياه من كوخ بمكان أبعد قليلا، ولقد راهنتهما على أنها من مياه النهر أيضًا، لكننا لم نستطع تبين الأمر، وشربناها وكأن ما لا تراه العين لا تتزعج له المعدة أبدًا. كان هاريس لا يواجه مشكلة في مسألة شرب ماء النهر؛ إذ قال إنه إذا غليناها سيصبح كل شيء على ما يرام، متعللا بأن الجراثيم السامة الموجودة في الماء سوف تموت بفعل الغليان، وبناء عليه ملأنا الغلاية بمياه نهر التايمز وقمنا بغليها، وكنا حريصين للغاية على مراقبتها وهي تغلي، حتى صنعنا الشاي وجلسنا في استرخاء شديد لشربه، إلى أن توقف جورج والكوب بين شفتيه يسأل: "ما هذا؟".

فسأله هاريس: "ماذا تقصد بما هذا؟"

وتتبعنا أنا وهاريس مرمى بصره ورأينا كلبًا قادمًا نحونا، لقد كان واحدًا من أهدأ الكلاب التي رأيتها في حياتي، لم أقابل قط كلبًا يبدو مسالمًا كهذا، كان يطفو على ظهره بهدوء وأقدامه الأربعة معلقة في الهواء حتى شق طريقه نحو قاربنا واستقر بشكل مريح، وهنا قال جورج إنه لا يريد أي شاي وأفرغ كوبه في الماء، كما قال هاريس إنه لم يعد يشعر بالعطش وتبعته أنا أيضًا. كنت قد احتسيت نصف كوبي بالفعل لكنني تمنيت لو أنني لم أفعل ذلك، وسألت جورج عما إذا كان يعتقد أنه من المحتمل أن أصاب بالتيفود، فقال: "لا"، وعلى أية حال يمكنني أن أعرف في خلال أسبوعين سواء كان لدي أو لم يكن.

ذهبنا إلى بلدة "وارجريف"، وتعتبر طريقًا مختصرًا يقودك من الضفة اليمنى لحوالي نصف ميل فوق سد "مارش"، وهو طريق يستحق أن تسير فيه، كونه قطعة صغيرة خلابة من النهر إلى جانب اختصار ما يقرب من نصف ميل من المسافة. كان مدخله بالطبع موصد بالسلاسل وتحيط به لوحات الإرشادات والتهديد بجميع أنواع التعذيب والسجن والموت لكل من يجرؤ على دخول مياهه، لكن تلك السلاسل تحتاج القليل من المهارة لتجاوزها بسهولة، وإن لم يكن هنالك أحد في الجوار فلا عليك سوى أن تحمل واحدة أو اثنتين وتلقي بها في النهر.

جلسنا في بقعة على بعد حوالي عشر ياردات من حافة النهر، وجلسنا مرتاحين لتونا كي نأكل، وكان هاريس يضع شطيرة اللحم بين ركبتيه ليقوم بتقطيعها، فيما ننتظر أنا وجورج ممسكين بأطباقنا، قال هاريس: "هل لديكم ملعقة هناك؟ إنني أحتاج واحدة كي أقطع بسهولة"، كانت سلة الطعام خلفنا مباشرة فنظرنا أنا وجورج للخلف كي نخرجها منها، ولم يستغرق الأمر أكثر من خمس ثوان، ولكن عندما التفتنا مرة أخرى كان هاريس والشطيرة قد اختفيا تمامًا، كان المكان الذي نجلس فيه واسعًا ومفتوحًا، ولم يكن هناك شجرة أو سياج لمسافة مئات الياردات، كما أنه

لا يمكن أن يكون قد وقع في النهر، لأننا كنا نجلس إزائه، وكي يسقط كان عليه أن يتخطانا ليفعل، أمعننا النظر في كل مكان أنا وجورج ثم نظرنا إلى بعضنا البعض.

حتى سألني جورج: "هل خطف إلى الجنة؟ لكن إن كان هذا ما حدث فلا يمكن أن تختفي الشطيرة أيضًا، بدت نظرية معقولة وقال: "أعتقد أنه قد حدث زلزال"، وأضاف بلمسة من الحزن في صوته: "كنت أتمنى ألا يأخذ الكعكة معه".

تجولنا ببصرنا مرة أخرى مع تنهيدة نحو المكان الذي كان يجلس فيه هاريس، وأخيرًا ظهرت الشطيرة على الأرض فتجمدت دماؤنا في أوردتنا، خصوصًا عندما رأينا رأس هاريس، رأسه فقط وهي تستقيم بين العشب الطويل ووجهه أحمر يحمل تعبيرًا بالسخط الكبير، تعافى جورج من الصدمة فصاح: "تحدث! وأخبرنا ما إذا كنت حيًا أو ميتًا وأين بقيتك؟".

فردت عليه رأس هاريس: "لا تكن أحمق، أعلم أنكما فعلتما ذلك عن قصد"، فصحنا أنا وجورج: "فعلنا ماذا؟".

رد علينا: "لماذا جعلتموني أجلس هنا، يا لها من خدعة سخيفة، أمسكا الشطيرة"

وكما اتضح لنا الأمر فقد جلس هاريس على بقعة مياه مغطاة بالأعشاب الطويلة التي تخفي ما تحتها دون أن يعرف ذلك، وعلق هاريس قائلًا إنه لم يشعر بالدهشة قط في حياته كلها كما شعر بها في ذلك الحين، فقد حدث ما حدث دون أن يكون قادرًا على تخمينه، حتى اعتقد في البداية أنها نهاية العالم، وها هو يعتقد حتى يومنا هذا أنني أنا وجورج من خططنا مسبقًا لكل هذا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل الرابع عشر

# جورج وآلة البانجو([17])

استنشقنا نسائم الهواء العليلة بعدما تناولنا الغداء، حتى حملتنا بعيدًا عن "وارجريف" و"شيبلاك"، تلك المدينة التي تبدو كلوحة قديمة وجميلة عندما تغرق في آشعة الشمس بعد ظهر أحد أيام الصيف حيث انحناءة النهر...

إن "شيبلاك" مكان جميل ولكن لا يمكن رؤيتها من النهر لموقعها خلف التل، ويمتد النهر منها إلى "سونينج" مارًا بالعديد من الجزر، كما أنه هادئ للغاية ومنعزل نوعًا ما. خرجنا في "سونينج"، وذهبنا في جولة في أنحاء القرية التي تعتبر مكانًا أبعد قليلا عن النهر كله، وهي مبنية من الطوب وكل منزل فيها محاط بالورود، والآن في أوائل يونيو إذا توقفت في "سوننج" فعليك بالذهاب خلف الكنيسة وستجد صورة حقيقية لنزل البلدة القديم مع العشب الذي يملأ الفناء والمقاعد تحت الأشجار، والرجال المسنين الذين يتجمعون في الأمسيات للثرثرة عن سياسة القرية ؛ مع غرف غريبة وجذابة والنوافذ المختلفة والسلاسم والأزقة المتعرجة.

تجولنا في "سوننج" البديعة لمدة ساعة أو نحو ذلك، ومن ثم قررنا العودة إلى إحدى جزر "شيبلاك" والمكوث هناك لليلة، لكن الوقت كان باكرًا كفاية عندما استقررنا على ذلك، وقال جورج إننا ما زلنا نملك الكثير من الوقت وإنها ستكون فرصة رائعة لمحاولة تناول وجبة عشاء جيدة، وأوضح لنا ما الذي يمكن القيام به لتطهو بشكل مناسب في النهر، فاقترح أنه وبالإضافة إلى الخضار وبقايا اللحم البارد والأشياء الأخرى يجب علينا أن نصنع الحساء الأيرلندي، وقد بدت فكرة رائعة، فقام جورج بجمع الحطب وأشعل النيران، وبدأت أنا وهاريس بتقشير البطاطس، ولم أكن على دراية أن أمر التقشير شاق هكذا.

إذ صارت المهمة هي الأكبر من نوعها، لقد شرعنا فيها بروح مرحة تلاشت مع الانتهاء من تقشير الحبة الأولى، وكلما انتهينا من واحدة شعرنا بأعيننا تكاد تخرج من مكانها، حتى انتهينا منها جميعا، وجاء جورج ليلقى نظرة عليها وقد كانت في حجم حبة البازلاء، فقال: "أوه، هذا لن ينفع، أنتما تهدرانها، علينا أن نقوم بكشطها فقط"، وقمنا بذلك بالفعل وهو ما كان عملًا أكثر صعوبة من التقشير، وخرجت من تحت أيدينا بأشكال غريبة ومتعرجة ومجوفة، لقد عكفنا عليها بثبات لمدة خمس وعشرين دقيقة وانتهينا من أربع منها فقط، لم أعهد شيئًا مثل تقشير البطاطس يجعل المرء في تلك الحالة، إذ بدا من الصعب تصديق أن البطاطس التي عملنا عليها لم تكن سوى أربع حبات فقط. قال جورج إنه من العبث وجود أربع حبات بطاطس فقط في الحساء الأيرلندي ولقد غسلنا نصف دزينة أو أكثر ولا يمكن أن نضعها دون تقشير، كما أننا وضعنا الكرنب والبازلاء بالفعل، ولا زال يوجد متسع كبير لإضافة المكونات، فقمنا بإحضار سلة الطعام وأفرغنا ما بها في ذلك الحساء، كان

هناك نصف فطيرة لحم ونصف علبة من سمك السلمون المحفوظ بوعاء أفرغنا ما به أيضًا.

وقال جورج إن تلك هي ميزة الحساء الأيرلندي، إذ تمكنا من التخلص من مثل هذا القدر الكبيرمن الأشياء، حتى إنني قمت بكسر زوجين من البيض في الحساء بعدما أفاد جورج أنهما سيزيدان من سماكة المرق أو تسبيكه. لقد نسيت ما وضعنا من المكونات الأخرى، لكنني أعلم أنه لم يكن هناك ما غفلنا عنه.

كانت تجربة "اليخنة الأيرلندية"([18]) ناجحة جدًا، لا أعتقد أنني استمتعت في حياتي مثلما استمتعت بتناولها، كان بها شيء جديد ورائع بعدما سئمت أفواهنا الأكلات القديمة بالفعل، وها هنا طبق له نكهة لذيذة لا تشبه أي شيء آخر على وجه الأرض، وكانت مشبعة أيضًا، وكما قال جورج إنه لو كانت هناك أشياء مطهوة بعناية في الحساء لأضفت ما هو أجمل من ذلك المذاق ربما البازلاء أو البطاطا. أما بالنسبة للمرق فقد كانت دسمة غنية جدًا ربما لا تصلح لمعدة ضعيفة لكنها مغذية ومشبعة، انتهينا من العشاء واختتمناه بتورتة الكرز مع الشاي.

فيما أقام مونتمورينسي قتالا عنيفًا مع غلاية الشاي، تسبب في إصابته؛ فقد كان يراقبها بفضول طوال الرحلة، كان يجلس ويشاهدها وهي تغلي ويبدو في حيرة من أمره، ويثار بين الحين والآخر فينبح عليها، وعندما يتصاعد منها البخار يعتبره تحديًا ويرغب في مهاجمتها، ولكن في تلك اللحظة بالتحديد كان دائمًا ما يتدخل أحدنا ليمنعه من الانقضاض على فريسته، لكنه أصر اليوم على أن يحرز تقدمًا. ومع إصدارها للصافرة الأولى نهض وتقدّم نحوها في غضب ووعيد. وعلى الرغم من أنها ليست سوى غلاية صغيرة، لكنها كانت مليئة بالجسارة، فبصقت في وجهه ما إن اقترب منها.

فنبح بها مونترينسي كاشفًا عن أنيابه وكأنه يقول: "سوف أعلمك كيف تعبثين مع كلب محترم مثلي أيتها البائسة ذات الأنف الطويل، تعالي إلي".. وهرع إلى تلك الغلاية الصغيرة المسكينة وحاول الاستيلاء عليها ثم كسرت صرخته سكون المساء فجأة، صرخة غادر القارب على إثرها وأخذ يلف ثلاث مرات حول الجزيرة بمعدل خمسة وثلاثين ميلًا في الساعة متوقفًا بين الحين والآخر لدفن أنفه في القليل من الوحل البارد. ومنذ ذلك اليوم ينظر مونترينسي إلى الغلاية بمزيج من الرهبة والشك والكراهية، وما إن يراها حتى ينبح ويفر سريعًا ممسكا بذيله، وفي اللحظة التي توضع فيها على الموقد يهرب من القارب على الفور، ويجلس على الشاطئ حتى يكون عمل الشاي كله قد انتهى.

بعد العشاء أخرج جورج آلة البانجو وأراد أن يعزف عليها، لكن هاريس اعترض طريقه متعللا بأنه مصاب بصداع ولا يشعر بالقوة الكافية لاحتمال سماعه، بينما اعتقد جورج أن الموسيقى ربما تضعه في مزاج جيد؛ إذ إنها وفي كثير من الأحيان تعمل على تهدئة الأعصاب وعلاج الصداع. وقام بعزف مقطوعتين أو ثلاث لإثبات صحة كلامه لهاريس، لكن هاريس قال إنه يفضل الإصابة بالصداع. ولم يتعلم جورج عزف البانجو حتى يومنا هذا إذ قوبلت محاولاته بالكثير من الإحباط

في كل مرة، فقد حاول على مدى أمسيتين أو ثلاث بينما كنا في النهر أن يعزف قليلا، لكن تجربته لم تكلل بالنجاح قط، كما كانت لهجة هاريس كافية لتدعيم فشله، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان مونتمورينسي يجلس ويعوي كلما حاول جورج الشروع في العزف، فلم يحصل الرجل على فرصة سانحة لذلك.

وكان جورج يصرخ فيه بسخط مع إلقائه بالحذاء: "ماذا يريد هذا الكلب بعوائه كلما حاولت أن أعزف؟"، فيدفع هاريس الحذاء عن الكلب ويقول له: "بل ماذا تريد أنت بعزفك أثناء عوائه؟ دعه وشأنه، إن لديه أذنًا موسيقية، وعزفك يثير غضبه فينبح". ومن هنا قرر جورج تأجيل تعلم عزف البانجو لحين العودة، لكنه لم يحصل على الكثير من الفرص هنالك، إذ استمرت السيدة "بوبيت" في الصعود كي تقول له إنها آسفة للغاية وإنها تود سماعه ولكن السيدة في الطابق العلوي في حالة صحية سيئة وطبيبها يخشى أن يصيب عزف جورج طفلها. ثم حاول اصطحابها معه في وقت متأخر من الليل للتجول بها في الأنحاء، لكن السكان قد اشتكوا للشرطة حول هذا الموضوع، وتم القبض عليه والدليل ضده كان واضحًا جدًا. وبات ملزمًا بتعهد التزام الهدوء لستة أشهر، ومرت عليه تلك الأشهر غير قادر على مواصلة عمله. وحاول أن يبذل قصارى جهده للعزف لكن برودة المحيطين به لم تتغير ولم يتعاطف معه أحد، حتى يئس تمامًا وقام بعرضها للبيع.

إن مسألة تعلم آلة موسيقية أحيانا ما يكون أمرًا مرهقًا، فتعتقد أن كل من يعرف سيفعل كل ما في وسعه لمساعدة الرجل على اكتساب فن العزف على آلة موسيقية، لكن ذلك لا يحدث. كنت أعرف زميلاً شابًا أراد ذات مرة تعلم العزف على المزمار، وستندهش من حجم المعارضة التي واجهته في سبيل ذلك، فلم يحصل على أي تشجيع حتى من أفراد عائلته، بل كان والده معارضًا للأمر من البداية، ويعبر عن رأيه بشكل واضح. واعتاد صديقي على الاستيقاظ في الصباح الباكر ليتدرب، لكنه اضطر إلى التخلي عن هذه الخطة بسبب أخته التي كانت تكره الموسيقى، وقالت إنه لشيء فظيع أن يبدأ الإنسان يومه هكذا.

لذا جلس ليلا وبدأ العزف بعدما آوت عائلته إلى الفراش، ولكن هذا لم ينفع إذ بدأ الناس الذين يأتون منازلهم في وقت متأخر في الوقوف للاستماع ومن ثم يخبرون البلد بأكملها، وفي صباح اليوم التالي ينشرون أخبار جريمة قتل في منزل السيد جيفرسون في الليلة السابقة، ويصفون سماعهم لصرخات الضحية وصياح القاتل الوحشي واستغاثات القتيل وهو يحتضر طالبًا الرحمة في النهاية. وبناء عليه سمحوا له بالتدرب في النهار في المطبخ الخلفي بينما تكون كل الأبواب مغلقة، لكن أصوات العزف كان يمكن سماعها في غرفة الجلوس على الرغم من هذه الاحتياطات، وكان الأمر يصل بوالدته تقريبًا إلى البكاء.

حتى صنعوا له مكانًا صغيرًا تحت أرضية الحديقة إذ تبعد حوالي ربع ميل من المنزل، وجعلوه يأخذ الآلة ويذهب إلى هناك عندما يريد أن يعزف؛ وكان أحيانًا ما يأتي زائر إلى المنزل والذي لا يعرف شيئًا عن الأمر، وكانوا يغفلون إخباره أو تحذيره وما إن يخرج في نزهة في أنحاء الحديقة حتى يفاجئه الصوت دون الاستعداد لذلك أو معرفة ماهية الأمر، وإذا كان رجلا قويًا فسيتفهم الأمر، أما إن

كان مجرد شخص متوسط الفكر عادة ما يصيبه ذلك بالجنون. يجب الاعتراف بأنه شيء محزن للغاية بالنسبة لجهود أحد الهواة في عزف المزمار، لقد شعرت بمعانته بنفسي عندما استمعت إلى صديقي الشاب، فهو آلة تتطلب منك التتنفس بعمق لعزف لحن كامل قبل أن تبدأ به على الأقل.

لم يشعر هاريس بالراحة بعد العشاء، أعتقد أن الحساء هو الذي أزعج معدته، إنه غير معتاد على أطباق فاخرة كتلك، لذا تركناه أنا وجورج في القارب وقررنا الذهاب في جولة حول "هينلي"، فيما قال هاريس إنه ينبغي أن يحتسي كوبًا من الويسكي ويصلح بعض الأشياء في القارب، وما علينا سوى أن نناديه عند عودتنا كي يجدف ويأخذنا وأكدنا عليه ألا يخلد للنوم فوافق وهو ينسحب مجدفًا إلى الجزيرة.

كانت "هينلي" تستعد للسباق([19])، فكانت مليئة بالضجيج ومزدحمة، فالتقينا عددًا لا بأس به من الرجال الذين كنا نعرفهم من المدينة، ومر معهم الوقت سريعًا إلى حد ما، بحيث قاربت الساعة على الحادية عشرة قبل أن نسلك طريقنا لمسافة أربعة أميال من المنزل أو القارب الذي كان منزلنا في ذلك الوقت. كانت ليلة كئيبة باردة مع سقوط أمطار خفيفة، وكما نسير في الحقول المظلمة والصامتة ونتحدث بصوت منخفض مع بعضنا البعض، ونتساءل عما إذا كنا نسير بشكل صحيح أم لا، فكرنا في القارب المريح مع الضوء الساطع الذي يتدفق من خلال غطائه رفقة هاريس ومونترينسي، وتمنينا لو كنا هناك.

تخيلنا أنفسنا في داخل القارب نشعر بالتعب والجوع بعيدًا عن النهر الموحش والأشجار عديمة الشكل وكأنها تخفي عمالقة من خلفها، أما نحن فلدينا القارب العزيز الذي يمتلئ بالدفء والمرح، تخيلنا أنفسنا نتناول العشاء المكون من اللحم البارد وبعض من قطع الخبز، تمكنا من سماع صوت السكاكين والبهجة التي تضفيها علينا، وأصوات الضحك والمزاح تملأ المكان وتخترق هدوء الليل. تخيلنا كل هذا فسارعنا بالمضي في هذا الطريق الطويل، وما جعلنا نشعر بالسعادة أخيرًا أننا لم نكن متأكدين مما إذا كنا نسير باتجاه النهر أم بعيدًا عنه لكننا تأكدنا، حيث مررنا على "شيبلاك" فيما كانت الساعة تدق الثانية عشرة حتى قال جورج باهتمام: "أنت تذكر أية جزيرة كانت؟ أليس كذلك؟ أجبته: "لا".. وبدأت أفكر جيدًا وقلت: "لا، كم كان عدد هذه الجزر؟".

أجابني: "أربع فقط.. سيكون الأمر على ما يرام، إذا كان هاريس مستيقظًا". فقلت: "وإذا لم يكن كذلك؟"، لكننا تجنبنا تلك الأفكار. وما إن بلغنا الجزيرة الأولى حتى صرنا نصيح بصوت عال، لكن لم يكن هناك أية استجابة؛ لذلك ذهبنا إلى الثانية وحاولنا هناك لكننا حصلنا على النتيجة نفسها.

قال جورج: "أوه! أتذكر الآن، لقد كانت الثالثة"، وركضنا على هذا الأمل وصرنا نصيح لكن دون إجابة.

أصبح الأمر مقلقًا، فلقد بلغنا منتصف الليل. وكل الفنادق في "شيبلاك" و"هينلي" مكتظة، ولا يمكننا أن نذهب في جولة كي نطرق أبواب أصحاب المنازل في ذلك

الوقت لسؤالهم المبيت لليلة. اقترح جورج أن نسير إلى هينلي ونعتدي على شرطي هناك حتى نضمن الحصول على سكن لليلة في قسم الشرطة، لكن لنفترض أنهم لم يفعلوا ذلك وبادلنا الشرطي الاعتداء فحسب دون أن نتمكن من قضاء الليلة في القسم بل قضيناها نتعارك مع مع رجاله طوال اليوم، إلى جانب أننا قد نبالغ في الضرب ويصدر ضدنا حكم لحوالي ستة أشهر.

حاولنا بشكل يائس في الظلام أن نفعل ما فعلناه عند الجزيرة الرابعة، لكننا لم نحصل على نتيجة مغايرة، وكان المطر يهطل بغزارة مصرًا على المواصلة حتى أصابنا البلل الشديد، بدأنا نتساءل ما إذا كانت هناك أربع جزر فقط أم أكثر أو ما إذا كنا بالقرب من الجزر في الأساس، أو ما إذا كنا على بعد ميل من المكان الذي يجب أن نكون فيه أو أن الخطأ من النهر نفسه؛ كل شيء بدا غريبًا ومختلفًا في الظلام. وبدأنا نفهم معاناة الأطفال.

وعندما تخلينا عن الأمل وأعلم أن هذا هو الوقت المناسب دائمًا لأن تأتي الانفراجة في الروايات والحكايات، لكن ما حدث حقًا قد حدث، إذ إنني وفجأة قد رأيت شعاع ضوء عكس لي فجأة الطريق من أمامنا، نوع غريب من الأشجار على الضفة المقابلة، فكرت للحظة في كونها أشباحًا أو ما شابه، وفي اللحظة التالية لذلك أيقنت أنه قاربنا.. أطلقت صيحة جعلت الليل يهتز في فراشه، انتظرنا نلهث لمدة دقيقة، ثم يا إلهي سمعنا موسيقى قادمة من الظلام، ها هو الرد يأتينا من مونترينسي، فصحنا مرة أخرى وبصوت عال بما يكفي لإيقاظ الأموات، وبعدما انتظرنا قرابة ساعة كانت في الحقيقة خمس دقائق لكنها لم تمر سريعًا، رأينا القارب المضيء يتسلل ببطء في الظلام، وسمعنا صوت هاريس الناعس يسأل أين كنا.

كان هناك شيء غريب حول هاريس، كان شيئًا أكثر من مجرد تعب عادي، فقد قام بالتجديف بالقارب نحو جزء من الضفة كان من المستحيل بالنسبة لنا أن نبلغه، وخلد إلى نومه على الفور، واستغرق الأمر منا قدرًا هائلا من الصراخ لإيقاظه وإيقاظ الشعور فيه مرة أخرى، لكننا نجحنا في النهاية ودخلنا بسلام إلى متن القارب. وعندما وصلنا كان يحتل وجه هاريس تعبير حزن باديًا عليه، كان يعكس صورة الرجل الذي يعاني من المتاعب، فسألناه عما إذا كان قد حدث أي شيء، فأجابنا: "البجعات!".

إذ يبدو أننا كنا قد رسونا على مقربة من عش للبجعة وبعد فترة وجيزة من ذهابنا عادت تلك البجعة وبدأت في الركض حول القارب، لكن هاريس قد حاول إبعادها عنه حتى ذهبت وجلبت ذكرها، ويبدو أن هاريس قد خاض قتالاً حقيقيًا مع هاتين البجعتين ولكن الشجاعة والمهارة انتصرتا في النهاية واستطاع هاريس هزيمتهما. وبعد نصف ساعة عادا مع ثماني عشرة بجعة أخرى! ولا شك أنها كانت معركة مخيفة بقدر ما فهمنا من رواية هاريس، وقد حاولت البجعات سحبه هو ومونتمورينسي من القارب وإغراقهما، لكنه دافع عن نفسه كبطل لمدة أربع ساعات وقتل الكثير منها حتى فرت البقية. سأله جورج: "كم عدد البجعات التي قلت إنها كانت هناك؟"، فأجابه هاريس: "اثنان وثلاثون"، فقال جورج: "لكنك قلت لتوك إنها ثماني عشرة"، فهز هاريس رأسه نافيًا: "لا، لم أفعل، هل قلت اثني عشرة؟ هل

تعتقد أنني لم أستطع عدهم؟"، حتى صارت تلك إحدى الحقائق حول تلك البجعات التي لم نكتشفها بعد ذلك، حتى إننا سألنا هاريس حول الموضوع في الصباح، وقال متعجبًا: "أي بجع؟"، وجعلنا أنا وجورج نشعر أننا كنا نحلم.

يا إلهي! كم كان ممتعًا أن نجلس في أمان بالقارب بعد المخاوف التي عشناها! تناولنا وجبة العشاء الشهية، ونمت بشكل جيد في تلك الليلة، وكان من الممكن أن أنام بشكل أفضل لولا وجود هاريس، إذ أذكر أنني استيقظت اثنتا عشرة مرة على الأقل خلال الليل على حركته وهو يتجول في القارب حاملا مصباحًا ويبحث عن ملابسه، بدا أنه قلق بشأن ملابسه طوال الليل، إذ قام بتحريكي أنا وجورج مرتين للتأكد من صحة أننا لا ننام على سرواله حتى أصاب جورج بالحنق في المرة الثانية، وسأله غاضبًا: "لماذا تريد سروالك في منتصف الليل؟ لماذا لا تستلقي وتذهب للنوم؟". شعرت أنه يواجه مشكلة حقيقية، وفي المرة التالية التي استيقظت فيها كانت لأنه لم يستطع العثور علي جواربه، وأذكر بصعوبة سماع هاريس وهو يتمتم شيئًا عن ضياع مظلته بطريقة مزعجة للغاية...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل الخامس عشر

# مغامرات التجديف

استيقظنا في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي، وبناءً على رغبة هاريس تشاركنا وجبة فطور بسيطة ثم نظفنا الأطباق ووضعنا كل شيء في نصابه، وفي حوالي الساعة العاشرة قررنا أن نخوض رحلة جيدة في ذلك اليوم، اتفقنا على أننا سنجدف بطريقة مغايرة هذا الصباح واعتقد هاريس أن أفضل ترتيب أن أقوم أنا وجورج بالتجديف، وأن يتولى هو مهمة القيادة، لم أرتاح لهذه الفكرة على الإطلاق.

اعتقدت أنه سيكون ملائم لي أكثر إذا اقترح أن يعمل هو وجورج ويسمحان لي أن أستريح قليلاً، إذ يبدو لي أنني كنت أعمل أكثر من نصيبي العادل في العمل طوال هذه الرحلة. وبدأت أشعر بالضيق بسبب هذا الموضوع، فيبدو لي دائمًا أنني أقوم بعمل أكثر مما يجب أن أقوم به، لست معترضًا على فكرة العمل في حد ذاتها، فلا مانع لدي أنا أحب العمل كما أنه يسحرني، ولا أستطيع المكوث هكذا لعدة ساعات بل أحب أن أبقي يدي مشغولة، لكن ليس معنى هذا أن تعطيني الكثير من العمل، أنا أعتز بقدرتي على إنجاز الأعمال التي آخذها بين الحين والآخر، ولا يوجد رجل يحافظ على عمله مثلما أفعل، لكن وعلى الرغم من أنني أتوق له دائمًا، فإنني ما زلت أحب العدل. أنا لا أطلب أكثر من نصيبي، لكني أحصل علي المزيد دون أن أطلب ذلك- على الأقل هذا ما يبدو لي وما يقلقني.

فيما يقول جورج إن طبيعتي المفرطة في الاهتمام بالتفاصيل هي التي تجعلني أخشى كل ذلك، بل إنني وفي واقع الأمر لا أقوم بقدر ما ينبغي لي أن أفعله، وتوقعت هذا إذ لاحظت أنها الفكرة الراسخة لكل عضو على متن القارب بأنه يفعل كل شيء وحده. فقد كانت فكرة هاريس أنه هو وحده الذي كان يعمل وأنا وجورج من نفرض عليه ذلك، و من ناحية أخرى يسخر جورج من فكرة أن هاريس لا يقوم بعمل أي شيء أكثر من تناوله للطعام والنوم، وأنه من ينجز العمل الحقيقي الذي يستحق الحديث عنه.

وقال إنه لم يخرج مطلقًا مع أناس كسالى مثلنا، تسبب كلامه في إمتاع هاريس الذي قال ضاحكا: "جورج الترف العجوز يتحدث عن العمل!، كيف هذا ونصف ساعة من العمل كافية لقتله!"، ثم توجه لي بالسؤال: "هل سبق لك أن رأيت جورج يعمل؟"، فاتفقت مع هاريس أنني لم أر ذلك على الإطلاق وتحديدًا منذ أن بدأنا هذه الرحلة.

فجاء رد جورج على هاريس: "حسنًا، لا أعلم كيف يمكنك أن تعرف الأمر بطريقة أو بأخرى إذا كنت نائمًا نصف الوقت"، ثم سألني: "هل سبق لك أن رأيت هاريس مستيقظًا تمامًا إلا في وقت تناول الطعام؟"، وأجبرتني الحقيقة على دعم جورج، فلم يقم هاريس بالكثير في القارب فيما يتعلق بالمساعدة منذ بداية الرحلة، فقال هاريس: "حسنًا، لقد فعلت أكثر مما فعله جيروم على أية حال"، وهنا أضاف جورج:

"حسنًا، لم يكن بمقدورك القيام بأقل منه في الأساس إذ أعتقد أنه جاء معنا كراكب على متن القارب!". وكانت تلك طريقتهما في التعبير عن الامتنان على جلبي لهذا القارب القديم البائس على طول الطريق من "كينجستون"، وقيامي بالإشراف على كل شيء وإدارته لهما والعناية بهما، هذه هي الطريقة التي اكتفى بها العالم.

حسمنا مسألة التجديف بصعوبة حتى استقررنا على أن يجدف هاريس وجورج حتى "ريدينج"([20])، وأنه ينبغي عليَّ أن أقوم بسحب القارب من هناك، وإن مسألة سحب قارب ثقيل ضد تيار قوي لم يكن أمرًا جذابًا بالنسبة لي الآن، فقد مضت فترة طويلة على اعتيادي على القيام بمثل هذا العمل الشاق. أما الآن فأنا أفضل إعطاء الشباب فرصة، وقد لاحظت أن معظم الكبار مثلي يتبعون النظرية ذاتها عندما يتعلق الأمر بسحب شاق لقارب في منتصف النهر، حيث يمكنك دائمًا تمييز رجل ذي خبرة من الطريقة التي يضطجع بها على الوسائد في الجزء السفلي من القارب بينما يشجع الشباب على التجديف بأن يقص عليهم الحكايات عن المآثر الرائعة التي قام بها الموسم الماضي.

فتجده يخاطب هؤلاء الشباب الذين يتصببون عرقًا لمدة ساعة ونصف: "هل تسمون هذا عملا شاقًا؟ فأنتم لم تروني أنا وصديقي جيم وجاك في الموسم الماضي بينما نجدف من مارلو إلى جورينج في الواحدة ظهرا دون أن نتوقف ولو لمرة واحدة، هل تتذكر ذلك يا جاك؟".

ويجيبه جاك الذي صنع لنفسه فراشًا من الأغطية والمعاطف التي استطاع جمعها للنوم لساعات، ويستيقظ إلى حد ما استجابة للنداء ويبدأ في تذكر كل شيء حول هذه المسألة، ويتذكر أيضًا هبوب رياح قوية بشكل غير عادي تسير ضدهم طوال الطريق، ويضيف المتحدث الأول وهو يتناول وسادة أخرى كي يضعها تحت رأسه: "أظن أننا قطعنا حوالي أربعة وثلاثين ميلًا"، فيتذمر جاك: "لا، لا؛ لا تبالغ يا توم، إنها ثلاثة وثلاثون لا أكثر".

حتى يستنفذ جاك وتوم طاقتهما جراء هذا الجهد الذي بذلاه في المحادثات، ويغلبهما النعاس ويخلدان للنوم مرة أخرى، فيما يشعر الشابان الساذجان بالفخر الشديد لكونهما يحملان مجاهدين رائعين مثل جاك وتوم، ويجدفان بعيدًا بجد أكثر من أي وقت مضى.

عندما كنت شابًا، كنت أستمع إلى هذه القصص من كبار السن وأصدقها وأبتلعها وأهضم كل كلمة منهما، لكن الجيل الجديد لا يبدو أن لديه أي قدر من السذاجة التي كانت لدينا قديمًا، حدث ذات مرة أن اصطحبنا أنا وجورج وهاريس أحد الشباب في الموسم الماضي، وكنا نحكي له عن الأشياء الرائعة التي قمنا بها على طول الطريق، كل تلك الأشياء المعتادة والأكاذيب التي تحفظها بمرور الوقت مع كل رجل ركب قاربًا في السنوات الماضية- وأضفنا سبع قصص اخترعناها لأنفسنا؛ قصص ساذجة يمكن أن يصدقها طفل صغير، لكن الشاب سخر منا.

سخر منا جميعًا وطلب أن نكرر عليه الحكايات للمراهنة على أننا لم نفعل ذلك. وصلنا إلى الدردشة حول تجارب التجديف لدينا هذا الصباح وبدأنا نسرد قصص

عن جهودنا الأولى في فن التجديف، وأول ما تذكرته كان تأجير تلك القوارب الخاصة، كنا خمسة وساهمنا بدفع ثلاثة بنسات للفرد واستأجرنا قاربًا له شكل غريب على بحيرة "ريجنت بارك" حتى اضطررنا إلى تجفيف أنفسنا في وقت لاحق في منزل حارس الحديقة، وبعد ذلك بعد أن اكتسبت خبرة في النهر استمتعنا باستخدام مختلف أحجار القرميد الموجودة في الضواحي للطفو بها، الأمر الذي يزخر بالإثارة أكثر مما يتصور أي أحد، خاصة عندما تكون في منتصف البركة ويفاجئك مالك المواد بظهوره على الشاطئ ممسكا بعصا كبيرة في يده!

وربما يبدو أنه يعرف والدك ويعلم عنك الكثير، ولكن هذا لا يعطيك الشجاعة كي تذهب إليه، حتى يقول لك إنه سوف يعلمك أن تأخذ الألواح وتصنع مجموعة كبيرة منها؛ ولكنك تعرف كيفية القيام بذلك بشكل جيد بالفعل.

لقد كرست حوالي ثلاثة أشهر للتجديف، ولكني كنت أتقن ذلك النوع من الفن وكنت مصمم على الدخول في عالم التجديف السليم فانضممت إلى أحد الأندية، وفي قارب على نهر "ليا" وتحديدًا بعد ظهر يوم السبت سرعان ما تصبح ذكيًا في التعامل مع القارب، وتتعلم كيف تهرب من المراكب الأخرى متفاديًا الغرق، ويتيح الأمر لك الكثير لاكتساب طريقة سريعة ورشيقة للتعامل مع القارب وتجنب التعرض للسقوط في النهر بتمرير خطوط السحب، ولم أكن لأسافر في نهر التايمز لو لم أتعلم كل هذا.

يحظى أسلوبي في التجديف بإعجاب كبير الآن من الآخرين على الرغم من أن البعض يقولون أنه غريب للغاية. لم يقترب جورج من الماء حتى بلغ السادسة عشرة حتى ذهب هو وثمانية من أصدقائه الآخرين من العمر نفسه تقريبًا نحو "كيو" في أحد أيام السبت لاستئجار قارب من هناك والتجديف إلى "ريتشموند" والعودة؛ كان صبي منهم يدعى "جوزكينز" قد سبق له الخروج على متن قارب مرة واحدة أو مرتين من قبل، وقال لهم إن الأمر عامر بالمرح. وكانت هناك رياح عاتية فوق النهر لكن هذا لم يزعجهم على الإطلاق، وشرعوا في اختيار قاربهم بالفعل. كان هناك قارب سباق ذو ثمانية مجاديف موضوعًا في المرسى، وقالوا إنهم سيحصلون عليه، وكان صاحبه بعيدًا وابنه هو المسئول حينها، حاول الولد تثبيط عزيمتهم، وعرض لهم اثنين أو ثلاثة قوارب مريحة المظهر تصلح للعائلات لكن محاولاته لم تجد نفعًا على الإطلاق، كان ذلك القارب الأفضل في نظرهم.

فأعده الصبي للانطلاق وخلعوا معاطفهم واستعدوا لشغل مقاعدهم فيه، فيما اقترح الصبي على جورج، الذي كان كسولا كعادته في أي تجمع، أن يمسك بالمجداف الرابع، وقال جورج إنه ينبغي أن يكون سعيدًا لأن يكون في المرتبة الرابعة ودخل بسرعة إلى مكانه وجلس مستندًا بظهره إلى مؤخرة السفينة، ونجحوا أخيرًا في إرشاده لمكانه الصحيح في القارب ثم تبعه الآخرون، حتى تم اختيار صبي عصبي الطباع ليتولى القيادة، وشرح له "جوسكينز" مبدأ التوجيه والقيادة، وأخذ يخبر الآخرين أن الأمر بسيط بما فيه الكفاية كي يشعروا بالاطمئنان، وأن كل ما عليهم فعله أن يحذوا حذوه، حتى أعلنوا أنهم صاروا مستعدين وأخذ الصبي يدفعهم ليبحروا بعيدًا.

لم يتمكن جورج من سرد ما حدث بعد ذلك بوصف تفصيلي، فقد كان حائرًا في التذكر لكن ما يتذكره بالتحديد أنه ما إن بدأوا حتى تلقى ضربة عنيفة في ظهره من طرف المجداف رقم خمسة وفي الوقت نفسه بدا أن مقعده قد انزلق واختفى من تحته بطريقة سحرية لم يجد لها تفسيرًا، وتركه جالسًا على خشب القارب، كما لاحظ أيضًا أن صاحب المجداف الثاني كان مستلقًيا على ظهره في أسفل القارب، وساقاه معلقتان في الهواء، وعلى ما يبدو أنه كان وضعًا ملائمًا بالنسبة له، مروا بالقرب من جسر "كيو" وهم يجدفون بمعدل ثمانية أميال في الساعة في حين كان "جوسكينز" هو الوحيد الذي يجدف بشكل صحيح.

حاول جورج أن يساعده بعدما استعاد نفسه لكن محاولته تسببت في غرق مجدافه في الماء مما أصابه بمفاجأة شديدة، لكنه اختفى تحت القارب وكاد يأخذه معه تقريبًا. وفي الوقت ذاته قام صبي حاد الطباع بترك حبال الدفة وانفجر في البكاء. لم يعرف جورج كيف عادوا من تلك الرحلة، لكن الأمر استغرق منهم أربعين دقيقة فقط، احتشد فيها جمع كثيف من البشر تحت جسر "كيو"، وكان الجميع يصيحون بهم من اتجاهات مختلفة ولثلاث مرات تمكنوا من المرور بالقارب وثلاث مرات أخرى كرروا الأمر ذاته، وفي كل مرة كان الصبي ينظر إلى الأعلى ويرى الجسر فوقه ينفجر في البكاء مجددًا، وقال جورج إنه لم يكن ليفكر في ركوب القوارب من حينها إلا بعد ظهر ذلك اليوم.

أما هاريس فقد كان معتادًا على التجديف في البحر أكثر منه في النهر باعتباره تمرينًا يفضل القيام به، لكنني عارضته في فكرة أن البحر أمتع لأني مررت بتجربة سيئة فيه؛ أذكر أنني ذات مرة أخذت قاربًا صغيرًا عند "إيستبورن" في الصيف الماضي، وقد اعتدت على التجديف في البحر منذ سنوات، واعتقدت أنني سأقوم بالأمرعلى ما يرام. لكنني اكتشفت أنني نسيت الطريقة تمامًا، فكلما غرق مجداف في أعماق الماء كان الآخر يطير بعنف في الهواء، وكي أقبض كليهما في الوقت نفسه اضطررت للوقوف، فيما كان هنالك موكب مزدحم بالسادة من الرجال، واضطررت إلى تجاوزهم بطريقة سخيفة، حتى توقفت في منتصف الطريق على الشاطئ ودفعت مقابل خدمات مراكبي عجوز ليجدف بي في نهاية المطاف. إن التجديف العملي البسيط ليس من الصعب إتقانه لكن الأمر يتطلب أولا الكثير من الممارسة كي يشعر الإنسان بالراحة وهو يمارسه.

كما أن مشاهدة اثنين من المبتدئين في محاولة للحفاظ على الوقت مع بعضهما البعض، أمر ممتع للغاية، يرى صديقي "باو" أنه من المستحيل أن تواكب السير بالسرعة المحددة في التجديف لفترة، لأن التجديف بالصورة النمطية صار أمرًا قديمًا لا يعتد به، وأوضح أن ما كان يحاول القيام به خلال العشر دقائق الماضية هو اعتماد طريقته مع القدرة المحدودة للمركب.

قال جورج إنه كان يتوق في كثير من الأحيان إلى المراكب الطويلة على سبيل التغيير. على الرغم من أن التجديف بها ليس سهلا كما يبدو أو كما هو الحال مع القوارب الأخرى، التي سرعان ما تتعلم كيف تتعامل معها، بل إن الأمر يتطلب ممارسة طويلة وتدريبًا قبل أن تتمكن من القيام بذلك ببراعة ودون أن تسقط في

المياه. كان هناك شاب أعرفه قد تعرض لحادث محزن جدًا له في المرة الأولى التي خرج فيها في قارب كهذا، لقد تلقى تمرينًا جيدًا لدرجة أنه ظن أنه ليس بحاجة للمزيد، وكم كان من الرائع مشاهدته حتى خرج به ذات مرة وراح يسير في عجالة على طول الضفة إلى الطرف الآخر، ولسوء حظه وبينما كان يأخذ جولته للاستمتاع بالمناظر الطبيعية سار خطوة واحدة عكس ما كان يجب أن يفعل، الأمر الذي تسبب في سقوط المجداف بقوة في الوحل، والذي ظل متشبثًا به بينما ذهب القارب بعيدًا.

كان موقفًا مهينًا بالنسبة له، حتى صاح صبي في صديقه على الضفة الأخرى كي يأتي لرؤية ذلك القرد المعلق على عصا، لم أستطع أن أذهب لمساعدته، لأننا لم نأخذ حذرنا ولم ننهِ الاحتياطات المناسبة لإحضار مجداف احتياطيًا معنا، فمكثت في مكاني أنظر إليه لا أكثر، انظر في تعبير وجهه الذي لن أنساه أبدًا، حتى إنني رأيته وهو يغوص بروية في الماء، رأيته فزعًا، حزينًا مبتلًا، ولم أتمالك نفسي من الضحك حينها على هيئته في تلك اللحظة، واصلت الضحك في قرارة نفسي لبعض الوقت حتى أدركت وجودي وحيدًا في وسط الماء في قارب بلا مجداف ينجرف بلا حول ولا قوة حسبما يقوده التيار، حتى بدأت أشعر بالغضب الشديد تجاه صديقي الذي قاد بنا بهذه الطريقة، حتى أضاع لي المجداف. انجرفت على مسافة حوالي ربع ميل حتى صرت في مرمى بصر سفينة صيد في منتصف مجرى النهر حيث يجلس اثنان من الصيادين القدامى وما إن وجداني أبحر ناحيتهما حتى صاحا في كي أبتعد عن طريقهما.

فصحت فيهما في المقابل بأنني لا أستطيع التحكم في القارب، فقالا لي: لكنك لم تحاول! شرحت لهما الأمر عندما اقتربت فأمسكا بي وبقاربي وأقرضوني مجدافًا، وقد كان هنالك سد بعدهما بحوالي خمسين ياردة فقد لذا فكنت سعيدًا لوجودهما هناك.. كانت المرة الأولى التي ذهبت فيها في قارب كهذا مع ثلاثة رجال آخرين، ليعلموني كيفية القيام بالتجديف، لكننا لم نتمكن جميعًا من الخروج معًا في بداية اليوم، لذلك قلت لهم إنني سوف أذهب أولا وأنتظرهم هناك، حتى يمكنني أن أتدرب بعض الشيء حتى يأتوا، لكنني لم أستطع الحصول على قارب في ذلك اليوم.

كانوا جميعهم مشغولين ولم يكن لدي أي شيء آخر لأفعله سوى المكوث على الضفة ومشاهدة النهر في انتظار أصدقائي، ولم أجلس هناك لفترة طويلة حتى جذب انتباهي رجل يرتدي ملابس كملابسي، يرتدي سترة وقبعة تمامًا مثلما أرتديهما، ومن الواضح أنه كان مبتدئًا في التجديف إذ كان أداؤه أكثر إثارة للاهتمام. لا يمكنكم أبدًا أن تتخيلوا ما الذي كان يحدث عندما يضع المجداف في الماء، ومن الواضح أنه هو شخصيًا لم يعرف، ففي بعض الأحيان كان ينجرف مع التيار وأحيانًا يفشل في ذلك، وفي أوقات أخرى كان يلتف حول نفسه ويصعد إلى الجانب الآخر من الضفة. ومع كل فعلة غير صحيحة يشعر بالدهشة والانزعاج، حتى بدأ الناس على طول النهر يمعنون النظر فيما يفعله، ويضعون الرهانات مع بعضهم البعض على نتيجة دفعته القادمة.

ومع مرور الوقت وصل أصدقائي إلى الضفة المقابلة وتوقفوا لمشاهدته أيضًا، كان يولي ظهره ناحيتهم، ولم يرَوا منه سوى سترته وقبعته ومن هذا استنتجوا أنه أنا دون شك، إنه أنا رفيقهم المحبوب الذي يقدم ذلك العرض، وراحوا يضحكون ويسخرون منه بلا رحمة، إنني لم أدرك خطأهم في البداية ورحت أفكر كم أنه من الوقاحة أن يسخروا من شخص غريب مثله، ولكن قبل أن أتمكن من توبيخهم كنت قد أدركت المسألة، وانسحبت لأختبئ خلف شجرة كي لا يروننني فيما ظلوا يمتعون أنفسهم بالسخرية من ذلك الشاب! حتى مرت خمس دقائق وهم يصرخون ويسخرون منه بكل أنواع النكات التي لا معنى لها حتى فاض به الكيل واستدار ناحيتهم وكانت المفاجأة عندما رأوا وجهه! وكنت سعيدًا للغاية حينما رأيتهم في حماقتهم تلك، وراحوا يشرحون له أنهم ظنوه شخصًا يعرفونه، وأنهم يأملون ألا يعتبرها إهانة بالطبع.

أذكر حينما أخبرني هاريس ذات مرة عن التجربة التي خاضها في "بولونيا" إذ كان يسبح هناك بالقرب من الشاطئ عندما شعر بقبضة قوية على رقبته من الخلف أسقطته تحت الماء بالقوة، أخذ يكافح لكنها أمسكت به وباءت كل محاولاته بالفشل، وتخلى عن جهوده في الهرب وراح يفكر في كل الأشياء الجليلة من حوله إلى أن أفرج عنه ذلك الرجل، وعندما نظر إليه حتى تحولت ضحكاته إلى صمت مفاجئ وبدا قلقًا للغاية.

وقال له خجلًا: أستميحك عذرًا، لكنني ظننتك صديقًا لي!

إن الإبحار شيء يحتاج إلى المعرفة والممارسة والتدريب دون شك. حينما كنت صبيًا لم أكن أعتقد ذلك وكانت لدي فكرة أنه أمر يحدث بالفطرة والطبيعة، وكنت أعرف فتى آخر قد شاركني وجهة النظر نفسها، وبناء عليه ففي يوم عاصف ظننا أننا سنتمكن من تجربة هذه الرياضة، فتوقفنا عند "يارموث" وقررنا أن نذهب في رحلة هناك، استأجرنا زورقًا شراعيًا في المنطقة بجانب الجسر وبدأنا في قيادته، وحينها قال لنا صاحبه إن طقس اليوم صعب للغاية كما أنه علينا تجنب الشعاب المرجانية عندما ننحني بالمركب في أي استدارة، فأجبناه بأننا سنجد حلًا لذلك الأمر وألقينا عليه تحية الصباح وغادرنا نتساءل عما قاله لنا للتو وعما يجب علينا أن نفعل حيال الشعب المرجانية، ظللنا نجدف حتى صرنا بعيدين عن الأنظار في المدينة على نطاق واسع ممتد من المياه أمامنا والرياح تهب بشدة، شعرنا أن الوقت قد حان لبدء التعامل معها، هيكتور- أعتقد أن هذا اسمه- استمر في التجديف على عكسي تمامًا، لقد بدت لي مهمة معقدة لكني حاولت إنجازها، ومن هنا جاء السؤال: ما النهاية العليا؟ وبالغريزة الفطرية للبشر قد استقررنا في النهاية على أن الجزء السفلي هو الأعلى، لكن مر علينا وقت طويل قبل أن نتمكن من الحصول عليها إما بهذه الطريقة أو بأية طريقة أخرى.

قال هيكتور: "أسقط الشراع واجعله يبتل في المياه"، وقال إن الناس في السفن يبلون الأشرعة دائمًا قبل أن يرفعوها، لكن ما قاله جعل الأمور أسوأ مما كانت عليه من قبل، إذ راح الشراع يتمسك بساقينا ويلف نفسه حول رأسينا، وكلما حاولنا الإبحار به يصبح الأمر محيرًا للغاية، حتى وصلنا في نهاية المطاف لحل للأمر

وتمكننا من إصلاحه وقمنا بربطه بقماش قطعناه لهذا الغرض. لقد فكرت كثيرًا في المسألة برمتها منذ ذلك الحين، لكنني لم أنجح في التوصل إلى أي عيب بعينه، وكان الأمر مرهقًا بحق.

سرنا بالقارب لمسافة ميل واحد بوتيرة لم أبحر بها منذ ذلك الحين، إذ كان نصف الشراع مبتلًا تحت الماء، حتى طاله بعض الوحل الذي ساعدنا على التماسك لفترة، وأصبحنا قادرين مرة أخرى على التحرك بدلا من المكوث ساكنين، تسللنا لمقدمة القارب وخفضنا الشراع، وحاولنا دفع القارب بعيدًا عن الوحل، وفي أثناء القيام بذلك كسرنا واحد من المجاديف. وصرنا عاجزين والوحل يمتد لنحو مائة ياردة من أمامنا ومن ورائنا في الماء، والشيء الوحيد الذي يمكننا فعله هو الجلوس والانتظار حتى يأتينا شخص ما، في يوم كذلك لم يكن ملائمًا لجذب الناس ناحية النهر، إلى أن مرت ثلاث ساعات وظهر صياد قديم بصعوبة هائلة وهو من أنقذنا في النهاية، وقد دفعنا الكثير حتى وصلنا للمنزل، لكن الخبرة التي اكتسبانها لا تقدر بثمن..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل السادس عشر

# القوارب الصغيرة المزعجة

كنا على مقربة من "ريدينج" في حوالي الساعة الحادية عشرة، ونظرًا لأن النهر قذر وكئيب في تلك البقعة فلا يمكث أحد في حي "ريدينج" طويلًا، على الرغم من أن المدينة نفسها تعد مكانًا قديمًا ومشهورًا ..

وعند هويس "ريدينج" توصلنا إلى قارب بخاري يعود إلى بعض الأصدقاء الذين قاموا بسحبنا لما يقرب من ميل، وكم كان من الممتع سحبنا بهذه الطريقة، إنني أفضله عن التجديف من وجهة نظري، وكان الأمر ليغدو أكثر إمتاعًا لو لم تعرقلنا تلك القوارب الصغيرة البائسة التي تقف باستمرار في طريقنا؛ إذ كان علينا أن نتوقف بسببها طوال الوقت.

إنها حقًا الشيء الأكثر إزعاجًا في النهر؛ حيث تعيق غيرها بطريقة غير محتملة للغاية، كما أنه يمكنك أن تنفجر بجانبها بإطلاق الصافرات حتى يبتعدون في نهاية المطاف، أعتقد أنني يجب أن أغِرق واحدًا أو اثنين منها بين الحين والآخر لتعليمهم درسًا كي يكونوا عبرة للآخرين.

أصبح النهر جميلًا جدًا من أعلى قليلاً بعد "ريدينج" حتى انفصلنا عن هؤلاء الأصدقاء، ثم حاول هاريس أن يقنعني بأنه قد حان دوري في التجديف، وهو ما كان يبدو لي غير منطقي تمامًا، فقد اتفقنا في الصباح أن أجدف بالقارب لمسافة ثلاثة أميال فقط من "ريدينج". حسنًا وها نحن على بعد عشرة أميال منها! فبالتأكيد كان دورهما هذه المرة، ومنعًا للجدال أخذت المجاديف.

تقع "جورينج" على الضفة الغربية من النهر، و"ستريتلاي" على الضفة الشرقية منه، فيما تعد كلتيهما مكانًا ساحرًا وجاذبًا للبقاء فيها لبضعة أيام. كنا نعتزم المضي قدمًا نحو "وولينجفورد" في ذلك اليوم، لكن الوجه المبتسم الحلو للنهر جذبنا أن نبقى لفترة من الوقت، وهكذا تركنا قاربنا عند الجسر، وذهبنا إلى "ستريتلاي" لتناول الغداء، في حين شعر "مونترينسي" بالرضا الشديد حيال ذلك.

يقولون إن التلال في تلك البقاع قد تجمعت ذات مرة وشكلت حاجزًا عبر نهر التايمز، وإن النهر انتهى هناك فوق "جورينج" وصنع بحيرة واحدة كبيرة، أنا لا أصدق أو أؤكد تلك الرواية لكني أنقلها لكم ببساطة كما هي. إن "سترتلاي" مكان قديم يعود تاريخه مثل معظم المدن والقرى إلى العصور البريطانية والساكسونية. أما "جورينج" فليست مقصدًا مهمًا مثلها، لكنها أقرب للسكك الحديدية إذا كنت تريد أن تتسلل سريعًا دون دفع فاتورة الفندق الذي مكثت فيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل السابع عشر
# الأسماك والصيادون

مكثنا يومين في "ستريتلاي" حيثما تم غسل ملابسنا، حاولنا أن نغسلها بأنفسنا في البداية في النهر تحت إشراف جورج، لكننا فشلنا فشلا ذريعًا بل أكثر من الفشل إن صح التعبير، إذ صارت أسوأ حالًا بعد أن غسلناها، فقد كانت قبل أن نغسلها قذرة ومتسخة جدًا وهذا صحيح، لكنه كان من الممكن ارتداؤها على الأقل، أما بعد أن غسلناها في النهر- حسنًا- صار النهر بين ريدينج وهينلي أكثر نظافة بعد أن تجمعت كل الأوساخ القابعة فيه وعلقت في الملابس.

قالت الغسالة التي ذهبنا لها في "ستريتلاي" إننا ندين لها بحوالي ثلاثة أضعاف الأسعار المعتادة لهذه الملابس، قالت إنه لم يكن غسيلا لكنه كان أقرب إلى عملية الحفر، وبالفعل دفعنا الفاتورة دون أن ننبس ببنت شفة.

يعد كل من حي جورينج وستريتلاي مركزًا رائعًا لصيد الأسماك، فيوجد هناك أنواع من السمك الممتاز التي يزخر بها النهر، حيث يمكنك الجلوس في محاولة الصيد طوال اليوم، فحسب ما يقوله دليل الصيد المحلي فإن المكان يعد "محطة جيدة لصيد الأسماك"، ومما رأيته في المنطقة فأنا مستعد تمامًا لتأكيد هذا القول.

بعض الصيادين يأتون إلى هنا ويصطادون في يوم، والبعض الآخر يمكث لفترة أطول في محاولة اصطياد السمك لمدة شهر، ويمكنك البقاء لمدة عام إذا كنت ترغب في ذلك.

أنا لست صيادًا جيدًا عن نفسي، فقد كرست اهتمامي للأمر ذات مرة لكن الصيادين القدامى أخبروني أنني لن أنجح أبدًا في الأمر ونصحوني بالتخلي عنه، قالوا إنني أقذف السنارة بشكل أنيق للغاية، ويبدو أن لدي إحساس جيد بما فيه الكفاية. لكنهم كانوا متأكدين أنني لن أجني أي شيء من الصيد، وأنني لا أمتلك ما يكفي من الخيال. إذ إن الصيد في التايمز يتطلب المزيد من القوة والقدرة على قول الأكاذيب بسهولة دون أن يحمر وجهك، ولكن هذا خطأ من وجهة نظري، فقول الأكاذيب أمرًا لا فائدة منه. أو أن السر في التفاصيل وإضفاء اللمسات والمناخ العام الذي تجعله يقترب من الحقيقة، وهذا ما يحتاجه الصيادون من ذوي الخبرة، إذ يمكن لأي شخص أن يأتي ويقول: "أوه، لقد اصطدت خمس عشرة سمكة هذا المساء" أو "لقد اصطدت يوم الاثنين الماضي سمكة تزن ثمانية عشر رطلا وطولها يصل ثلاثة أقدام من الرأس إلى الذيل".. لا يوجد فن في السرد ولا مهارة. وهذا النوع من الأحاديث يظهر شجاعة لا أكثر ولا أقل.

إن الصياد الحقيقي لا يقول كذبة بهذه الطريقة، بل إن الطريقة يجب أن تكون دراسة في حد ذاتها، إذ يدخل في هدوء وقبعته على رأسه ويختار أكثر كرسي مريح في المكان، يشعل غليونه ويشرع في التدخين في صمت، ويتيح الفرصة للشباب

الصغار كي يتحدثوا لفترة من الوقت، وبعد ذلك يزيل الأنبوب من فمه وينفضه كي يخرج الرماد منه، ويقول: "حسنًا، لقد اصطدت صيدًا جيدًا مساء يوم الثلاثاء، لكنه ليس جيدًا كفاية كي أخبر أي شخص عنه".

فيسألونه: "أوه! لماذا؟".. فيقول في هدوء وبلهجة رزينة وهو يملأ غليونه: "لأنني لا أتوقع أن يصدّقني أحد إذا فعلت".

فيتبع حديثه صمت تام بعد ذلك إذ لا يشعر أحدهم بالثقة الكافية كي يناقض كلام هذا الرجل العجوز، لذلك يستمر بنفسه دون أن يحثه أحدهم على ذلك: "لم أكن لأصدق ذلك بنفسي إن أخبرني أحدكم به، لكن هذه حقيقة، فقد كنت جالسًا لفترة ما بعد الظهر ولم أصطد أي شيء حرفيًا باستثناء القليل من من السلمون، وكنت على وشك التخلي عن الأمر عندما شعرت فجأة بشيء يسحب طرف السنارة اعتقدت أنها سمكة صغيرة ورحت أشدها لكنني لم أستطع، استغرق الأمر مني نصف ساعة، نصف ساعة يا سادة! حتى انني اعتقدت أن السنارة على وشك الكسر إلى أن أخرجتها في النهاية، وماذا تعتقدون أنني وجدت؟ سمك الحفش! الحفش التي تزن أربعين رطلًا خرجت بطرف سنارتي يا سادة! من حقكم أن تندهشوا!". ثم يمضي في حديثه ليخبرهم عن دهشة كل من رأى السمكة، وماذا قالت زوجته عندما وصل إلى المنزل، وكل ما كان يفكر به من حوله.

سألت مالك نزل قريب من النهر ذات مرة عما إذا كان لا يشعر بالملل في بعض الأحيان وهو يستمع إلى حكايات الصيادين، وقال:"لا، ليس الآن يا سيدي. لقد كان يزعجني ذلك قليلاً في البداية، ولكن أنا وحبيبتي نستمع إليهم طوال اليوم. هذا ما صرت معتادًا عليه هذه الفترة".

كما كنت أعرف شابًا، كان زميلًا أمينًا صادقا بالنسبة لي، وعندما كان يخرج لصيد الأسماك يقول إنه لن يلجأ للمبالغة في عدد الأسماك التي يصطادها مثل البقية، مضيفًا: "عندما أصطاد أربعين سمكة سأقول للناس إنني قد اصطدت خمسين فقط، وهلم جرا.. لكنني لن أكذب أكثر من ذلك ،لأنه من الخطأ أن أكذب".

لكن خطة الخمسة وعشرين في المائة لم تعمل بشكل جيد على الإطلاق، ولم يكن قادرًا على استخدامها، حيث كان أكبر عدد من الأسماك التي اصطادها ثلاث ولا يمكنك إضافة خمسة وعشرين بالمائة، فرفع نسبته، لكن ذلك لم يسعفه في شيء حال اصطاد واحدة أو اثنتين فقط ؛ لذلك، ولتبسيط المسألة اتخذ قراره بمضاعفة الكمية، وظل متمسكًا بذلك المبدأ لبضعة أشهر، لكنه لم يشعر بالرضا إذ لم يصدقه أحد عندما أخبرهم بضعف ما يصطاده يوميًا. وبالتالي، لم يكتسب أي شيء بهذه الطريقة. وعندما اصطاد بالفعل ثلاث سمكات وقال إنه اصطاد دستة شعر بالغيرة لسماع الرجل الذي لم يصطد سوى سمكة واحدة وهو يتحدث إلى الناس على أنه اصطاد ما يقرب من عشرين.

لذا وفي النهاية قام بترتيب نهائي مع نفسه وكان ذلك بحساب كل سمكة يصطادها بعشرة منها، وأن يفترض عشر سمكات كبداية على سبيل المثال إذا لم يصطد أي سمكة على الإطلاق، فيقول إنه اصطاد عشرة، وإنه لن يقول أبدًا إنه اصطاد أقل

من عشرة على حسب نظامه؛ أو بأية حال من الأحوال. إذا اصطاد سمكة واحدة سيقول عشرين وإذا اصطاد اثنتين ستحسب ثلاثين وهكذا. إنها خطة بسيطة وسهلة التطبيق، وكان هناك بعض الأقاويل في الآونة الأخيرة عن استخدامها من قبل الإخوة الصيادين بشكل عام.

وإذا كان لديك أي وقت لقضاء أمسية في أعلى النهر أود أن أنصحك بالمكوث في واحد من النزل التابعة لقرية صغيرة؛ إذ ستتمكن بلا شك من مقابلة رجل أو اثنين من هؤلاء الصيادين القدامى، وسوف يخبرونك بما يكفي من القصص في حوالي نصف ساعة.

جورج وأنا- لا نعرف ماذا أصاب هاريس الذي خرج في الصباح الباكر ولم نره منذ ذلك الحين، جورج وأنا والكلب كنا وحدنا وذهبنا في نزهة سيرًا على الأقدام إلى "ولينجفورد" في الليلة التالية، وفي طريق العودة إلى المنزل دخلنا نزل صغير بجانب النهر للراحة، ذهبنا إلى صالة الاستقبال وجلسنا، كان هناك عجوز يجلس ويدخن غليونًا وبدأنا في الدردشة معه بطبيعة الحال، أخبرنا أنه كان يومًا جيدًا، وأخبرناه أن أمس كان جميلا، وبعد ذلك أخبرنا بعضنا بعضًا أننا نعتقد أن الغد سيكون يومًا جيدًا أيضًا.

وبعد ذلك وبطريقة أو بأخرى تطرقنا إلى كوننا غرباء في الحي وأننا ذاهبون بعيدًا في صباح اليوم التالي، أخذت أعيننا أنا وجورج جولة داخل الغرفة حتى استقرت أبصارنا أخيرًا على علبة زجاجية قديمة مغطاة بالغبار ومثبتة فوق المدفأة، تحتوي على سمك السلمون المرقط.

"آه! سمكة عجيبة أليس كذلك؟"، قالها الرجل العجوز باتباع اتجاه نظري، فقلت له: "إنها غير مألوفة تمامًا"، وسأل جورج الرجل العجوز كم يبلغ وزنها، فقال صديقنا: "ثمانية عشر رطلًا، لقد مضى ستة عشر عامًا على اصطيادي لتلك السمكة بعدما قالوا لي أنها تسبح في النهر، وقلت لهم سأصطادها.. وقد فعلت. لن تروا الكثير من الأسماك بهذا الحجم الآن، ليلة سعيدة سادتي، ليلة سعيدة"

قالها وخرج وتركنا وحدنا، بينما لم نتمكن من رفع أعيننا عن السمكة من بعدها حتى دخل الحمال الذي توقف للتو في النزل ذاته، وجاء إلى باب الغرفة ونظر بدوره إلى السمكة وقال جورج وهو يستدير إليه: "سمك السلمون بحجم جيد".

فأجابه: "آه! ربما تقولون يا سيدي إنكما لم تكونا هنا عندما تم اصطياد تلك السمكة؟"

فقلنا: "لا، نحن غرباء في الحي".

فقال لنا: "آه! لكن كيف علمتما بقصتها؟ لقد مرت خمس سنوات تقريبًا منذ قمت باصطيادها!"

سألناه في تعجب: "هل كنت أنت الذي اصطادها إذًا؟"

فقال بلطف: "نعم يا سيدي، اصطدتها في ظهر أحد أيام الجمعة؛ والشيء الرائع في ذلك أنني لم أفكر مطلقًا في سمك السلمون المرقط، وعندما رأيتها في نهاية السنارة فوجئت إذ إنها كما تشاهدان تزن ستة وعشرين باوند، ليلة سعيدة يا سادتي، ليلة سعيدة".

وبعد خمس دقائق جاء رجل ثالث ووصف لنا كيف اصطاد السمكة نفسها في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، ثم غادر. ومن بعده جاء رجل في منتصف العمر وجلس قرب النافذة ولم يتحدث أحد منا لفترة، إلى أن توجه جورج ناحية الرجل وقال: "أستميحك عذرًا، وآمل أن تغفر لنا التعدي على حريتك، إننا غرباء في الحي، ولكن سأكون ممتنًا للغاية أنا وصديقي إذا أخبرتنا كيف اصطدت سمكة السلمون المرقطة هذه".

فسألنا متعجبًا: "لماذا؟ من قال لكما إنني من اصطادها!"

قلنا له إن أحدًا لم يخبرنا بذلك، لكننا شعرنا بطريقة أو بأخرى أنك أنت الذي فعل ذلك.

فأجاب: "حسنًا، إنه شيء رائع أن يلفت الانتباه هكذا، لأنه حقيقي في الواقع، وأنا من قام باصطيادها، إنه حقًا شيء رائع".. ثم تابع وأخبرنا كيف استغرق الأمر نصف ساعة وكيف أنه كسر سنارته حينها، وقال إنه قام بوزنها بعناية عندما وصل إلى المنزل ووجد أنها تزن ثلاثين رطلا.

وذهب بدوره، وعندما ذهب، جاء المالك إلينا، قلنا له التواريخ المختلفة التي سمعناها عن سمكة السلمون المرقطة، وكان مستمتعًا للغاية، وقد ضحكنا جميعًا بشدة عندما قال لنا: "هل قال لكم جيم بيتس وجو ماجلز والسيد جونز وبيلي موندرز جميعًا إنهم من اصطادوا السمكة؟ هاهاها! حسنًا هذا جيد".

ثم أخبرنا التاريخ الحقيقي لصيد تلك السمكة وقد انتهينا لحقيقة أنه هو من اصطادها بنفسه منذ سنوات، عندما كان فتى دون أي فن أومهارة في الموضوع، ولكن عن طريق الصدفة والحظ لا أكثر، الحظ الذي يبدو أنه انتظر فتى ترك المدرسة وخرج للصيد في ظهر يوم مشمس بسنارة عبارة عن خيط مربوط بجزع شجرة، وقال إن حمل سمكة السلمون إلى المنزل قد أنقذه من الضرب والعقاب وحتى معلمه قال إن الأمر يستحق هروبه من المدرسة دون شك، ثم خرج الرجل من الغرفة حينها ووجهنا بصرنا أنا وجورج ناحية السمكة المذهلة، التي كلما نظرنا إليها ازدادت دهشتنا، حتى إن حماسة جورج قادته للصعود على ظهر كرسي كي يراها جيدًا ثم انزلق الكرسي فتمسك جورج بقوة في الصندوق الذي يحملها لإنقاذ نفسه، فسقط الصندوق ومن فوقه جورج والكرسي، فصحت فيه: "أنت لم تصب السمكة بمكروه، أليس كذلك؟"، فقال جورج: "آمل ألا أكون قد فعلت هذا"، لكنه فعلها مع الأسف! ووجدنا سمكة السلمون المرقطة مبعثرة إلى ألف قطعة، أو ربما تسعمائة. أنا لم أعدها.

وهنا اعتقدنا أنه من الغريب وغير القابل للتصديق أن سمك السلمون المرقط يمكنه أن ينقسم إلى قطع صغيرة كما حدث، لكنه الأمر يكون هكذا فعلًا لو كانت تلك السمكة حقيقية!! لكنها لم تكن كذلك، بل كانت تمثالا من الجبس صنع في باريس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل الثامن عشر

# أنا وجورج وتجربة التصوير

غادرنا "ستريتلاي" في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وجدفنا إلى "كالهام"، وخلدنا للنوم هنالك خلف الأشجار في تلك الليلة، إن النهر من "ستريتلاي" إلى "والينجفورد" ليس مثيرًا للاهتمام، وبداية من "كليف" وعلى امتداد ستة أميال ونصف لا يوجد هويس واحد، وأعتقد أن هذا هو أطول امتداد منبسط في أي مكان بالنهر، وعلى الرغم من أن عدم وجود أهوسة وسدود أمر مرضي في حالة ممارسة رياضة التجديف، فإنه لن يكون مناسبًا حال أردت الاستمتاع...

إن الحديث عن الأهوسة يذكرني بحادث مررت به أنا وجورج صباح أحد أيام الصيف في "هامبتون"، كان يومًا رائعًا، والهويس مزدحم، وكما هو شائع في النهر فقد كان هناك مصور يأخذ صورة لنا جميعًا ونحن نسبح في المياه. لم ألحظ ما كان يجرى في البداية، وبالتالي فقد فوجئت عندما رأيت جورج وهو يعدل سرواله ويرتب ملابسه وشعره ويجلس في محاولة إخفاء قدميه، كانت جميع الفتيات يبتسمن وكل الرجال النبلاء ينظرون في جدية وصرامة، إلى أن أدركت حقيقة الأمر في النهاية. وكان من غير اللائق أن نفسد صورة الرجل، فعدلت مجلسي سريعًا في القارب ورتبت شعري ووقفنا في انتظار اللحظة حتى سمعت شخصًا يقول: "انظر إلى أنفك". لم أستطع الالتفاف لمعرفة ماذا كان يقصد، لكني ألقيت ببصري على جورج! لم يكن هناك شيء خاطئ في أنفه على الإطلاق، ونظرت لأنفي فكانت على ما يرام أيضًا.

حتى جاء الصوت نفسه مرة أخرى بنبرة أعلى يقول: "انظر إلى أنفك أيها الأحمق".

ثم صاح صوت آخر:"ادفع أنفك إلى الخارج، ألا يمكنك؟ أنتما أيها الرجلان اللذان مع الكلب!"، لم يجرؤ جورج ولا أنا على الاستدارة إذ كانت يد الرجل على القبعة ومن المتوقع التقاط الصورة في أي لحظة. هل كانوا ينادوننى؟ ما خطب أنوفنا؟ لماذا علينا دفعها للخارج! ولكن الآن الهويس بأكمله راح يصيح بنا، كله بدأ يصرخ وجاء صوت من الخلف يقول: :"انظرا إلى القارب الخاص بكما، يا سيدي، أنتما يا من ترتديان قبعة حمراء وسوداء".. إلى أن نظرنا في النهاية ورأينا أن أنف قاربنا قد علقت تحت البوابة الخشبية الخاصة بالسد أو الهويس، بينما كان الماء يتجمع حوله ويرفعه وكان من الممكن أن نغرق حينها إن لم نحصل على مجداف، ودفعنا الهويس دفعة قوية أجرنا بها القارب وسقطنا على ظهورنا على الفور.

لم نظهر بشكل جيد في تلك الصورة بالطبع، وكالمتوقع أن يكون حظنا أن يلتقطها الرجل في اللحظة التي كنا منبطحين على ظهورنا بتعبير البلاهة على وجوهنا ولنا أربعة أقدام يلوحون بجنون في الهواء، كانت أقدامنا بلا شك هي الأساس في تلك الصورة، في الواقع لم يظهر إلا القليل جدًا في الصورة فقد أخذت أقدامنا المقدمة

بأكملها، مما جعل جميع الناس يشعرون بالخجل من أنفسهم ورفضوا شراء نسخ من الصورة.

حتى إن صاحب أحد القوارب البخارية قد ألغى حجزه لست نسخ منها بعدما رأى النتيجة التي آلت إليها، وقال إنه سيأخذها إذا استطاع أي أحد أن يريه قاربه، ولكن أحدًا لم يستطع إذ كان قاربه في مكان ما وراء قدم جورج اليمنى. كان هناك قدر كبير من عدم الرضا عن الصورة فيما طالبنا المصور بأن نأخذ عشر نسخ لكل منا إذ يظهر بها حوالي تسعة أعشار أجسادنا، لكننا رفضنا وقلنا إننا كنا لنفعل في حال كنا معتدلين!

كانت الأرض حول النهر من "والينجفورد" إلى "دورشيستر" أكثر روعة وتنوعًا في شكل التلال، وأفضل طريقة هي مغادرة النهر عند الهويس والسير على الأقدام عبر الحقول في مكان هادئ يقبع في السكون والصمت.

استيقظنا في وقت مبكر من صباح اليوم التالي حيث أردنا أن نكون في "أكسفورد" قبل حلول العصر، من المثير للدهشة أن يستطيع المرء أن ينهض في وقت مبكر عندما يخيم هكذا في العراء، فلا يتوق المرء إلى "خمس دقائق أخرى" تقريبًا وهو ملفوف في غطاء على لوحات قارب مع حقيبة جلدية يستعملها كوسادة. انتهينا من الإفطار وعبرنا هويس كليفتون في الثامنة والنصف، وكانت الأرض من كليفتون إلى كولهام على ضفاف النهر منبسطة رتيبة، ولكن بعد بلوغ كولهام يصبح المشهد أعمق وأفضل في أبينجدون، يمر النهر في الشوارع بشكل بارز ونظيف.

كما يعد المكان وجهة ممتازة لعشاق الفن والرسم على الرغم من أن المكان يكون أقل جمالا من الصور إلى حد ما. عبرنا هويس "أفلاي" في الثانية عشرة والنصف تقريبًا ثم رتبنا القارب وجعلناه جاهزًا للوقوف، وشرعنا نعمل خلال الميل الأخير، وبين إيفلي وأكسفورد يكمن الجزء الأكثر صعوبة في النهر على حد علمي، إذ يجب عليك أن تكون من مواليد المنطقة لتعلمها جيدًا. فعلى الرغم من أنني جئت إليها عددًا لا يحصى من المرات، لكنني لا أتمكن من السيطرة عليها.

أولاً يدفعك التيار إلى الضفة الصحيحة ثم إلى اليسار، ثم يأخذك إلى الوسط، ويدور حولك ثلاث مرات وينقلك للضفة مرة أخرى، وينتهي دائمًا بمحاولة تحطيمك بالاصطدام في إحدى البوارج. وبطبيعة الحال، ونتيجة لهذا وقفنا في طريق الكثير من القوارب الأخرى وبالطبع استمعنا إلى بعض السباب واللعنات المتواصلة. لا أعرف لماذا يكون الجميع بهذه العصبية في النهر، فإن الحوادث الصغيرة التي تلحظها بالكاد على الأراضي الجافة تشعرك بمزيد من الغضب عندما تحدث في النهر.

فعلى سبيل المثال إن ارتكب هاريس أو جورج أي حماقة على أرض جافة سأبتسم لهما في سماحة، لكن عندما يتصرفان بتلك الطريقة على النهر فأنهرهما بشدة، وعندما يقف قارب آخر في طريقي، أشعر أنني أريد أخذ مجداف وقتل جميع الناس الذين فيه.

الأشخاص الأكثر اعتدالا على الأرض يصبحون عنيفين متعطشين للدماء عندما يكونون في قارب. رأيت ذلك ذات مرة مع سيدة شابة كانت تتصرف بشكل طبيعي ولطيف، ولكن على النهر كان من المريع جدًا سماعها. كانت تصيح طوال الوقت: "لماذا لا ينظر إلى أين يذهب؟ ذلك الشيء القديم السخيف!". كانت تتحدث بسخط ووحشية. ومع ذلك، كما قلت، عندما كانت على الشاطئ كانت لطيفة وطيبة وكأن الهواء على النهر له تأثير سلبي على أعصاب المرء.. على ما أظن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

# الفصل التاسع عشر

# استئجار القوارب

لقد قضينا يومين ممتعين للغاية في "أوكسفورد" على الرغم من وجود الكثير من الكلاب في تلك المدينة، حتى إن مونتمورينسي خاض ما يقارب من إحدى عشرة معركة في اليوم الأول، وأربع عشرة في اليوم الثاني، حتى اعتقدنا أنه سيلقى حتفه في يوم منهما...

إن استئجار قارب في "أكسفورد" من الممارسات الشائعة التي يلجأ إليها الزوار. فالتجديف رياضة مناسبة بالتأكيد لمن يتمتع بالنشاط والحيوية الكافية لها، لكنك لا تحصل على المتعة حال جدفت دائمًا مع التيار، بل إن جدفت عكسه، أو كان هذا ما شعرت به على الأقل عندما كان هاريس وجورج يقومان بذلك وأنا أتولى قيادة الدفة.

ولأولئك الذين يفكرون في جعل "أكسفورد" مقصدهم الأول أنصحكم بالآتي: خذ القارب الخاص بك، صحيح أن القوارب التي تستأجر مجهزة وجيدة جدًا وكاملة مع جميع الترتيبات اللازمة، لكنها ليست جميلة، فالقارب الذي تقوم بتأجيره فوق النهر ليس من النوع الذي يمكنك التباهي به.

أذكر أنني كنت واحدًا ضمن جماعة استأجرت زورقًا صيفيًا في أحد الأيام لقضاء نزهة على النهر، ولم يسبق لأحدنا أن رأى القارب المستأجر في النهر كيف يكون من قبل؛ حتى إننا لم نعرفه عندما رأيناه حين وصلنا. ذهبنا مع حقائبنا وسجلنا أسماءنا، فقال الرجل: "نعم أنتم من كتبتم إلينا بغرض تأجير مركب تجديف مزدوج. جيم، اجلب لهم فخر التايمز".

ذهب الصبي وظهر من جديد بعد خمس دقائق وهو يصارع قطعة من الخشب التي بدت كما لو كانت انتزعت حديثًا من مكان ما. وأول ما جال بخاطري أنها آثار رومانية من نوع ما أو بقايا شيء لا أعرفه، فإن حي التايمز غني بالآثار الرومانية لكن الشاب الجيولوجي الذي كان ضمن المجموعة قد دحض نظريتي، وقال إنه من الجلي جدًا أن ما يمسك به الفتى هي حفريات حوت. وأشار لنا بأدلة مختلفة تثبت أنه لا بد أن ينتمي إلى العصر الجليدي.

ولتسوية النزاع ناشدنا الصبي: "هل تلك حفريات الحوت أم نعش روماني؟"

فقال الفتى: "إن هذا هو فخر التايمز!"

اعتقدنا أن إجابته كانت نوعًا من الدعابة في البداية، لكن عندما استمر في الإصرار لفترة طويلة شعرنا بالانزعاج وصاح فيه قائدنا بحدة: "تعال، تعال، يا فتى! لا تتفوه بأي كلام فارغ. اذهب مرة أخرى واحصل لنا على قارب حقيقي".

حتى جاء صاحب القارب نفسه بعد ذلك، وأكد لنا على كلمته أن الشيء كان حقًا قاربًا جاهزًا ليأخذنا في رحلتنا إلى جنوب النهر وقلنا له إننا نظن أنه ربما على الأقل كان يجب أن يدهنه بدلا من أن نظنه نوع من الحطام. لكنه لم يستطع رؤية أي خطأ فيه حتى أنه بدا مستاءً من ملاحظاتنا، وقال إنه اختار أفضل قارب في كل ما لديه وأننا يجب أن نكون أكثر امتنانًا، وأنه قارب قد تم استخدامه على مدى السنوات الأربعين الماضية ولم يشتك منه أحد من قبل.

لم نجادله وثبتنا القارب وصعدنا على متنه، ودفعنا خمسة وثلاثين شلن لإيجاره لمدة ستة أيام؛ تغير الطقس في اليوم الثالث وبينما كنا في طريق العودة من أكسفورد كان يغطينا رذاذ المطر وتلمع أشجار الزان باللونين الرمادي والأخضر وتضيء كل بلدة صغيرة، مما يجعل المكان يبدو ذهبيًا ومجيدًا.

لكن النهر يصير باردًا رتيبًا مع سقوط المطر المتواصل على مياهه البنية، كأنه صوت امرأة تبكي في إحدى الغرف المظلمة. جدفنا طوال ذلك اليوم تحت المطر، لقد تظاهرنا في البداية أننا استمتعنا بها على سبيل التغيير، وأننا نود أن نرى النهر في كل حالاته.

وبالعودة إلى واقعنا، كنت أنا وهاريس متحمسين للغاية للعمل في الساعات القليلة الأولى، وغنينا أغنية عن الحياة، أما جورج فقد كان أكثر واقعية وتمسك بالمظلة كي تحميه من المطر.

غطينا القارب قبل تناول الغداء، وأبقيناه على حاله حتى بعد الظهيرة، ولم نترك سوى مساحة يمكن لأحدنا أن يجدف من خلالها، وبقينا هكذا لمسافة تسعة أميال أو ما يقرب من ذلك، لا أستطيع أن أقول بصراحة إننا قضينا أمسية سعيدة مع استمرار هطول المطر، إذ كان كل شيء في القارب رطبًا ولم يكن العشاء طيبًا بدوره، وفطيرة اللحم لا تبدو شهية عندما لا تشعر بالجوع، كذلك شعرت أيضًا أنني كنت أرغب في تناولها في مطعم أنيق.

أما هاريس فقد أعطاها لمونتمورينسي الذي شعر بالإهانة حيال ذلك، وذهب وجلس في الطرف الآخر من القارب. لعبنا الورق لمدة ساعة ونصف بعد العشاء، جلسنا وتحدثنا وأخبرنا جورج عن رجل يعرفه عبر النهر منذ عامين بينما كان نائمًا في قارب رطب في ليلة كليلتنا هذه، وقد أصيب بحمى روماتيزمية جراء ذلك، ولم يكن هناك أي شيء قادر على إنقاذه، وقد مات بعد عذاب دام عشرة أيام.

وأضاف جورج أنه كان شابًا على وشك الزواج، في واحدة من أتعس القصص التي عرفها والتي ذكرت هاريس هو الآخر بصديق له كان جنديًا متطوعًا، هؤلاء الذين ينامون تحت قماش مبلل في ليلة مطيرة بآلدرشوت، واستيقظ مصابًا بالشلل في عظامه كلها، وقال هاريس إنه سوف يعرفنا على الرجل عندما نعود إلى المدينة على الرغم من أننا سنحزن لرؤيته. وبطبيعة الحال قادنا الحديث إلى الدردشة حول الحمى وأمراض الرئة والتهاب الشعب الهوائية. وقال هاريس كم يكون مجحفًا للغاية إذا أصيب أحدنا بمرض خطير في الليل بالنظر إلى المسافة التي تفصلنا عن أي طبيب!

وبينما كنا في حاجة لشيء مرح في جلسة كهذه، وفي لحظة ضعف اقترحت أن يخرج جورج آلة البانجو الخاصة به وتجربة ما إذا كان يستطيع أن يقدم لنا أغنية هزلية، ولم يكن جورج في حاجة لأي إلحاح أو أي شيء من هذا القبيل، بل قام بإحضار آلته سريعًا وبدأ في عزف أغنية "عينان سوداوان جميلتان"، لطالما اعتبرتها أغنية عادية حتى سمعت لحن ذلك المساء وكم الحزن الذي انتزعه جورج فاجأني جدًا، وتلك الرغبة التي انتابتني أنا وهاريس في البكاء، وأخذنا نردد ورائه ونحن في حالة من الاكتئاب، انتحب هاريس كطفل صغير وعوى الكلب حتى كاد فكه ينكسر، حتى انتهى جورج. وعندما لم نجد شيئًا آخر نفعله ذهبنا إلى الفراش وخلعنا ملابسنا وذهبنا أسفل القارب لنحو ثلاث أو أربع ساعات بعد ذلك، وحاولنا النوم على نحو متقطع حتى الساعة الخامسة صباحًا.

وعندها استيقظنا جميعًا وتناولنا الإفطار فيما كان اليوم الثاني مثل الأول تمامًا إذ استمر المطر في الهطول، وجلسنا ببعض المحاولات الضعيفة للاستمتاع بالبلل، لكنها لم تحدث بشكل جيد على الإطلاق، فقال هاريس: "لم يتبق لنا سوى يومين فقط، ونحن شباب أقوياء، ويمكننا التغلب على كل شيء".

في حوالي الساعة الرابعة بدأنا في مناقشة الترتيبات الخاصة بنا في المساء. وقررنا التجديف إلى "بانجبورن" كي نقضي ليلتنا، فيما غمغم جورج: "سنقضي ليلة سعيدة"، وجلسنا نفكر في ضرورة أن نبلغ تلك البلدة في الساعة الخامسة، ثم ننتهي من العشاء في الساعة السادسة والنصف، على سبيل المثال، بعد ذلك يمكننا المشي حول القرية في المطر الغزير حتى وقت النوم؛ أو يمكننا الجلوس في حانة تحت ضوئها الشاحب.

فقال هاريس: "أرى أن الذهاب للمسرح سيكون خيارًا موفقًا"، وأخرج رأسه من الغطاء للحظة وأخذ ينظر للسماء، وراح يكمل: "إنه لأمر مؤسف أننا قررنا أن نلتزم باستئجار هذا القارب"، ثم ساد الصمت لفترة من الوقت ألقى خلالها جورج نظرة خاطفة على القارب وقال غاضبًا: "قد يكون من المفيد أن نلحق بالقطار الذي يغادر بانجبورن إلى لندن في الساعة الخامسة، والذي من شأنه أن يصل أرضنا في المدينة في مناخ مريح ثم نذهب إلى المكان الذي ذكره هاريس بعد ذلك".

لم يتكلم أحد. نظرنا إلى بعضنا بعضًا، ويبدو أن كل واحد منا كان يرى الأفكار الخاصة به وهي تنعكس على وجوه الآخرين. فيصمت.

وبعد عشرين دقيقة كان هنالك ثلاثة رجال يتبعهم كلبهم قد شوهدوا وهم يتحركون من القارب نحو محطة السكك الحديدية، يرتدي كل منا زيًا رثًا فوق الأحذية الجلدية السوداء القذرة جدًا ويمسك كل منا بمظلة رطبة. خدعنا مالك القارب في "بانجبورن"، ولم يكن لدينا الشجاعة لنخبره أننا كنا نهرب من المطر، فغادرنا القارب وكل ما يحتويه في حوذته وقلنا له إننا سنأتي في التاسعة صباح اليوم التالي، وإذا حدث أي شيء غير متوقع منع عودتنا سنراسله.

وصلنا إلى "بادينجتون" في تمام السابعة وتوجهنا مباشرة إلى المطعم حيث تشاركنا في وجبة خفيفة، وتركنا مونترينسي بعدما طلبنا أن يكون العشاء جاهزًا في الساعة

العاشرة والنصف، ثم ذهبنا إلى المسرح وكانت هيئتنا لافتة فأضحت لحظة فخر لنا جميعًا، انتهى العرض وذهبنا في طريقنا للعودة، حيث كان العشاء ينتظرنا بالفعل ويجب أن أعترف أننا استمتعنا بهذا العشاء.

فطوال عشرة أيام كنا نعيش على لا شيء سوى اللحوم الباردة والكعك والخبز والمربى، لقد كان الأمر أشبه باتباع حمية، أما الآن فقد كنا نستمتع بالصلصات الفرنسية ومشاهدة المناديل النظيفة والأرغفة الطويلة، جلسنا نأكل في صمت لفترة من الوقت، حتى جاءت اللحظة التي تخلينا فيها عن الجلوس في وضع مستقيم وشرعنا نمد أرجلنا أسفل الطاولة نتيجة لشعور الاسترخاء الذي لم ينتابنا ولو مرة في تلك الرحلة، حتى سكنت أصوات الشوك والسكاكين وشعرنا بالسعادة والرضا.

ثم توجه هاريس الذي كان يجلس بجانب النافذة بنظره ناحية الستار ونظر إلى الشارع، الذي كان يلمع في الظلام تحت تأثير المصابيح الخافتة مع صوت الرياح، فيما كان يهطل المطر بثبات في البرك التي صنعها بشكل متتابع، ويرفع الناس مظلاتهم احتماء منه، حتى قال: "لقد قضينا رحلة سعيدة والشكر والفضل للأب العجوز نهر التايمز، لكنني أعتقد أننا فعلنا الصواب بتخلينا عن استكمالها، نخب الثلاثة رجال الذين هجروا قاربهم!". فيما كان مونتمورينسي يقف على قدميه الخلفيتين أمام النافذة معلنًا موافقته على ما يقال.

## (تمت بحمد الله وتوفيقه)

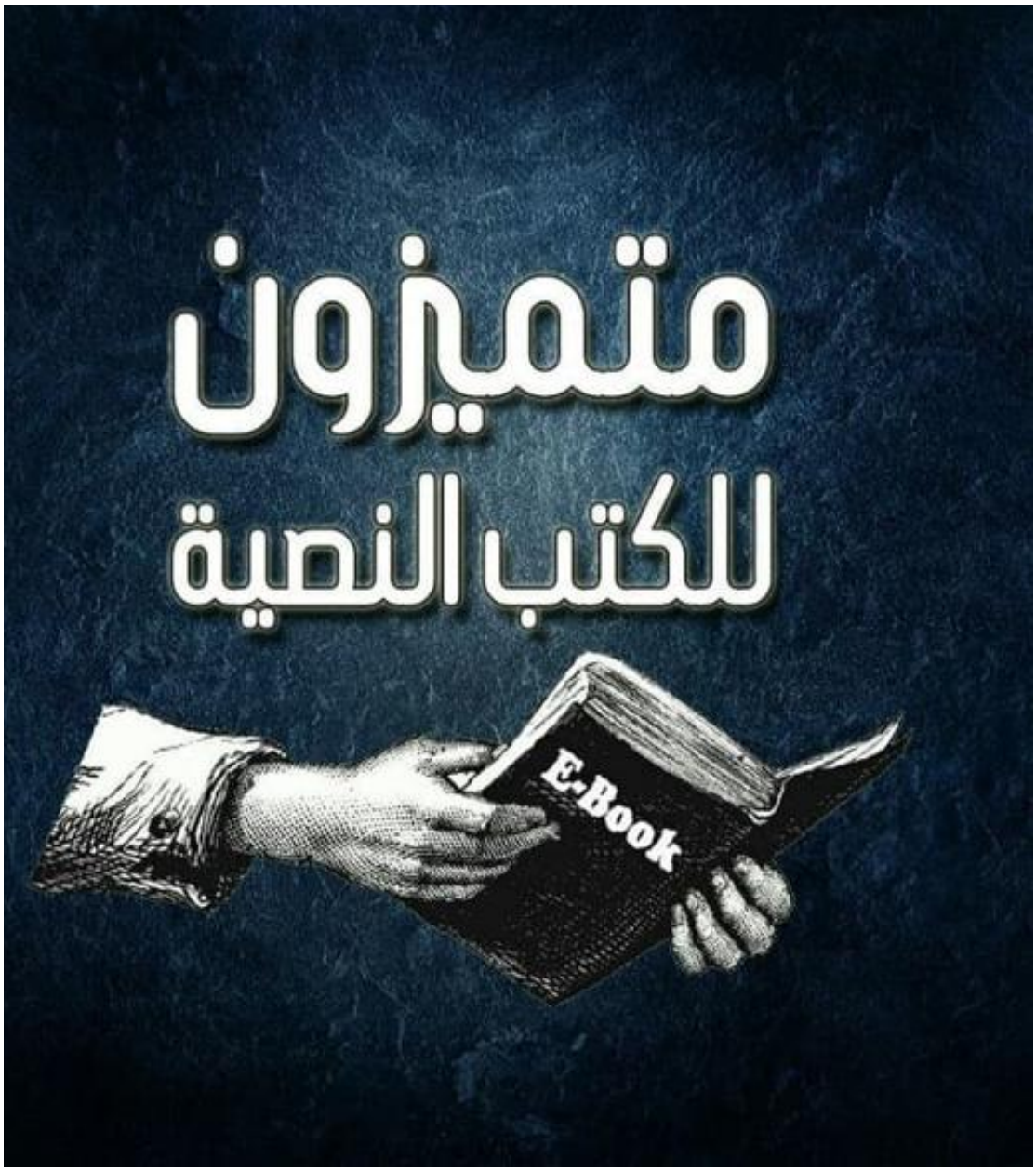
متميزون
للكتب النصية
E-Book

**Group Link – لينك الانضمام الى الجروب**

**Link – لينك القنـــــاة**

# الفرس..


**الفصل الأول**

استراحة قصيرة

**الفصل الثاني**

مناقشة الخطة

**الفصل الثالث**

طريقة هاريس في إتمام الأمور

**الفصل الرابع**

جورج وهاريس يحزمان الأمتعة

**الفصل الخامس**

توقعات الطقس

**الفصل السادس**

هامبتون كورت ()

**الفصل السابع**

يوم خاص بالأزياء

**الفصل الثامن**

هاريس والأغنيات الهزلية

**الفصل التاسع**

سلوك بغيض على قارب شراعي صغير

**الفصل العاشر**

الليلة الأولى

**الفصل الحادي عشر**

قصة ذات عبرة

**الفصل الثاني عشر**

تجربة الإبحار

**الفصل الثالث عشر**

الاختفاء العجيب لهاريس وشطيرته

**الفصل الرابع عشر**

جورج وآلة البانجو()

**الفصل الخامس عشر**

مغامرات التجديف

**الفصل السادس عشر**

القوارب الصغيرة المزعجة

**الفصل السابع عشر**

الأسماك والصيادون

**الفصل الثامن عشر**

أنا وجورج وتجربة التصوير

**الفصل التاسع عشر**

استئجار القوارب

# Notes

[←1]

(1) مرض ركبة الخادمة: مرض يحدث نتيجة التهاب في الركبة بتكون كيس صغير مملوء بالسوائل بها، ويحدث بشكل أكثر شيوعًا لدى الأشخاص الذين يقضون فترات طويلة في الاستناد على ركبتهم والضغط المستمر عليها.

[←2]

(2) الحمى القرمزية: طفح جلدي طفيف يشبه الحروق الشمسية. ويظهر على اللسان لون أحمر في وسطه نقاط بيضاء.

[←3]

(3) القبطان كوك: بحار ومستكشف إنجليزي قام بثلاث رحلات في المحيط الهادي، ورسم الكثير من الخرائط لهذه المنطقة، وقام بالعديد من الاكتشافات مثل اكتشاف الساحل الشرقي لأستراليا وجزر هاواي ونيوزيلندا.

[←4]

(4) فرانسيس دريك: نائب الأميرال الملاح الإنجليزي مهندس العصر الإليزابيثي. وكان الثاني في قيادة الأسطول الإنجليزي ضد الأرمادا الأسبانية 1588.

[←5]

(5) كريستوفر كولومبوس: رحالة إيطالي، ينسب إليه اكتشاف العالم الجديد. عبر المحيط الأطلسي، وصل إلى الجزر الكاريبية في 12 أكتوبر 1492م، لكن اكتشافه لأرض القارة الأمريكية الشمالية كان في رحلته الثانية عام 1498 م.

[←6]

(6) كينجستون: مدينة إنجليزية تقع في لندن وتحوي المركز الإداري للحي الملكي على نهر التايمز، كما تقع حوالي 33 قدم فوق مستوى سطح البحر.

[←7]

(7) تشيرتسي: مدينة في إنجلترا تقع على الضفة اليمنى لنهر التايمز.

[←8]

(8) ووترلو: طريق في مدينة لندن في بريطانيا يربط بين ضفتي نهر التايمز بين جسر بلاكفريرس وجسر هونغرفورد.

[←9]

(9) فيرجينيا ووتر: مدينة تابعة للمملكة المتحدة، وتحتل مكانًا كبيرًا من منطقة رونيميد، وتعد مقصدًا سياحيًا مهمًا ومميزًا.

[←10]

(10) قصر هامبتون كورت: قصر ملكي إنجليزي في لندن، وقد سكنته العائلة المالكة منذ القرن الثامن عشر، وهو يقع على ضفاف نهر التايمز.

[←11]

(11) سد مولسي: سد أو هويس على الضفة اليمنى من نهر التايمز في إنجلترا، تم بناؤه في عام 1815.

[←12]

(12) ويندسور أو وِنزُ: مدينة تقع إلى الغرب من مدينة لندن جنوب شرق المملكة المتحدة، وهي مشهورة بقصر ونزر الذي طالما ارتبط بالعائلة المالكة، والحدائق المحيطة بالمدينة

[←13]

(13) أبينجدون: مدينة تقع على نهر التايمز، وتشتهر بأهميتها زراعيًا وتجاريًا وتاريخيًا.

[←14]

(14) مايدنهيد: بلدة كبيرة في مدينة بيركشاير بإنجلترا، تطل على الضفة الجنوبية الغربية لنهر التايمز.

[←15]

(15) ماجنا كارتا: منشأة في نهر التايمز في إنجلترا، على مقربة من سد بيل وير الذي يقع في بيركشاير. والماجنا كارتا أو الميثاق الأعظم وثيقة إنجليزية صدرت لأول مرة عام 1215م. ثم صدرت مرة أخرى في عام 1216م. تحوي تلك الأحكام التي توجه تهديدات صريحة إلى سلطة الحاكم وقد اعتمدت هذه الوثيقة قانونًا عام 1225م ،ولا تزال النسخة التي صدرت عام 1297م ضمن كتب لوائح الأنظمة الداخلية لـ إنجلترا وويلز حتى الآن. ووصفت تلك النسخة بأنها "الميثاق العظيم للحريات في إنجلترا والحريات في الغابة".

[←16]

(16) مارلو: مدينة داخل منطقة ويكومب في جنوب مقاطعة باكينجهامشير في إنجلترا. تقع على نهر التايمز وتتخذ طابعًا ريفيًا مختلفًا عما يجاورها.

[←17]

(17) البانجو: آلة موسيقية وترية. تتكون من طبلة صغيرة من جلد حيواني أو بلاستيك رقيق مشدود حول إطار دائري أشبه بالدف، وغالباً ما يكون معدنيًا متصلاً برقبة أو زند على شكل ضلع طويل تمر فوقها أوتار موصلة بمفاتيح داخل علبتها.

[←18]

(18) يخنة أيرلندلية: حساء أيرلندي مشهور في أيرلندا وأيرلندا الشمالية، يتكون من خلط لحم الضأن مع خضروات الجذور من البصل والبطاطا والبقدونس ويضاف الجزر أحيانًا إليه.

[←19]

(19) سباق هينلي: تبعد هينلي نحو 40 ميلا عن العاصمة البريطانية لندن من ناحية الغرب، وهي مدينة تجارية على امتداد نهر التايمز. تشتهر البلدة بسباقات قوارب التجديف التي تقام سنويًا على امتداد النهر، ويعود تاريخ أول سباق أقيم فيها إلى عام 1839، وباتت السباقات منذ ذلك الحين تقام نهاية شهر يونيو (حزيران) من كل عام.

[←20]

(20) ريدينج: مدينة مهمة في مقاطعة باركشير الإنجليزية، تقع عند ملتقى نهري التايمز وكينيت، وتبعد حوالي أربعين ميلاً غرب لندن.